

مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي

المسرح همل
غفر الله له ولوالديه



الإيجاز في

آيات الأعلام

للطبيب الشيخ محمد أبي السر عابدين

رحمه الله

تحقيق

الشيخ محمد كريمة راجح

شيخ القراء بالرباط الشامية

دار البشائر

للطباعة والنشر

ص. ب. ٤٩٢٦ - دمشق

المسرح همل
غفر الله له ولوالديه

مطبوعات مركز جامعة المساجد للثقافة والتراث بدبي

المسيرة
عز الله له والى الآخرة



الإيجاز في

آيات الأعلام

للطبيب الشيخ محمد أبي السر عابدين

رحمه الله

تحقيق

الشيخ محمد كريمة راجح

شيخ الفراء بالبيان الشافية

دار البشائر
للطباعة والنشر

ص. ب. ٤٩٢٦ - دمشق

المسيرة
عز الله له والى الآخرة

مقروء الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإيجازُ
في

آياتِ الإعجازِ

أُمِّهِ هَمَلُ
عُرَاهُ لِيُحْيَا

إدارة البحث العلمي و النشاط الثقافي

قسم التحقيق و النشر

مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

ص.ب (٥٥١٥٦) - دبي

بسم الله الرحمن الرحيم

تحقيقاً لأهداف مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في إجراء البحوث والدراسات التي تسهم في نشر الفكر والثقافة والتراث الإنساني فقد وضع ضمن خطته نشر الكتب المفيدة التي تخدم تلك الأهداف.

ومن أجل تنفيذ ذلك كلف لجنة من الأساتذة الأكفاء أوكل إليها الإشراف على الدراسات المقدمة إليه من الجهات المختلفة أو التي يقترحها مسبقاً على بعض الأقسام، مهمتها اختيار المناسب.

وإذ يقدم اليوم كتاب «الإيجاز في آيات الإعجاز للطبيب الشيخ محمد أبو اليسر عابدين رحمه الله ليرجو أن يقع من نفوس القراء الموقع الحسن.

نسأل الله تعالى أن يسدد خطوات المركز إلى ما فيه خدمة العلم والثقافة.

قسم الدراسات والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قياً ، وجعله كتاباً معجزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد ، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله الأجداد ، وأصحابه الذين اختارهم الله ليكونوا حملة هذا الدين ، والمجاهدين في سبيله ، رضي الله عنهم ورضوا عنه .

أما بعد فقد كلفني حفيد العلامة الطيب الشيخ أبي اليسر عابدين عليه من الله سحائب الرحمات ، كلفني حفيده المهندس السيد يسار بن الأستاذ المرحوم عزيز عابدين أن أنظر في كتابه (الإيجاز في آيات الإعجاز) وكان لا بد لي أن أجيب هذا الطلب فأجبتة حفظه الله تعالى ، وجعلته على سنة أبيه وجده وسلفه ، فإن آل عابدين عائلة علمية ؛ وحسبك بالعلامة ابن عابدين صاحب الحاشية التي سارت سير الشمس ، وكانت أعظم ما ألف في فقه أبي حنيفة رحمه الله من حيث جمع الأقوال ، وبيان المفتى به ، والتعرض لمشكلات العصر ، وحل المعضلات الكثيرة التي يحتاج إليها الفقهاء .

ولقد قرأت هذا الكتاب (الإيجاز في آيات الإعجاز) فرأيت ظاهر العبارة ، واضح الأسلوب ، بَيِّن المعنى ، عميق النظر ، جليل الأثر ، لا يحتاج الإنسان أن يكتب عليه في الحقيقة شيئاً لأن الشيخ رحمه الله قام بكل ما يجب ، ولم يحوج قارئ كتابه أن يعود إلى شيء من المراجع لأنه قام هو عنه بكل ذلك . فما وجدتني بحاجة لأن أكتب عليه إلا أموراً يسيرة جداً كان لا بد لكل قارئ في أي كتاب أن يلاحظها .

والشيخ رحمه الله علامة كبير إذا كتب ، أو خطب ، أو درّس ، أو حدث ، حتى أو مزح ، فإنك تجده أبداً يتقلّب في بحوث علمية ، وأفكار أدبية ، ونظرات ثاقبة ، ولا تحتاج إذا شئت أن تسمع منه إلا أن تجالسه ، أو أن تسأله ، ثم يفيض عليك من علمه الغزير ، وفكره المستنير ، وأدبه الجم ما يجعلك في بستان فيه من ألوان الفاكهة والثمار ، وكلّ ما شئت طيباً ، واقطف ما تحيّرت مباحاً .

ويشهد الله ما دخلت عليه مرة إلا ورأيتَه يقرأ في كتاب ، أو يكتب في قرطاس ، ولا يتحدث إليك أبداً عن زيد وعمره ، وإنما يتحدث إليك في العلم .

كان رحمه الله ينظر إلى جلسيه فيحدثه بما يتناسب مع فكره ، وما ينسجم مع علمه ونظره ، فما كان يحدث الناس بما لا يفهمون ، وما كان يأتي الناس بالغرائب . وكلما كان جلسيه أكثر علماً ، وأعظم انتباهاً كان كلامه على مستواه ، ومهما جل فكره وعظم علمه رأى الشيخ أجل وأعظم .

ولقد كان الشيخ إلى علمه الواسع آية من آيات الصلاح والتقوى ، والعبادة والتبتل ، والبكاء والحنين ، والجلوس على « سجادة » صلاته الوقت الطويل في الليل ، والنهار .

وكان يعيش الخلوة الحقيقية مع الكتاب ، أو مع رب الأرباب ، وما كان يعرض له فكرة إلا سجلها ، ولا يجد نادرة إلا كتبها ، وكان يستصحب القلم والقرطاس ليسجل ذلك كله ، ثم ليُصنّف كل شيء مع مثيله ، ثم ليخرج من ذلك كتاباً ، ومن هنا كثرت مؤلفاته وكتبه ، فعند الشيخ من تأليفه الكثير ، وأسأل الله أن يوفق حفيده ليدفع بذلك كله إلى الطباعة ، ثم إلى المكتبات ، ليستفيد الناس منها ، فما أحوج شبابنا بل علماءنا إليها . وكنت أود أن تقوم بذلك وزارة الأوقاف ، وباعثها أطول ، وقدرتها أجل وفضل الشيخ على دائرة الإفتاء لا ينكر ، ولكن لكل أجل كتاب ، ولا بد إن شاء الله أن تظهر هذه الكتب على يد هذا الحفيد .

إن هذا الكتاب الذي بين يدينا الآن وهو كتاب من كتب كثيرة تعب الشيخ فيه تعباً كثيراً حتى كان كذلك .

وبحق لا يستطيع أن يكتب مثله إلا من كان على شاكلته في الاطلاع ، والبحث والتدقيق ، وأنى يتاح هذا لكل عالم ؟ فإن الشيخ رحمه الله عاصر علماء أجلاء قلما يأتي الدهر بمثلهم ، بالإضافة إلى أنه عاش في بيت العلم فأبوه رحمه الله الشيخ أبو الخير كان من جلة العلماء وتقلد كبرى الوظائف العلمية حتى صار الإفتاء إليه ، وكان يرسله إلى الشيخ سليم سمارة في الميدان ، العالم الصالح الذي كان يقول الشيخ أبو اليسر عنه : إنه من أعلم من عرف في عصره ، وكان يقول : ما أكثر ما استفدت منه . والشيخ عمراً أكثر من قرن ، وفي ذلك العمر كله ومنذ أخذ يميز عاش العلم والعلماء إلى ذكاء وقاد ، ونظر ثاقب ، وهمة رفيعة ، وعمل متواصل ، وكتابة لكل ما يستحسن ، فكان آية علمية بإجماع العلماء ، وكتبه وفتاويه تنم عنه وعن قدرته . وأشهد أني دخلت لأعوده إثر عملية جراحية وكان لا يزال في المشفى ، فلما وقع بصره عليّ تبسم وأدناني وقال : أهلاً بك ، جئت في وقتك ، وكان بين يديه ديوان سيدنا حسان بن ثابت صاحب رسول الله ﷺ فقال : أريد أن تطالع لي البيت الذي يقول فيه حسان ... وكان لا يستطيع أن يطالع لشدة مرضه وألمه ، وكان يحفظ من البيت بعض كلمات ، فتناول الكتاب ، وقلبت صفحاته ، ووقعت على البيت فقرأته له ، فتهلل وجهه ، وانفرجت أساريره ، وتحامل على نفسه ، وأخذ ورقة وقلماً وكتبه ، وكتب ما يريد أن يعلق عليه ، ثم ترك القلم والورقة واستلقى على هيئة من كان في عمل شاق ثم استراح ، ثم قال لي : جزاك الله خيراً ، وأحسن إليك ؛ الآن قد استرحت ، والله يا بني ، إنني منذ وقت أفكر في هذا البيت ، وأريد أن أذكره وأعلق عليه ، ولكن قوتي لم تسعفني .

فانظر حفظك الله كيف يستصحب الكتاب حتى المشفى ، من أجل أن يقرأ به إثر العملية ، ثم هو يستصحب القلم والقرطاس من أجل أن يكتب

الفوائد التي تعرض له ، ثم هو لا يبالي أن يسأل طلابه أن يساعده عند الحاجة ، فهل رأيت أو سمعت بمثل هذا الدأب والانكباب على العلم ، ثم هو بعد هذا وذاك يقصد بكل ذلك وجه الله سبحانه ، يعرف ذلك من خالطه ، وأكثر التردد عليه . أسندت إليه وظيفة « مفتي الجمهورية العربية السورية » فقام بها كما كان يقوم بها أسلافه العلماء ، فكنت تدخل عليه وهو في دائرة الفتوى فتجد كتب الفقه بين يديه ، وتجد الفتاوى مبسطة أمامه ، فكان يقرأ السؤال بنفسه ، ويجب عليه بقلمه وتوقيعه . وأشهد أنني دخلت عليه مرة وذلك في بيته بعدما ترك وظيفة الإفتاء وبيننا أنا جالس أمامه دخل سائل فسأله عن مسألة فأجابته على ما سأل ، فقال : اكتب لي ذلك فقال الشيخ : نعم . ثم أخذ الحاشية حاشية ابن عابدين فاستخرج الجواب منها ، ثم كتبه . وانصرف الرجل . وبعد أقل من عشر دقائق جاء سائل آخر فسأله نفس السؤال وطلب منه أن يكتب له الجواب فعاد ثانية إلى الحاشية ونقل الجواب وأعطاه إياه مكتوباً . ثم انصرف الرجل ، فسألت الشيخ قائلاً : هل كان من حاجة إلى الرجوع ثانية إلى الحاشية وقبل قليل كانت بين يديك ؟ قال : هكذا ينبغي أن يكون ، كلما أردنا أن نكتب جواب استفتاء يجب أن نعود إلى المصادر حتى نكون قد نقلنا من المصدر نفسه ، لا من حفظنا ، وحتى يصح أن نقول : قال فلان في كتابه كيت وكيت ، فلعلنا خانتنا الذاكرة وتركنا بعض الألفاظ التي ينبغي عليها الكثير أو القليل من الأهمية .

هكذا كان العلماء ، وهكذا كانت دائرة الإفتاء .

إنك في هذا الكتاب « الإيجاز في آيات الإعجاز » ستقرأ الشيخ عالماً باحثاً ناظراً مدققاً ، وسترى الشيخ من العلماء الأوائل الذين لا يقلون عن الغزالي ، والنووي ، وابن عابدين . فإنه على شاكلتهم رحمهم الله في العلم والعمل والتقوى وإليك خلاصة مختصرة عن هذا الكتاب ، وهي لا تغنيك عن قراءته . فإنك إذا شئت أن تنظر في كتاب الله ، وأمامك أعظم العلماء يملئ عليك ويدريك ويفسر لك ويؤول ، ويشرح لك ويبين فاقراً هذا الكتاب ، فإن الشيخ باعه طويل ، وقد

أخذ بأسباب العلم في كل علم من العلوم فهو بالإضافة إلى أنه بارع في الشريعة كان بارعاً في اللغة وبارعاً في علوم عصره كلها ، وكان الشيخ بالإضافة إلى ذلك طبيباً كبيراً ، وكان يدخل المشافي ويجري العمليات الجراحية الناجحة ، وكان يتقن ما يحتاج إليه من اللغات الشرقية والغربية ، وكان له باع طويل في علم الفلك وغيره . رحمه الله وأجزل مثوبته .

١ - قدم الشيخ لكتابه بذكر شيء عن حياته ، ثم ذكر شيء عن عظمة الإعجاز في القرآن .

٢ - ثم أعقب ذلك تحت عنوان (مقدمة) بتعريف التفسير والتأويل ، والاختلاف في ذلك على شكل مفصل وواسع ، إذا قرأته تعجب من كثرة اطلاعه لكثرة نقوله .

ثم إنه لم يكن يكتفي بالنقل ، بل كان يناقش الآراء ، ويفصلها ، ويجمع بينها إذا أمكن .

ثم تكلم في هذه المقدمة عن بيان القرآن ، وبيان السنّة ، وبيان الصحابة .

ثم بين أن التفسير يكون بأحد أمور :

١ - النقل عن النبي ﷺ .

٢ - الأخذ بقول الصحابي .

٣ - الأخذ بمطلق اللغة .

٤ - التفسير بالمقتضى من معاني الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع . ومثاله ما كان لابن عباس بدعاء النبي ﷺ : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . ثم تكلم رحمه الله على التفسير بالرأي ومحض صواب ذلك من خطئه ، فبين الصواب ودحض الخطأ .

ثم تكلم في هذه المقدمة عن الإعجاز ، ثم ذكر الدلالات : دلالة العبارة

والإشارة والنص أو الاقتضاء .

ثم تكلم عن المعاني الإشارية التي يستخرجها الصوفية مما قد يشير إليه النص ، وليست مقصوداً منه ، وقد أفاض في ذلك ، وفيما يجوز منه وما لا يجوز . وللشيخ باع واسع في التصوف علماً وعملاً . ومن عاشره عرفه متصوفاً عاملاً ، لا متصوفاً قائلاً .

ثم تكلم عن التفاسير ، ووجهة كل مفسر ، وبيان الطريقة التي مشى عليها ، ذاكراً الكشف والخازن وأبا السعود والبيضاوي والنسفي والقرطبي والآلوسي وغيرهم .

ثم إنه عرض إلى ناحيتين :

الأولى أنه لا يجوز استخدام القرآن لتأييد الفرق والخلافات بينها ،

والثانية استخراج ما في القرآن من المعجزات الكونية والتي استطاع العصر الحديث بما حصل له من اكتشاف في الكون أن يدرك الإشارة منها في القرآن ، فبين أن على العلماء أن يهتموا بهذه الناحية ، بشرط عدم الغلو ، فإنه غير محمود .

ثم بين أن كتابه حاوٍ لهذه الآيات التي تضمنت هذا النوع من الإعجاز العلمي في غير غلو . وصدق الشيخ فإنه كان متبوعاً لهذه الآيات بدقة وقد أعانه على ذلك علمه الجهم الواسع ، ولا يخطر ببال أحد أن يأتي أحد بمثل هذه الكثرة الكاثرة من الآيات التي تدل على إعجاز القرآن ، ثم إنه ذكر فصول الإعجاز وجعلها تسعة فصول :

الفصل الأول في أحوال الآخرة مثل قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ ، وذلك أن أحوال الآخرة غائبة عنا وأنه سبحانه هو العليم بها وحده ، ولا يتسنى لبشر أن يخبر بشيء من ذلك .

والفصل الثاني من الإعجاز ما تحدى به كل من سواه تعالى حيث يقول : ﴿ خلق السماوات والأرض بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تُميد

بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴿

والفصل الثالث ما أخبر الله به رسوله ﷺ من نوايا الأعداء التي كانوا يبتغونها ومن نجواهم في السر ، وإظهارها للنبي ﷺ ، فإنها أيضاً من المعجزات الغيبية التي لا يطلع عليها سواه تعالى وذلك كقوله : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تتحدرون ﴾ فقد استهزأ المنافقون بالنبي ﷺ في غزوة تبوك وقالوا إنه يريد أن يفتح قصور الروم وحصونها ، هيهات هيهات فبين الله ما دار بينهم ، وهذا من الإعجاز .

الفصل الرابع ما في القرآن العظيم من الإخبار بالغيب ، وفي بعضه أن لو كان كيف يكون وذلك كقوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنه وفيكم سماعون لهم ﴾ .

والفصل الخامس في ذكر الأمم السابقة وما جرى معهم وغيوبة التاريخ عن ذكر أحوالهم ثم اختباط المؤرخين واختلافهم بعدد سني أيامهم ومدة أعمار الأمم السابقة التي أثبتت الآثار الجيولوجية أنها فوق ما ذكره بكثير وكثير ، ثم جاءت الآية التي في أول سورة إبراهيم ﴿ ألم يأتكم نأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ .

والفصل السادس آيات التهديد للأمم العاصية وما يحل بهم من العذاب إن خالفوا أوامر أنبيائهم ، وحصول تلك الكوارث كما وعدهم الله على لسان أنبيائهم .

والفصل السابع آيات الأحكام الشرعية التي أتت موافقة لكل عصر وزمان ودليل ذلك أن المسلمين لما تمسكوا بها كما أنزلت ملكوا الدنيا وسادوا العالم .

والفصل الثامن من الإعجاز القواعد التي سنها الله سبحانه لعباده من مكارم الأخلاق ، وهذه عددها يفوق الحصر لاستنتاجها من جميع كلام الله سبحانه ولكن أمهات آياتها مثل قول الله ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله ﴾ .

والفصل التاسع من الإعجاز احتمال الآيات معاني متعددة يأخذ السامع
والتالي منها حسب فهمه واستعداده ابتلاء من الله تعالى لمن يتبع دينه ولمن يضل ،
وامتحاناً منه للعلماء أن يغوصوا ويستخرجوا من معانيه ما دق ورق وصفا ، ثم
يكون إظهاراً لمعجزته المنيرة القيمة أن يكون ما يستحدث في الزمن مشاراً إليه
بأجلى بيان. وهذا الفصل من الإعجاز أربعة أنواع تتبين بأمثلتها، وعلى النوع
الرابع مدار بحثنا بهذا الكتاب .

١ - النوع الأول المتشابه .

٢ - النوع الثاني آيات الأحكام الشرعية وما استنتج منها علماء الأصول
والفقه .

٣ - النوع الثالث : ما استخرج منها علماء التصوف ما دق من المعاني على
حسب الإشارة لا العبارة .

٤ - النوع الرابع الذي عليه مدار بحث هذا الكتاب .

ومن أمثلة النوع الأول من الفصل التاسع قوله سبحانه ﴿ هو الذي أنزل
عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾ .

ومن أمثلة النوع الثاني من الفصل التاسع ما استنبط منه المجتهدون أحكامهم
التي اختلفوا فيها . ومراده كل الآيات التشريعية التي تحتل الاجتهاد .

ومن أمثلة النوع الثالث من الفصل التاسع استخراج ما دق ورق من معانيه
العظيمة بإشارة خفية كاستخراجات الصوفية رضي الله عنهم الذين يحملون معاني
القرآن على المواعظ والآداب .

ثم هو مع ذلك يحقق في هذا الموضوع فيقول : يجب إبقاء معنى الآيات
على ظواهرها مع إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، يمكن
التطبيق بينها وبين الظواهر . ثم ذكر أمثلة كثيرة ومنها ﴿ أولم ينظروا في ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴿ فنبه على أن الملكوت لم يخلق من شيء وما سواه خلق من شيء .

ثم أخذ يتكلم بعد ذلك عن آيات الإعجاز التي هي غرضه ومقصوده، ومن أمثلة ما ذكر قوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ .

قال رحمه الله : هذه الآية من آيات الإعجاز التي لا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها في حين نزولها ولا يمكن لأي كان أن يتكلم بها بدون علم ولا رؤية ، وما هي إلا من وحي علام الغيوب ، وما يدري البشر أن الرياح تنقل أعضاء التذكير من النبات والأشجار إلى مكان يتعذر أو يتعسر لقاحها فيتزاوج عالم النبات والأشجار العاليات بما تسفيه الرياح وبما تقربه من رؤوس الأشجار لبعضها كما تشاهد في الحور والدلب والصفصاف والسرو وغيرها وبما يتطاير في الهواء ..

وهكذا يتابع حديثه فتشعر بسعة علمه واطلاعه ، وسعة معرفته وبراعته ، وقدرته في ذكائه وغير ذلك .

وباختصار فالشيخ رحمه الله كان موسوعة عصره ، وقد أقر له القاصي والداني بذلك .

ولئن مات الشيخ وانتقل إلى رحمة الله فإن كتبه لم تمت ، ولا تموت أبداً ، فالمطلع عليها مجالس له ، قاعد بين يديه .

وأخيراً أسأل الله أن يوفق حفيده المهندس يسار أن يخرج كتبه للوجود حتى يتمتع بها أهل العلم والنظر ، فما كتبها إلا ليتنفع بها . وأرجوه سبحانه أن يحسن مثوبته ، وأن يرفع منزلته ، وأن يجعله في الأحسنين أعمالاً .

قاله بفمه وكتبه بقلمه الشيخ محمد كريم راجع شيخ القراء في دمشق الشام .

دمشق في صبيحة يوم الثلاثاء ١٢ رجب الأصم من عام ١٤١٣ الموافق ٥ كانون

الثاني ١٩٩٣ .

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد صاحب القدر العظيم ، وعلى آله وصحبه الناقلين لنا أحواله بصدقٍ وتسليم .

وبعد : فإني تلقّيت علومَ الشريعة على أساتذة ذوي تمكين ، في العلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الدين ، لهم الباعُ الأطول في العلوم العقلية والنقلية بلا مدافع ، وكلُّ منهم مرجعٌ لأهل عصره بما اختصَّ به بلا ممانع . ثم عانيتُ تدريسها في الجامعات والجوامع ، وجاهدتُ نفسي لتلقيها على هؤلاء الفضلاء ، وحصلتُ منهم ومن غيرهم على إجازاتٍ علميةٍ ودوليةٍ في الطب والإفتاء والقضاء ، ثم مارستُ التدريس والطبَّ والفتيا ، وتركتُ الحُكْمَ لحاكم السماء . ويعلم الله أنني ما قصدتُ بما أسلفتُ الإطراء والثناء ، وإنما قصدتُ بما علمتُ ورأيتُ أنَّ ما أتى به محمد ﷺ لا يمتُّ بصلَةٍ لما كان عليه من حياة الأُمِّية والصحراء . فقد كان في حياته ﷺ ينفردُ بعبادة ربِّه في غارِ جرّاء ، وكان يرعى الغنم على قراريطٍ لقريش بلا خفاء . فأمنتُ وصدّقتُ أنَّ ما أتى به من هذا الكتاب المعجز الذي لا يصلُّ إليه عقلُ العقلاء ، وغيره من المعجزات التي يستهدي بها الأصدقاء والأعداء ، أنها ليست منه بل من علم ربِّ الأرض والسماء وأدبه . ولو أن المعاندين تركوا العناد والشقاء لعلموا أن ما هُم عليه هُراء في هُراء . فهذا ما وصلتُ إليه بما عانيت ، فالشكر لمستحقِّ الشكر والثناء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ؛ وإني إذ يَبِّنتُ إعجازَ بعضِ آياتِ الكتاب العزيز بدون استقصاء وقفْتُ عندما وصلتُ

إليه ، لأن جميع آياته معجزٌ بلا امتراء . لكن الفرق بينها أن بعضَهَا يُمكن إدراك إعجازه لأمثالنا العوام ، فأثرت جمعه ليعرفه الخاصُّ والعام ؛ وإني أعلم أن كثيراً ممن سبقني خاض هذا البحر بكلِّ إقدام ؛ لكن لكلِّ عصرٍ ومصرٍ ابتكارات تختلف فيها الأفهام ؛ وإني ما خرجتُ عما قاله علماء التأويل والتفسير ، ولكن زدت عليه بما لا يخالف أقوالهم بيانٍ وتقرير . والله تعالى أسألُ أن ينفع به الخاصَّ والعام ، إنه وليُّ الفضل والإنعام .

هذا وقد رُتبتُ كتابي على مقدمةٍ وفصول ؛ أما المقدمة ففي معنى التفسير والتأويل وما يتبع ذلك من الأبحاث والفوائد ؛ وأما الفصول ففي أنواع إعجاز القرآن العظيم التي لا تنحصر ، لكن ذكرنا تسعةً منها حسبما ألهمنا الله تعالى ، والفصل التاسع من الكتاب هو المقصود ، مع ما يحويه من أبحاثٍ بعدد الآيات المتناسبة في الإعجاز ، فاعلم ذلك بإيجاز .

ومما ينبغي التنبيه له أن كثيراً من الدجالين الكذابين أرادوا معارضة آيات الكتاب المستبين ، وما هو إلا من تسويلات الشيطان الرجيم ؛ ظناً منهم أن كلَّ كلامٍ مرصوفٍ خطابيٍّ بليغٍ هو مثل القرآن الكريم . والجواب عن ذلك أن إعجاز القرآن غيرُ مقتصرٍ على ترصيف الكلام وبلاغته بدون معانٍ مقصودة ، بل كلُّ آيةٍ تدلُّ على معنىٍ غيرِ الآخر ، هو في نفسه بليغ ؛ فلو أراد أحدٌ معارضة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝۶۲ ﴾ [العنكبوت : ٦٢] فلعمري ماذا يقول ؟ ١٠٩ هـ .

فمعجزة هذه الآية بقطع النظر عن اختصارها وبلاغتها تدلُّ على معنىٍ عظيم ، وهو إحاطة علمه تعالى بكلِّ شيءٍ فما تعارضُ هذه الآية المركبة من ثلاث كلمات إلا بضدّها وهو الكذب والاختلاق ، وإني لم أر آيةً خاليةً من معنىٍ معجزٍ لو أراد أيُّ بشرٍ معارضتها ، فإنما يعارضها بالكذب والبُهتان ؛ فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفتْ ۝۱۰ ﴾ [المرسلات : ١٠] فماذا يُقال بمعارضتها ؟

هل يُقال إلا شيءٌ يقرُّرها أو يناقضها ؟ فإذا قرَّرها فهي وافية كافية ، لا يمكنُ أن يؤدَّى هذا المعنى بأبلغ منها ، وإذا كذَّبها فهو الكاذب المفترى فنسأل الله تعالى أن يُرينا الحقَّ حقاً ويرزقنا اتباعه بمنه وكرمه ، هذا ومما ينبغي أن يُعلم أني لم أقصد بهذا الكتاب إثباتَ إعجازِ آياتِ الله تعالى لأتوصَّل به لإثبات نبوة النبيِّ الصادق الذي أتى به ، إذ إعجازُ القرآن فوقَ ما أقول وفوق ما تدركه العقول ، بل قد أكون مخطئاً فيما يقتضي أن أجول ، ولكنَّ قصدي بيانُ ما حاك في ذهني من معقولٍ ومنقولٍ . نعم إن هذا القرآن وإن كان هو المعجزة العظمى الباقية على مرِّ الدهور ، ولكن ثمة معجزة أبسط من كلِّ معلومٍ ومجهول تدلُّ على صدقِ هذا النبيِّ الرسول ﷺ وشرف وكرم ألا وهي حياته وسيرتها بلا تكلف ولا فضول ، ورحم الله من ألَّف كتب الموالد والمعارج لأنها وافية بالمقصود ، ولا سيما شرح معراج ابن حجر ، لسيدي الجدِّ الشيخ أحمد عابدين تلميذ عمِّه العلامة ابن عابدين رحمه الله .

وإنا إذا نظرنا في سيرة حياته ﷺ فإنه نشأ يتيماً أمياً يرعى الغنم لقريش ، لا يألف أحداً منفرداً في الغار فبحشنا بأصل خلقته لما جبل عليه قومه الكفار ، وأتينابرجل مثله عاش بمثل هذا الحال ؛ فإني أسأل من يضطلع بهذا السؤال ، كيف تكون مداركه وعقليته وفهمه وعلمه بين الأمثال ... ؟ لعمرى يكون الجواب أنه من أعظم الجهال ، بل من أكبر أعداء الإنسانية وأعظم الوبال . بينما ترى هذا الرجل الذي عاش ونشأ بمثل ما ذكرنا من الأحوال أتناا بشيء ما سبقه بمثله بشر من الرجال ، من علمٍ وتقوى وجمع كلمة وإصلاح وبلاغة وفصاحة وزُهد ، وهديٍّ لغيره بكلِّ اعتدال ؛ مما يقطع لمن يتبَّع هذه السيرة الشريفة أنَّ ما أتى به ليس من عنده ، بل هو من عند خالقه ذي العظمة والجلالة ، والله إنَّ سيرته وحدها هي الكافية الوافية دليلاً على صدقه وصدق نبوته ، وإنَّ من لم يتبعه إنما هو معاندٌ ضالٌّ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿ [القصص : ٥٦] والحمد لله على كل حال .

أما كون هذا القرآن معجزاً و دليلاً على صحة دين الإسلام ؛ فلعمري لو تجرد الإنسان عن كلٍّ مرجح لدينه من الأديان أو مذهب من المذاهب ، ونظر نظرة منصفٍ في هذا القرآن العظيم لاكتفى به دليلاً على صحة دين الإسلام ، ولا يحتاج إلى دليلٍ آخر أو برهان . قال الله تعالى في كتابه الكريم بسورة فاطر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [فاطر : ١٥] لماذا قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها المخلوقات ؟ لماذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الملائكة ؟ لماذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الجن ؟ لماذا قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الحيوان ؟

الجواب أن الناس هم الفقراء إلى الله بكلِّ شيء ، وبكلِّ حركةٍ وسكونٍ أكثر من سواهم ، الناس يحتاجون إلى أشياء لا تحصى مما لا يحتاجه سواهم ، الناس يحتاجون إلى الطعام والشراب والكسوة والمسكن والفلاح وفصل الخصومات والتناصر والتعاون وتسهيل المعاملات وغير ذلك مما لا يحصى ؛ فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يحتاجون لسكن ولا لألبسة ، ولا آلات لتهيئة هذه الأمور ، ولا يحصل بينهم خصومات ولا مشاكل ولا حروب ، وليس فيهم فقير ولا غني ولا ظلم ولا طيب ولا جراح ولا حراث ولا يطار ولا حداد ولا طباخ ولا حرب ولا سلم ، ثم انظر إلى الجن ترى كثيراً ما يحتاجه البشر هم في غنى عنه ، ثم انظر إلى الحيوانات تر أكثر ما يحتاجه البشر هم في غنى عنه أيضاً ، ولو نظرت إلى سائر مخلوقات الله وقستها إلى البشر لتجلى لك هذا الأمر بكلِّ مظاهره مما لا يحتاج إلى تفصيل وتعداد ، والله لو تجرد كلُّ إنسانٍ عن كلِّ داعية وكلِّ مرجع وكلِّ تعصّب ، وخلا بنفسه لما وجد أكثر إعجازاً من هذا القرآن ، ولما وجد أكمل من دين الإسلام ، ولما وجد أصدق من محمد عليه الصلاة والسلام ، وكَم في القرآن من أخبارٍ غيبيةٍ أخبر

عنها رسولُ الله ﷺ قبل وقوعِها ، فارجعْ أيها المعاندُ ، وأيها الحائرُ إلى الحق الذي لا محيدَ عنه ، وأشفقْ على نفسك مما تقع فيه بحياتك الباقية بعد حياتك الفانية .

وما المرءُ إلا راكبٌ ظهرَ غمره على سفرٍ يُضنيه في اليومِ والشهرِ
بيتٌ ويحيا كلَّ يومٍ وليلةٍ بعيداً من الدنيا قريباً من القبرِ
وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّضْتُ عُيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ [يوسف : ٨٤] تر
العجب ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً
كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] تر الأعجب .

وكذا قوله تعالى آخر سورة النحل : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾
وذلك أن الإنسان يحزنُ ويغضب ممن يكذبه ، ويتمنى زواله وذهابه ، ولكن لا يحزن عليه إذا أصابه ما يشفي غليله منه ، أمّا هذه الآية فدليلٌ على عظمة محمد ﷺ ورحمته وشفقته على أمته ، فإنه ﷺ كان يحزن عليهم بتكذيبهم إياه خوف أن يصيبَهُم العذابُ أكثرَ من حزنه من تكذيبهم والآية صريحةٌ بذلك ، فإنه تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ١٢٧] تسلياً له لما يصيبهم ، وليس هو أمراً بعدم الحزن منهم ؛ وفرقٌ بين الحزن عليهم والحزن منهم ؛ فإنَّ الحزن عليهم يدلُّ على الشفقةِ والرحمة والعطف الذي جُبِل عليه ﷺ على أمته أن ينالهم عذابُ الدنيا والآخرة ، وفرقٌ بينه وبين الحزن منهم المستوجب للغضب والانتقام ، فالله سبحانه يقول لنبيه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] أي قاتل نفسك عليهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
اعلم أن علم التفسير هو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية . وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية كما في كشف الظنون ، ونقل عن الفناري أن الأولى أن يقال : علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه وتعالى بقدر الطاقة الإنسانية .

وفي الشهاب : ما يعرف به معاني كلام الله أو ألفاظه^(١) بحسب الطاقة البشرية . قال : ولا يخفى ما فيه ، فإن أحداً لم يعدّ القراءات من التفسير .

وقال في الإتقان : التفسير تفعيل من الفسر وهو البيان والكشف ، والتأويل من الأول ، وهو الرجوع ، فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني . واختلف في التفسير والتأويل . فقال أبو عبيد وطائفة : هما بمعنى . وقد أنكر ذلك قوم ، حتى بالغ ابن حبيب النيسابوري فقال : قد نبغ في زماننا مفسرون لو سُئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه . وقال بعضهم : التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة ، إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة . وقال المائريدي : التفسير : القَطْعُ على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عَنَى باللفظ هذا . فإن قام دليل

(١) معاني ألفاظه لا تعني القراءات بحال . أما القراءات فهي وجوه النطق به .

مقطوعٌ به فصحيح ، وإلا فتنسیرٌ بالرأي وهو المنهی عنه . والتأویل : ترجیحُ أحدِ المحتملات بدون القطع والشهادة على الله . إلى آخر ما أطال صاحب الإتيان في ذلك .

ثم ذكر من شروط التفسير أن يُفسَّر القرآن بالقرآن نحو قوله تعالى : ﴿ أَهَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٦] فسرهُ قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ ﴾ [المائدة : ١٠٧] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة : ٦٧] فسرّها قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٧] فسرّها قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] .

فإن لم يوجد البيان في القرآن يُصار إلى السُّنَّة ، كبيان الصلاة وعدديها وعدد ركعاتها ، والزكاة ومقاديرها ، والحجّ وكيفيته . وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : كلُّ ما حَكَمَ به رسولُ الله ﷺ فهو مما فهم من القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] في آيات آخر ، وقال ﷺ : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » ، يعني السنة ^(١) .

فإن لم يجد من السُّنَّة رجوع إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله . وقد روى الحاكم في المستدرک أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتزيل ، له حُكْمُ المرفوع . اهـ .

وإن تعارضت رُدَّ الأمر إلى ما ثبت فيه السمع ، فإن لم يجد سمعاً وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رُجِّح ما قَوِيَ الاستدلال فيه ، كاختلافهم

(١) رواه أحمد في « مسنده » وأبو داود بلفظ « أُوتِيت الكتاب » .

في معنى حروف الهجاء ، يرجَّح قولُ من قال إنها قَسَم . وإن تعارضت الأدلة في المراد علم أنه قد اشتبه عليه ، فيؤمن بمرادِ الله تعالى ولا يتهجَّم على تعيينه ، وينزُّله منزلةً المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

ثم نقل صاحب الإتيان عن ابن تيمية أنه يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لَتُنِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤون ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يَعْلَمُوا ما فيها من العِلْم والعمل . قالوا : فتعلَّمنا القرآن والعِلْم والعمل . ولهذا كانوا ييقونُ مُدَّة في حفظِ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدًّا^(١) في أعيننا رواه أحمد في « مسنده » . وأقام عمر على حفظ البقرة ثمان سنين . أخرجه في « الموطأ » . وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء : ٨٢] .

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر ، فهو قليلٌ بالنسبة إلى ما بعدهم . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصحُّ عنهم من الخلاف يرجعُ إلى اختلاف تنوُّع في العبارة مع اتحاد المسمَّى ، لا اختلاف تضادٍّ ؛ كتفسيرهم الصراط المستقيم بالقرآن ، أو بالإسلام ، أو بالسنة ، أو الجماعة ، أو بطريق العبودية ، أو بطاعة الله ورسوله ؛ فهؤلاء كلُّهم

(١) جَدًّا : أي عَظَمَ في أعيننا وجلَّ قدره فينا وصار ذا جَدِّ .

أشارَ إلى ذات واحدة ، لكنَّ وصَفَها كلُّ منهم بصفةٍ من صفاتها . وكذِكر العام ببعض أنواعه الذي يختاره المفسِّر على سبيل التمثيل لا على سبيل التحديد ، كتمثيل الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، فالسابق الذي يصلِّي أولَ الوقت ، والمقتصد في أثائه ، والظالم لنفسه المؤخِّر لاصفرار الشمس ، أو السابق المحسِن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد المؤدِّي للزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانعُ الزكاة .

وهذا هو الغالب في تفسير السلف الذي يُظنُّ أنه مختلف ، وإنما هو تنوع أسماءٍ وصفات ، وقد يكون تفسيرُ لفظٍ يُطلق على معنيين أو يعُمُّهما ، ففسَّر كلُّ واحد من المفسرين بمعنى ، إما لاحتمال الأمرين ، أو لنزول الآية مرَّتين كلفظ ﴿ قَسْوَرَة ﴾ [المدثر : ٥١] يحتمل الرامي ويحتمل الأسد ، وكفسير ﴿ تُبَسِّل ﴾ [الأنعام : ٧٠] تُحْبَس أو تُرْتَهَن .
والاختلاف في التفسير على نوعين : الأول ما مستنده النقل ، والثاني ما يُعلم بغير ذلك .

والمنقول إمَّا عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين .
فما كان عن النبي ﷺ ولم يمكن معرفة الصحيح منه فلا فائدة فيه ، كاختلافهم في لَوْن كلب أصحاب الكهف واسمه ، والبعض الذي ضُربَ به القتل من البقرة ، وفي قَدْر سفينة نوح أو خشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخَضِر ، وأمثال ذلك .
وما أمكن معرفة الصحيح منه فقد قال السيوطي في الإتيان عن ابن تيمية : هو كثيرٌ والله الحمد . وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي .

وما نُقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفسُ إليه أركنُ مما نُقل عن التابعين لاحتمالِ سماعهم من النبي ﷺ أو ممن سمعه منه ، ولأنَّ نقلهم عن أهل

الكتاب أقلُّ من نقل التابعين ككعب وابن مُنبه . حيث يُوقف عن تصديق أمثال ذلك لقوله ﷺ : « إذا حدّثكم أهلُ الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم » (١) ، وكذا ما نُقل عن التابعين بدون عزو لأهل الكتاب ، ومتى اختلف التابعون لم يكن بعضهم حجّة على بعض .

وأما الثاني الذي يعلم بغير نقل ، فهذا بعد الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ؛ والخطأ فيه من وجهين : أحدهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حملَ ألفاظ القرآن عليها كطوائف أهل البدع ، الذين تأوّلوا القرآن على رأيهم بعبارة حسنة ، يدسّون البدع في كلامهم .

والوجه الثاني من الخطأ : قوم فسّروا القرآن بمجرد ما يُسوِّغ أن يريد من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظرٍ إلى المتكلم بالقرآن والمُنزل عليه والمخاطب به ؛ وهؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط الذين قبلهم . هذا خلاصة ما نقله عن ابن تيمية .
ثم نقل عن الزركشي قال : للناظر في القرآن لطلب التفسير مأخذ كثيرة أمهاتها أربعة :

الأول : — النقل عن النبي ﷺ .

الثاني : — الأخذ بقول الصحابي .

الثالث : — الأخذ بمطلق اللغة .

قال بعضهم في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد . وقيل : الكراهة تُحمل على من صرّف الآية عن ظاهرها إلى معاني خارجة محتملة ، يدلُّ عليها القليل من كلام العرب ، ولا يوجد غالباً إلا في الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها .

(١) روى الحاكم في مستدركه الحديث بلفظ « إذا حدّثكم أهل الكتاب حديثاً فقولوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

الرابع : — التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » (١) . والذي عناه علي بقوله : ألا فهماً يؤتاه الرجل في القرآن .

ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال : ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] أضاف إليه البيان ، وقال ﷺ : « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » ، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي . وقال : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . أخرجه أبو داود ، وقال البيهقي في الحديث الأول : إن صحَّ أراد — والله أعلم — الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه ، وأما الذي يشده برهان فالقول به جائز . اهـ .

وفي الحديث : « القرآن ذلُّول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه » . أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس ، وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد . اهـ .

وقال بعضهم : اختلف الناس في تفسير القرآن ، هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز . ومنهم من قال : يجوز لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها ، كاللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبدیع وعلم القراءات وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وعلم الموهبة ، وهو علم يُورثه الله تعالى لمن عمِل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث : « من عمِل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (٢) . وذلك

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أبو نعيم عن أنس .

لأنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ، ولا تَظْهَرُ له أسرارُه وفي قلبه بذعة ، أو كِبَر ، أو هَوَى ، أو حُبُّ الدنيا ، أو هو مُصِرٌّ على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان لقوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] قال سفيان بن عيينة يقول : أنزع عنهم فهم القرآن . أخرج ابن أبي حاتم . انتهى ما نقله السيوطي عن الزركشي مختصراً .

قال السيوطي : وقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق ، عن ابن عباس قال : التفسير أربعة أوجه : وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها . وتفسير لا يُعَذَّرُ أحدٌ بجهالته . وتفسيرٌ تعلّمه العلماء . وتفسيرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى . ثم رواه مرفوعاً بسندٍ ضعيف بلفظ : أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسّره العرب ، وتفسير تُفسّره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ ومن ادّعى علّمه سوى الله تعالى فهو كاذب .

وقال الزركشي في البرهان في قول ابن عباس : هذا تقسيمٌ صحيح .

فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يُرْجَعُ فيه إلى لسانهم ، وذلك اللغة والإعراب ؛ فأما اللغة فعلى المفسّر معرفة معانيها ومسمّيات أسمائها ، ولا يلزم ذلك القارئ . وأما الإعراب فما كان اختلافه مُحيلاً للمعنى وجب على المفسّر والقارئ تعلّمه .

وأما ما لا يُعَذَّرُ أحدٌ بجهله فهو ما تتبادرُ الأفهامُ إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد . وكلُّ لَفْظٍ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى نحو ﴿ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، ونحو : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] حيث يُدرك معنى التوحيد من الأول ، وإيجاب الصلاة والزكاة من الثاني ، بقطع النظر عما يتعلّق بهما من المباحث الأخرى .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مَجْرَى الْعُيُوب ، نحو الآي المتضمّنة لقيام الساعة ، وتفسير الحروف المقطّعة ، وكلّ متشابه في القرآن عند أهل الحقّ فلا مساعٍ للاجتهاد في تفسيره إلا بالتوقيف بنصّ من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل ، وذلك كاستنباط الأحكام ، وبيان المُجْمَل ، وتخصيص العموم ، كالقرء للحيض والطهر ، فهذا ما لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي ، ومع ذلك فالعالم منه على خطر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا . ولا يجزم إلا في حكم اضطرّ إلى الفتوى به ، فأدّى اجتهاده إليه ، فيجزم مع تجويز خلافه . انتهى ما نقل عن الزركشي مختصراً .

وقال ابن النقيب : جُملة ما تحصّل في معنى حديث : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » خمسة أقوال :

أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

الثاني : تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

الثالث : التفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً ، فيردّ إليه أيّ طريق أمكن وإن كان ضعيفاً .

الرابع : التفسير أنّ مراد الله كذا على القطع من غير دليل .

الخامس : التفسير بالاستحسان والهدى .

وقال الزركشي : الحق أنّ علم التفسير ، منه ما يتوقّف على النقل ، كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ، ومنه ما لا يتوقف ، ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعتبر ، قال : وكان السبب في اصطلاح كثير على

التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليُحمل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط . اهـ .

في « الإحياء » ، آخر كتاب آداب القرآن في الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي قال : لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه ، فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ : « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . فَإِنْ صَحَّ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فَمَا مَعْنَى فَهْمِ الْقُرْآنِ سِوَى حِفْظِ تَفْسِيرِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَصَحَّ ذَلِكَ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهرُ التفسير فهو مخبرٌ عن حدِّ نفسه ، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافةً إلى درجته التي هي حدُّه ومطلعه ، بل الأخبار والآثار تدلُّ على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم . قال علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال ﷺ : « إِنْ لِلْقُرْآنِ ظَهراً وَبَطْناً وَحِداً وَمَطْلَعاً » . ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه – وهو من علماء التفسير – فما معنى الظهر والبطن والحدُّ والمطلع ؟ وقال علي رضي الله عنه : لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار . وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً . اهـ .

أما ثبوت هذه الآثار والأخبار وإن كان فيها ضعفٌ ولين ، لكن كثرتها وشاهد حال القرآن العظيم من احتمال معانٍ عظيمةٍ يؤيِّدها . وقد بينا كثيراً منها ومن أسانيدها في رسالتنا : « الاعتبار فيما اشتهر على ألسنة الناس من الأخبار » في الفصل الأخير منها ، وقد استوفى ذلك الزبيدي في شرحه رحمه الله

بما لا يزيد عليه ، ولا عطرَ بعد عروس .

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه « لطائف المنن »^(١) : اعلم أنَّ تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليست إحالةً للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم . منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ، وثُمَّ إفهامٌ باطنة تُفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث : « لكل آية ظهر وبطن » فلا يصدِّقك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالةً لكلام الله وكلام رسوله . فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالةً لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقرؤون الظواهر على ظواهرها مُراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم . اهـ .

قلت : فهذا يدل على أنه لا مانع من إبداء ما ظهر من الفهم لمن آتاه الله فهماً في كتابه بعد تسليم ظواهر التفسير ؛ لأنَّ القرآن العظيم جعله الله المعجزة الدائمة والآية القائمة على مرِّ الزمان ، لصحة هذا الدين وصدق رسالة النبي الأمين ﷺ ونبوته . ومن كانت هذه صفته يجب أن يتجدد منه معاني لكلِّ خَلَفٍ تقومُ بها عليهم الحجة . ومصدق ذلك ما في مصابيح السنة من حسانه في باب فضائل القرآن : عن الحارث عن علي رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة » فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبارٍ قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبلُ الله المتين ، وهو الذكرُ الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ،

(١) صفحة ١٨٣ . طبعة دار البشائر .

ولا تشبّع منه العلماء ، ولا يَخْلُقُ عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم ينتهِ الجَنُّ إذ سَمِعَتْهُ حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] ، من قال به صدق ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حكم به عدلٌ ، ومن دعا إليه هُديٌ إلى صراطٍ مستقيم . إسناده مجهول .

وفي البخاري من باب فضائل القرآن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » . اهـ .

قال القسطلاني عن الطيبي : أي ليس نبيّ إلا قد أعطاه الله من المعجزات الشيء الذي صفته أنه إذا شوهِد اضطر الشاهد إلى الإيمان به . وتحريره أن كلَّ نبيّ اختصَّ بما يُثبت دعواه من خارق العادات بحسب زمانه ، كقلب العصا ثعباناً ، لأن الغلبة في زمن موسى عليه السلام للسَّحرة فأتاهم بما يوافق السَّحر فاضطرَّهم إلى الإيمان به . وفي زمان عيسى عليه الصلاة والسلام الطب فجاء بما هو أعلى من الطب وهو إحياء الموتى . وفي زمان نبينا ﷺ البلاغة وكان بها فخارهم فيما بينهم حتى علّقوا القصائد السبع بباب الكعبة تحدياً لمعارضتها ، فجاء القرآن من جنس ما تباهاؤا فيه بما عجزَ عنه البلغاء الكاملون في عصره . اهـ . قال : ويحتمل أن يكون القرآن ليس له مثل ، لا صورة ولا حقيقة . قال تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] بخلاف معجزات غيره ، فإنّها وإن لم يكن لها مثل حقيقة يُحتمل أن يكون لها صورة قال : وليست معجزاته ﷺ منحصرة في القرآن ؛ فالمراد أنه أعظمها وأكثرها فائدة ، فإنه يشتمل على الدعوة والحُجّة ، ويُنتفع به إلى يوم القيامة . إذ باستمرار المعجزة ودوامها يتجدّد الإيمان ، ويتظاهر البرهان ، وهذه بخلاف معجزات سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإنها ذهبتْ بذهابهم . وأما معجزة القرآن فإنها لا تبيد ولا تنقطع ،

وآياته متجددة لا تضمحل ، وحرقة للعادات في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات لا تنهاى ؛ فلا يمرُّ عصرٌ من العصور إلا ويظهر فيه شيءٌ مما أُخبر به الرسول ﷺ . وهذا الحديث أخرجه أيضاً في الاعتصام ، ومسلم في الإيمان ، والنسائي في التفسير وفنائل القرآن . اهـ .

قلت : وعليه سائبين بحول الله تعالى ما ظهر لفكري الفاتر من تفسير بعض الآيات الكريمة تفسيراً لا يتنافى مع ظاهر نظم القرآن ، وإنما هو احتمالٌ يطرأ على ظاهر النظم الكريم ، أرشدني إليه الإله الحكيم بحسب تطورات الزمان واكتشافات هذا العصر (أعني سنة ١٣٧٨ ألف وثلاثمائة وثمان وسبعين هجرية ، الموافقة لسنة ١٩٥٩ ألفاً وتسعمائة وتسعاً وخمسين غربية) . على أن ما أذكره من احتمالات التفسير لا تخرج من أن تكون من إشارة النص أو دلالة المقبولين في الاستدلال .

قال^(١) فخر الإسلام أبو الحسن علي بن محمد بن حسين الزودي في أصوله على العبارة والإشارة : أما الأول فما سبق الكلام له وأريد به قصداً ، والإشارة ما ثبت بنظره مثل الأول إلا أنه غير مقصود ولا سيق الكلام له وهما سواء في إيجاب الحكم ، إلا أن الأول أحق عند التعارض . وقال الكمال في تحريره : واللفظية عبارة وإشارة ودلالة واقتضاء . وباعتباره ينقسم اللفظ إلى دال بالعبارة إلى آخره . فعبارة النص — أي اللفظ — دلالة على المعنى مقصوداً أصلياً ولو لازماً وهو المعبر عندهم في النص ، أو غير أصلي وهو المعبر في الظاهر . اهـ .

فقد جعل الكمال النص والظاهر من أقسام العبارة ، قال شارحه ابن أمير حاج : وفي هذا تعريضٌ بصدر الشريعة حيث جعل الدلالة على التفرقة ، أي بين

(١) هذا بحث أصولي هام لا يدرك حقاً إلا بالرجوع إلى كتب الأصوليين . ولكنه غير طويل . وينتهي عند قوله : وقد أكثر الصوفية .

البيع والربا عبارة لأنها المقصودة بالسوق ، وعلى الحل^(١) والحرمة إشارة لأنهما ليسا مقصودَيْن به ، بناءً منه على أن المراد بالسوق في تعريف العبارة كون المعنى هو المقصود له ، فتكون العبارة والنص واحداً عنده . والعبارة أعمُ مطلقاً من النص عند غيره .

ثم قال الكمال : ودلالته على ما لم يقصد به أصلاً إشارة تحصل بالتأمل ، كالاختصاص بالولد نسباً من أبيه ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] دون الأم ، فثبتت أحكام من انفراده بنفقتة ، وبالإمامة والكفاءة وعدمها ما لم يخرجها الدليل . وزوال ملك المهاجر عن المال المخلف في لفظ ﴿ للفقراء ﴾ . وآية ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] على الإصباح جُنُباً ، وظهر أنها الالتزامية وإن خفي ، فإن لم يرد سواه فكان مجازاً لزم عبارة لأنه المقصود بالسوق . وكذا في الجزء .

قال شارحه : ويحتاج في الوقوف على المعنى الإشاري إلى تأمل ، فإنهم مُطَبِّقُونَ على أنها لا تفهم من الكلام أول ما يقرع السمع ، حتى قيل الإشارة من العبارة كالكناية من الصريح . والظاهر والإشارة وإن استويا من حيث أن الكلام لم يسبق لهما ، قد افترقا من حيث أن الظاهر يعرفه السامع أول الوهلة من غير تأمل فيه ، والإشارة لا تعرف إلا بنوع تأمل واستدلال من غير أن يزداد على الكلام أو ينقص منه .

ثم إن كان ذلك الغموض يزول بأدنى تأمل فهي إشارة ظاهرة ، وإن كان محتاجاً إلى زيادة تأمل فهي إشارة غامضة . فلا جرم أن قال صاحب الكشف

(١) والمعروف أن دلالة العبارة : هي أن يدل اللفظ على معنى مقصود للمتكلم أصالة أو تبعاً ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ فالتفريق بين البيع والربا معنى مقصود للمتكلم أصالة ، لأنه سبق للرد على الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ والمعنى الذي دلت عليه العبارة وهو مقصود تبعاً ، هو حل البيع وحرمة الربا .

وغيره : فكما أنَّ إدراك ما ليس بمقصود بالنظر مع إدراك المقصود به من كمال قوة الإبصار . كذا فهم ما ليس بمقصود بالكلام في ضمن المقصود به من كمال قوة الذكاء وصفاء القريحة ، ولهذا يختص بفهم الإشارة الخواص وتُعَدُّ من محاسن الكلام البليغ . اهـ .

وحيث إننا لا نقصد بتفسيرنا هذا التعمق بعبارات الفقهاء التي يصعب فهمها على المبتدئين ، اكتفينا بما ذكرناه في الإلماع إلى العبارة والإشارة والظاهر والنص ، يُعْلَم أنَّ ما يأتي في تفسير الآيات الكريمة قد لا يخرج عنها إن شاء الله تعالى .

وقد أكثر الصوفية في استخراج آداب الطريق بهذه الطريقة مع تسليمهم بظواهر الشريعة ، يوضحه ما قاله سيدي أبو طالب المكي في « قوت القلوب » مما أحدثه الناس قال : ومنها الكلام في التوحيد بمخالفة علم الشرع ، وأن الحقيقة تخالف العلم ، والحقيقة هي علم ، وهي إحدى طرق الشريعة ، وعلم الشرع عنها ، فكيف تنافيا وهي التي أوجبته ، وإنما هي عزيمة وضيقة ، وعلم الظاهر هو الرخصة والسعة ، فمن تكلم في علم الباطن على غير قواعد العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد في الشريعة ، والوليعة بين الكتاب والسنة ؛ وقد قال بعض العارفين : نظرتُ إلى هؤلاء الشاطحين فما وجدتُ إلا جاهلاً مغروراً أو خاسئاً مشبوراً أو مستظهراً بلا شيء انتهى كلامه . ويسرد عليك أمثلة كثيرة من استنتاجات السادة الصوفية في أنواع الإعجاز ما يوضح ذلك إن شاء الله .

وقد قال في « تذكرة الموضوعات » لمحمد طاهر بن علي الفتني الهندي بباب التفسير ما نصُّه : قال السيوطي : وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير ، والتفسير الذي لأبي عبد الرحمن السُّلَمي المسمَّى بحقائق التفسير ،

فإن كان قد اعتقد أنه تفسير فقد كفر ، قيل : الظن بمن يوثق به منهم أنه لم يذكره تفسيراً ، وإلا كان مسلماً باطنياً وإنما هو تنظير . قال النسفي : النصوص على ظواهرها ، والعدول عنها إلى معنى باطن الحاد . وأما ما يذهب إليه بعضُ المحققين من أنها على ظواهرها ومع هذا فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر فهو من كمال الإيمان . اهـ .

وهذا ما نعلمه عليه إن شاء الله في تلخيص جميع ما تقدم وما نبني عليه ما سيأتي والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا وإن المفسرين الأقدمين كلهم ساروا على منهج واحد في تفاسيرهم ، بأن تكلم كل منهم بما اختص به من الفنون ، كالزمخشري في تفسيره ، نحو اللغة والإعراب وتنزيل الآيات الكريمة على ما أرادته من قواعد اللغة والبلاغة ، حيث يجر لمذهب الاعتزال . وتبعه البيضاوي في اللغة والبلاغة والأحاديث الموضوعية وزاد عليه الإيجاز والإعجاز . وابن جرير فسر بالحديث . والفخر بالعلوم والفنون . والخازن بالقصص مع الاعتدال في نهاية المقال وعدم الغلو في شيء . وأبو السعود بتعقيد بعض الجمل واستنتاج الأحكام . والنسفي بالقراءات والإشارة إلى الفروع الفقهية الحنفية . وأبو حيان في البحر والنهر بالأبحاث النحوية والقواعد اللغوية . وروح البيان بالغلو في المنازع الصوفية ، والأقاصيص الحشوية مع اشتماله على فوائد جديدة بالأخذ بها والعناية . والجلالين نحو الاختصار الذي جبل عليه الإمام السيوطي لكثير من المصنفات السابقة عليه وأحسن حواشيه الصاوي الذي هو لكل خير حاو . وأما القرطبي فهو مجمع الفوائد والبحر لكل غارف . وقد انفرد الألوسي بتحقيقات في تفسيره الجامع لكثير من علوم من سبقه مع خلوه من الزوائد والحشويات .

ثم أتى بعض مفسري العصر الحاضر منهم من ضمن تفسيره اجتهادات فردية يزعم بلوغه مرتبة من سبقه من المجتهدين أصحاب الأقوال في الدين ، ويحمله غرور نفسه إلى إذاعتها بين المسلمين . ومنهم من نحا في تفسيره إلى استنتاجات عصرية بغلو زائد ، كطنطاوي جوهرى ، أو اقتصر على بعض الآيات المشيرة لذلك كالشيخ بخيت المطيعي . ومنهم من لم يرق له ناحيتان مما تقدم حيث قال في مقدمة تفسيره : وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية واشتغلوا به على هذا النحو الذي أفادت منه العلوم والفنون فإن هناك مع الأسف الشديد ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيداً عنهما احتفاظاً بقديسيته وجلاله ؛ هاتان الناحيتان هما : ناحية استخدام القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية ، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه . وإني أحب أن أثبت فيما أكتبه من التفسير رأيي في الناحيتين اللتين انتقدتهما هذا المفسر بوضوح .

أما الناحية الأولى فقد أفاض فيها بما هو جدير بالعناية من عدم جواز ذلك جزاه الله خيراً .

وأما الناحية الثانية فالغلو فيها غير محمود كما ضربه من المثل أن بعضهم فسر قوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ [الدخان : ١٠] بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة . ولكن لا أنكر وجود بعض الآيات الصريحة فيما اكتشف في هذا العصر من النظريات العلمية الثابتة ، لا النظريات المحتملة للتبديل وذلك كما ستعرفه بمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٢١] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١] وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : ١٥] وهذه من الآيات التي

استنتج السادة الصوفية معناها المطابق لآراء العصر الحاضر مع تسليم المراد من ظواهرها ، وأيضاً فإنَّ السادة يستنتجون مكارم الأخلاق بالإشارات المؤكدة بالآيات والأحاديث الصريحة ، ولكنَّ منهم المغالون كروح البيان الذي يسبح في هذا الأمر ببحر عميق . وإنني جعلت هذا المختصر حاوياً لما يروق أكثره لأكثر الناظرين مع مجانية الغلو في كل بحث طرقة . على أنَّ الإمام السيوطي سبق لذلك بما سنقف عليه في قوله تعالى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات : ٣٠ ، ٣١] . ولو أدرك زمننا لغالى في هذا الأمر قياساً على ما استخرجه بثاقب الفكر .

مُهْجَزَةُ الْبِسْمَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — إطالة الباء للتنبيه على حذف ألف اسم من الكتابة ، وابتدئ بها الكتاب العزيز لكونها أَوَّلَ حَرْفٍ منه إذ اتصلت بآخر حرف منه وهي السين من الناس ، خرج منها لفظ « بس » ومعناها : الكفاية ، وهما رمزٌ إلى ما بينهما من كلام الله تعالى أنه كفاية كلِّ مخلوق .

٢ — إطالتها لتنبيه القارئ على معانيها المستترة فيها ؛ فمن يقرأ يقول : أتبرك باسم الله تعالى ، ومن يأكل يقول : آكلُ باسم الله تعالى ، ومن يشرب يقول : أشرب باسم الله تعالى ، ومن يتكلم يقول : أتكلُّم باسم الله تعالى ، ومن يدخل يقول : أدخلُ باسم الله تعالى .

٣ — إنما قيل باسم الله ولم يُقَلَّ بالله ليعمَّ الاسمُ جميعَ أسماءِ الله تعالى . ولو قيل : بالله لم يتناولَ غيرَ لفظِ الجلالة . وأسماءُ الله تعالى كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

٤ — أُضيف الاسم للفظِ الجلالة لأنه اسمُ الذاتِ العَلِيَّةِ ، الجامعُ لسنائر الصفات . فكلُّ اسمٍ من أسمائه تعالى يدلُّ على صفةٍ من صفاته ، ولكن لفظ الجلالة يجمعُها كُلَّها ؛ فلذا أُضيف إليه ولم يقل الرازق أو العالم مثلاً .

٥ — ثم وصف نفسه بالرحمن لأنَّ الرحمةَ سَبَقَتْ غضبهُ تعالى ، فيقابل عباده بها ، ثم وصف نفسه بالرحيم ليدلَّ على كِبَرِ الرحمة وصغيرها ؛ وليس له رحمةٌ صغيرة ، ولكنَّها تكبُرُ بِكِبَرِ الذنب وتَصْغُرُ بِصِغَرِهِ ، فدلَّ بهاتين الصفتين على أنَّه غفارُ الذنوبِ الكبيرة والصغيرة سبحانه وتعالى .

فصول الإعجاز

إنَّ معجزات القرآن العظيم على أنواع شتى ، لا تنحصر وليست منحصرة ببلاغته التي أعجزت البشر عن الإتيان بسورةٍ من مثله ، فإنَّ بلاغته من أنواع الإعجاز التي ينطوي عليها ، وليس كلُّ أحدٍ من الناس يدرك هذا النوع من الإعجاز ، فنوَّع الله تعالى الإعجاز في كتابه ليأخذ كلُّ نصيبه ممن أراد الله هدايته ، ويكون أعظم حُجَّةً على الملحد المعارض . نشير إلى شيءٍ منها على سبيل التبع فنقول :

الفصل الأول :

من آيات الإعجاز أحوالُ الآخرة الغائبة عن العباد التي لا يستطيع أحدٌ أن يخبرَ عن شيءٍ منها ، إلا ما جاء في القرآن العظيم أو ما فهمه الرسول الأعظم ﷺ عن ربه عزَّ وجل . فقد ذكر الله سبحانه في القرآن مما أعدَّ للأنبياء والشهداء ، وما أعدَّ للأتقياء والمؤمنين ، وما أعدَّ للفاسقين والمنافقين والكافرين ، وذكر أهلَ النار وخصائصهم وأنواعَ عذابهم ، وأهل الجنة وما أعدَّه الله من نعمهم . وَمَنْ غير الله يعلم شيئاً من ذلك إلا بإعلام الله تعالى ؟ فهذا نوعٌ من أنواع إعجاز كتاب الله الكريم .

من ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٦] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧] — [٨]

وقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ . [يونس : ٤٥]
 وأمثال هذا النوع كثير وكل آياته مغيبية عن البشر أخبرنا الله تعالى عنها ، وكل آياته إعجاز لا يتسنى لبشر أن يُخبر بشيء منها أو يزيد أو ينقص إلا بإعلام الله سبحانه ، أو إخبار الرسول الصادق الصدوق عليه السلام الذي يقول : « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ^(١) . أي من أحوال الآخرة وأهوالها .

الفصل الثاني :

من الإعجاز ما تحدّى به كل من سواه تعالى حيث يقول : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان : ١٠ — ١١] .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ

(١) متفق عليه عن أنس .

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾ [لقمان : ٣٤] .

فإنَّ التَّحْدِيَّ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ سِوَاهُ أَعْظَمُ مَعْجَزَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا مَعَ اخْتِصَاصِهِ تَعَالَى بِمِفْتَاحِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا سِوَاهُ .

ويقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ يَنْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ * بَلْ أَذَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٦] .

ثم إنه تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ٣٢] .

مما هو مشاهد أنَّ كلَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِينَ كَلَامَهُ — حَتَّى أَبْلُغَ الْبُلْغَاءَ — عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَسِبَ مِنْهُ آيَةٌ تَكُونُ كَالْمَصْبَاحِ الْمَضِيءِ فِي كَلَامِهِ مَعَ سِلَاسَةِ تِلَاوَتِهِ ، وَعَدَمِ الْمَلَلِ مِنْ سَمَاعِهِ وَحِفْظِهِ ، مَهْمَا تَكَرَّرَ عَلَى الْأَسْمَاعِ ، وَلَوْ كَرَّرَ الْإِنْسَانُ سَمَاعَ صَوْتِ أَعْظَمِ الْمَطَرِبَاتِ لَمَلَّهَا بِكَثْرَةِ تَرْدَادِهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَهَذَا الْقُرْآنُ كُلَّمَا رَدَّدَهُ الْإِنْسَانُ يَجِدُ لَهُ حِلَاوَةً لَمْ تَكُنْ قَبْلُ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وَسَنُوفِي هَذِهِ الْآيَةَ بَعْضَ حَقِّهَا مِنْ شَوَاهِدِ

التاريخ بأجلى بيان إن شاء الله تعالى .

ثم إنه تعالى يقول : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] .

روي أنه طلب من أبي حنيفة دليلٌ عقليٌّ على وجود الإله تعالى ، فأجاب بمضمون هذه الآية الكريمة : أن الأب والأم يريدان الحمل فلا تحمل ، ويريدان أن لا تحمل فتحمل ، ويريدان الذكر فيكون الأنثى ، ويريدان الأنثى فيكون الذكر . فهلا كان للأبوين والطبيب قدرةٌ على تكيف ما يريدون مما هو في جسمها بأول التشكُّل . وهذه لا شكَّ قدرةٌ قادر حكيم ، فاعل لما يشاء بلا شبهة ولا امتراء . قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَا﴾ [الرعد : ٨] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] . قال ابن كثير : ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهو متوكِّئٌ على عَسِيبٍ ، إذ مرَّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلنكم بشيءٍ تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يُوحى إليه ، فقمتُ مقامي ، فلما نزل الوحي قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] . قال ابن كثير : قلت : وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها ، وصنّفوا في ذلك كتباً ، ومن أحسن مَنْ تكلم على ذلك الحافظ بن منّذه في كتاب سمعناه في الروح ، وذكر ابن كثير خلافاً العلماء فيها هل هي النفس أو

غيرها . قال : فحاصلُ ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادَّتها ، والنفس مرَكَّبَةٌ منها ومن اتصالها بالبدن ، فهي هي من وجه لا من كلِّ وجه . وهذا معنَى حسن ، والله أعلم .

الفصل الثالث :

ما أخبر الله به رسوله ﷺ من نوايا الأعداء التي كانوا يُطِنونها ومن نجواهم في السرِّ وإظهارها لنبية ﷺ . فإنها أيضاً من المعجزات الغيبية التي لا يطلع عليها سواه تعالى وذلك كقوله : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّهِهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤ — ٦٥] .

وقد ذكر القصة ابنُ كثير بإسهاب ، ومما قال : بينما النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وَرَكَّبَ من المنافقين يسرون بين يديه ، فقالوا : هذا يريد أن يفتح قصور الروم وحصونها ! هيهات ، هيهات . فأطلع الله نبيَّهُ ﷺ على ما قالوا . فقال : « عليَّ بهؤلاء النَّفر » . فدعاهم فقال لهم : « قلتُم كذا وكذا » فحلفوا ما كنَّا إلا نخوضُ ونلعب . اهـ .

ونحو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٧ — ١٠٨] .

ونحو قوله تعالى في حق بني النضير حين أخرجهم النبي ﷺ وأجلاهم عن المدينة وما حولها في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة ، كما في الصاوي فقال لهم المنافقون : ﴿ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا

لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿ [الحشر : ١١ ، ١٢] .
 وكان كما أخبر الله سبحانه ، وهذا مثله في القرآن كثير .

فهنا خمسة أقسام : الأول ﴿ لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ ، والثاني ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ تكلّموا به والله سبحانه فضحهم به وأعلّم به نبيه ﷺ وهو غيب عنه ، والقسم الثالث أن الله أكذبهم بدعواهم فقال : ﴿ لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ ، والرابع : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ ، والخامس ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ .

وهذه الأقسام الثلاثة الأخيرة من الله عزّ وجلّ غيبٌ مطلق أخبر الله نبيه ﷺ بما سيكون ، فهذا من معجزات كلام الله تعالى التي لا تنحصر .

ونحو قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] . فقد ذكر ابن كثير في تفسيره أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ حين قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها سيدنا زيد بن الأرقم ، فسأل النبي ﷺ عبد الله بن أبيّ فأنكر ، فكذّبه الله وصدق زيد بن الأرقم . وقيل في الجلاس بن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن شرّ من حُمِرنا هذه التي نحن عليها . فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت . فأخبره فدعا الجلاس فحلف ، فأنزل الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا ﴾ والذي رجّحه ابن كثير في تفسير هذه الآية أنّ نفرًا من المنافقين همّوا بالفتك برسول الله ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، ففيهم نزلت هذه الآية . وعدّهم ابن كثير خمسة عشر ، ثلاثة معذرون لم يعلموا بمنع رسول الله ﷺ من سلوك طريق العقبة ، ولا سمعوا مناديه ، واثنان عشر منافقون قصدوا أذيتُهُ ﷺ فنزلت فيهم الآية .

وكقصه طعنة بن أبيرق - أو بشير بن أبيرق - في سرقته الدرع وال سلاح
من بيت عم قتادة بن النعمان واسمه رفاعه ، فاتَّهَمَ بنو أبيرق لبید بن سهل
وبرؤوا أنفسهم وبرأهم رسولُ الله ﷺ ، ودافع عنهم فيما ظهر له حتى أنزل الله
اتهمهم وخيانتهم وبرأ من اتهموه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنِ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ * واستغفر الله إنَّ الله كان
غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا
أُثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٥ -

١٠٨] .

وكقصه المجادلة التي قال الله تعالى في حقها : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾
[المجادلة : ١] .

قال ابن كثير في تفسيره : قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا
الأعمش عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذي
وسَّعَ سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية
البيت ما أسمعُ ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ
فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً ، وفي
رواية لابن أبي حاتم : إني لأسمع كلامَ خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه . ثم
ذكر ابن كثير أنها كانت امرأة أوس بن الصامت وكان به لمم ، فكان إذا أخذه
لَمَمُهُ واشتدَّ به يظاھر من امرأته . وإذا ذهب لم يقل شيئاً ، وخولة بنت ثعلبة
هذه أمها معاذة التي أنزل الله فيها : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ
تَحْصُنَ ﴾ [النور : ٣٤] قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى
مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلَيْنَا ﴿ [المجادلة : ٧] .

ومن ذلك ما ذكره البخاري في مواضع ، ومسلم والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان ، وفي مسلم تسميته الصحابي الأنصاري صاحب القصة بأبي طلحة ، ونص حديث البخاري على ما نقله ابن كثير قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فضيل بن غزوان ، حدثنا أبو حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال : أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي ﷺ : « ألا رجل يُضيف هذا الليلة رحمه الله » ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا . فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . فقال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن وتعالني فأطفي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة . ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : « لقد عَجِبَ الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة .. » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] . من تفسير سورة الحشر . اهـ .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح : ١١] حيث أخبر الله بما سيقولون كذبا وذلك في صلح الحديبية .

وكذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] حيث كان كما أخبر الله سبحانه . وقوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصَرَ اللَّهُ ﴾ [الروم : ١ ، ٥] فقد ذكر ابن كثير في ذلك أحاديث كثيرة

منها : قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر
الوكيعي ، حدثنا مؤمن عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق عن البراء قال : لما نزلت
﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : ١ - ٣] قال
المشركون لأبي بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ، يزعم أن الروم تغلب
فارس . قال : صدق صاحبي قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم
أجلاً . فحلَّ الأجلُ قبل أن تغلب الروم فارس ، فبلغ ذلك النبي ﷺ وساءه
ذلك وكرهه وقال لأبي بكر : « ما دعاك إلى هذا » ؟ قال تصديقاً لله ولرسوله .
قال : « تَعَرَّضْ لَهُمْ وَأَعْظِمْ لَهُمُ الْخَطَرَ وَاجْعَلْهُ إِلَى بَضْعِ سَنِينَ » . فأتاهم
أبو بكر فقال لهم : هل لكم في العود ؟ فَإِنَّ الْعُودَ أَحْمَدُ . قالوا : نعم . فلم
تمضِ تلك السَّنُونَ حتى غلبت الروم فارسَ وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا
الرومية . فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : « هذا السُّحْتُ » قال : « تصدق
به » . وتمام الروايات والقصة هناك . وفي بعضها وذلك قبل تحريم الرهان .

ومن ذلك مَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ عما سيقوله المخلفون من
الأعراب وهم غفار ومُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ وَأَشْجَعُ تخلفوا عن رسولِ اللَّهِ ﷺ عام
الحُدَيْبِيَّةِ سَنَةً سِتًّا مِنَ الْهَجْرَةِ ، حين طلب من الأعرابِ وأهلِ الْبُؤَادِي حول
المدينة أن يخرجوا معه حَذْرًا مِنْ قَرِيْشَ ، فْتَشَاوَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ . ولما
كَانَ آخِرَ السَّنَةِ ودخل محرمُ السَّنةِ السَّابِعةِ غَزَا خَيْبَرَ وَغَنِمَ غَنَائِمَ عَظِيمَةً فَأَخْبَرَ
اللَّهُ نَبِيَهُ عما سيقوله المخلفون قبل مقاتلتهم وقبل الحرب بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ
الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا دُرُوزَنَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللَّهِ ﴾ [الفتح : ١٥] أي وعد الله ، حيث أن الله وعد من خرج مع نبيه ﷺ
غنائم خيبر ، حيث قال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ
هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ [الفتح : ٢٠] ، فلما غنم المسلمون ما وعدهم
الله به أتى المشركون وقالوا : ﴿ دُرُوزَنَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ

تَبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴿ [الفتح : ١٥] ﴾ أَي أَخْبَرْنَا عَنْكُمْ أَنْكُمْ سَتَقُولُونَ ذَلِكَ : ﴿ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح : ١٥] . فكل ذلك إخبارٌ بالغيب من الله لرسوله من أقوال الكفار ، وإخبارٌ منه تعالى بما ينتصرون وكله خارج عن طوق البشر . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٤٢] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ [النساء : ٨١] الآية .. فإنها تدل على ما يبيتون ويضمرون

٢ وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] . إلى آخر سورة المنافقين . فإنها كلها إخبار عن نواياهم وما سيصدر منهم وما كذبوا به على رسوله ﷺ ثم قول عبد الله بن أبي بن سلول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقد قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الربيع الزهراني ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبیر أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلّي فيه فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي بن سلول قال : ليخرجن الأعز منها الأذل . فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار وقيل لعبد الله بن أبي : أتيت النبي ﷺ حتى يستغفر لك . فجعل يلوي رأسه — أي لست فاعلاً — فأنزل الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إلى قوله ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٥] وهذا

إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير ، وقوله إن ذلك كان في غزوة تبوك فيه نظر بل ليس بجيد ؛ فإن عبد الله بن أبي بن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش ، وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم عن محمد بن كعب القرظي عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل . قال فأتيتُ النبي ﷺ فأخبرته ، قال فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك . قال : فلأمنني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ ، قال : فانطلقتُ ففتمت حزينا كئيبا . قال : فأرسل إليَّ نبيُّ الله ﷺ فقال : إن الله قد أنزل عُذْرَكَ وصدقَكَ . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ - ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ ﴾ [المنافقون : ٨] . ورواه البخاري عند هذه الآية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة . ثم قال : وقال ابن زائدة عن الأعمش عن عمرو عن ابن أبي ليلي ، عن زيد عن النبي ﷺ ورواه الترمذي والنسائي عند هذه الآية أيضا من حديث شعبة . قال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسولُ الله ﷺ الأعزُّ وأنا الأذل . وتمام الروايات هناك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٧٢ ، ٧٣] . وأمثال ذلك في القرآن العظيم كثير . وما قصدنا الاستقصاء والتتبع وإنما التمثيل لما نحن بصدده والله أعلم .

ومن أعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] فكم توالى على المسلمين من المصائب ، وكم تكالبت عليهم الأعداء في كل جانب ، وكم قوضوا أركان دولهم في كل صوب وقُطر ، وكم ساموهم أعظم البلاء والغدر ، ولا ننسى كارثة الإسبان في الأندلس حتى دالت ، واستيلاء الإفرنسيين على المغرب وما إليه آلت ، واستيلاء دول الغرب على صحارى إفريقية من السودان والصومال والسنغال والبربر والصحراء الكبرى . ثم الإنكليز على الترنسفال والهند ومصر وما ساموهم من التدمير وسوء التدبير ، وكم أزال التتر في بغداد من معالم الإسلام . وكم خربوا البلاد حتى وصلوا إلى الشام .

ومع ذلك فالقرآن العظيم محفوظ بحفظ الملك العلام لم يطرأ عليه ما طرأ على غيره من النقص والإبرام . وقد توفي رسول الله ﷺ والإسلام قوي عزيز ، ومائة ألف عين تشرفت برؤية نبيها ونقلت عنه القرآن العظيم ، وكان يتناقله المسلمون على منابر الجمعة والوعظ والتدريس ، ويتلونه في الصلاة حتى ينقله المستمعون بكل تقديس . بمثل هذه الوسائط حفظ الله كتابه إلى أن يأتي أمر الله فيرفع من الصحف والصدور ، حينما يبطل العمل بأحكامه في سائر الأمور . ولو نظرنا لغيره من الكتب الموجودة المنسوبة إلى الأنبياء لرأيناها تنادي على نفسها بأنها ليست هي التي أنزلت من السماء . فإن اليهود كانوا محصورين بفلسطين ، وكارثة الفرس التي نزلت بهم لم تبق لهم بقية لا من دنيا ولا من دين . ثم تلتها كارثة هيروس الروماني وخرابه لأورشليم . ومن تسموا باليهود الآن ليسوا يهوداً حقيقيين لأنهم لا يقرون بمجيء المسيح عليه السلام ويقولون إنه سيأتي ، والذي ورد في شرعنا أن المسيح الذي يكونون من أتباعه هو المسيح الدجال ، وكان علماءهم الأقدمون يستأثرون بكتابهم المقدس لا يعلمه سواهم ولم يكن منتشراً انتشار القرآن على المنابر وفي الصلوات الجهرية وفي كل موطن . لذا كان

التحريف والتبديل فيه سهلاً ويسيراً كما قال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة : ٤١] وقال تعالى : ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] . وهذا بقطع النظر عن فقدته بكوارثهم المتوالية وانحصارهم بإقليم واحد .

أما الإنجيل فقد كُتب بعد عيسى عليه السلام بسنين لأن عيسى صلوات الله وسلامه عليه لم يتمكن من نشر دينه بين من سُمُوا باليهود الذين هُمُوا بقتله أيام صولة ملكهم . وكان دينُ النصرانية يسري في الخفاء سريان الماء في الشجر ، بواسطة أتباع عيسى عليه السلام ، ويلحقهم الاضطهاد العظيم من ملوك روما الذين كانوا يعبدون الأوثان ، وحصل لهم عشرة اضطهادات عظيمة كادت تُودي بهم إلى الأبد ؛ أولها سنة ٦٤ للميلاد في زمن نورون ، والثاني سنة ٩٥ في أيام دومنيان ، والثالث سنة ١٠٧ في أيام تراجان ، والرابع سنة ١١٨ في أيام أدرجان ، والخامس سنة ٢١٢ في أيام كاراكلا ، والسادس سنة ٢٣٥ في أيام مكسيمينوس ، والسابع سنة ٢٥٠ في أيام ديسبوس ، والثامن سنة ٢٥٧ في أيام فاليري ، والتاسع سنة ٢٧٤ في أيام أوريليان ، والعاشر سنة ٣٠٣ في أيام ديوكليتيان ، وبعد هذا انتقل الملك إلى قسطنطينوس كلوروس وبعده إلى ابنه قسطنطين الأكبر الذي قاومه أهل مملكته فقهروهم واستولى على الملك سنة ٣٠٦ وترك دينهم وكرسي مملكتهم واتخذ بيزانثيا كرسي مملكته ومن يومئذ سميت بقسطنطينية نسبة له ودخل في دين النصرانية هو وأمه هيلانه تثبياً لملكه لا تديناً واعتقاداً ، ولكن ظهرت النصرانية على يده ويد أمه ، وانتشرت الأناجيل وبلغت عدداً وفيراً ، وكل صاحب إنجيل يدعي أصحّية إنجيله ، وأكثرها موجود في مكتبة روما البابوية بخطوطها القديمة . وزالت معالم الكفرة اليهود ومعالم

عبادة الأصنام ، وحل محلها عبادة الصليب ، واستولى على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا .

ومما يدل أنَّ الأناجيل ليست هي المنزلّة من السماء ، وأنّ قصة صلب عيسى عليه السلام موجودة في الأناجيل الأربعة ، وحكاية ما جرى معه من قبل اليهود ، ومحال أن تكون هذه نازلة من السماء قبل وقوعها ، لأنها ذكرت حال وقوعها في تكميل تاريخ حياته بعده . ثم ما ذكر من قصة الجحش في الأناجيل الأربعة أيضاً ، وعبارة (لوقا) في الإصحاح التاسع عشر قال : وإذ قرب من بيت فاجي وبيت عينا عند الجبل الذي يدعى جبل الزيتون أرسل اثنين من تلاميذه قائلاً : اذهبا إلى القرية التي أمامكما ، وحين تدخلانها تجدان جحشاً مربوطاً لم يجلس عليه أحد من الناس قط ، فحلاه وأتيا به ، وإن سألكما أحد لماذا تحلانه ؟ فقولاً له : هكذا ، إنَّ الربَّ محتاجٌ إليه . فهذه القصة وأمثالها محالٌ أن تكون نازلةً من السماء إنما هي من تاريخ حياته عليه السلام . وإن كان العقل يُحيل صدور مثل هذه القصة عن يشرع الأحكام للبشر .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

أرقت ذات ليلة فقمْتُ لأداء ركعتي الاعتراف اللتين يُقرأ في أولاهما الفاتحة وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاوَزُوا فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ [النساء : ٦٤] . وفي الثانية بعد الفاتحة قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ

عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يُرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿ [النساء : ١١٠ ، ١١٣] وقد طال تفكيري بها فقلت : هل أعظم من هذه الآية وما اشتملت عليه من معجزات ! ثم قلت : وأي آية أفضلها على أختها ؟ وآياتُ الله كلها متساوية في الإعجاز . ففي هذه الآية إعلَامٌ بعَظْمِ فضلِ الله تعالى على رسوله ﷺ ، وفي هذه الآية إعلَامٌ بعِصْمَةِ الله إياه عن إضلالهم ، وفي هذه الآية إعلَامٌ بأن ضلالهم عائد عليهم ، وفي هذه الآية أمان لرسوله ﷺ بأن المشركين مهما حاولوا إضراره لا يضرّونه بشيء ، وفي هذه الآية إعلَامٌ من الله بأنه أنزل عليه الكتاب والحكمة فأعماله كلها بعلم وحكمة . وفي هذه الآية إعلَامٌ لرسوله ﷺ بأنه علّمه ما لم يعلم ، وفي هذه الآية إعلَامٌ لرسوله ﷺ بعظم فضل الله عليه .

وقد حصرْتُ البحث بهذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : ١١٣] ووالله إني لأعجب وأقضي غاية تفكيري بالعجب بما أوتي هذا الرسول ﷺ من العلم الذي لا نعلمه ، ومن الكمال الذي أفرغه الله عليه . بعد أن يسبر المرء تاريخ حياته ﷺ وأنه كان يخلو دائماً بغار حراء وحيداً يتعبد فيه ربه ، وكان يرعى غنماً لقريش على قراريط أجراً ، ولم يكن يكتب ولا يقرأ وهذه كل حياته . فلو أردنا أن نأخذ غيره بهذا المقياس فما كان يظهر منه ؟ فوالله ما كان يظهر منه إلا السلب والنهب والقتل والفساد والطغيان والجهل والحقم والباطل والزور وسائر ما خلق الله من سيئ الأخلاق كما هو المشاهد بأمثال من عاش تلك العيشة الفقيرة المرة .

فمن أين أتى بهذه الآداب وهذه الحكم وهذه الأخلاق وهذه الشريعة وهذا

الكتاب وهذا الدين يا أرباب العقول يا أهيل الإنسانية ؟ ما ترون من شيء في كتب الإسلام في صحائفها التي تبلغ ملايين الملايين إلا ويقولون كان رسول الله ﷺ كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وشرع كذا وقضى كذا فمن أين أتى كذا وكذا يا أرباب العقول ؟! حَكِّمُوا عقولكم الراجحة واسبروا أحواله ﷺ شبراً بشبر وذراعاً بذراع وإصبعاً بإصبع هل تجدون إلا علوماً وحكماً عظيمة ؟..

وهذه الآية معجزتها أظهر من الشمس في رابعة النهار . لا أطلب منه معجزة تدل على صدقه بعد هذه الآية . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] .

ماذا استفاد محمد من دنياه ؟ أي مال اقتناه ؟ أي رفاهية أخذها ؟ أما كان يصوم أياماً متتالية لا يذوق شيئاً ؟ مرة اضطراراً لعدم الوجود ، ومرة اختياراً وتعبداً . ألم يكن ينام على الحصير ووسادته من حشو الليف ؟ ماذا ترك بعده لأهله وأولاده ؟ ألم يقل : « ما تركت صدقة » ؟ أين من ذلك أحدنا الذي يأكل الحرام ويجمع الحرام ليخلفه لأولاده ويدخل النار بسببه ؛ بل من لم يكن له أولاد يجمع أكثر ممن له ذرية وأحفاد . أين العقل السليم الذي لم يوجد إلا بمحمد ومن سبقه من النبيين ﷺ وعليهم أجمعين ؟ كم رأينا من الفلاسفة والعلماء الأقدمين والحديثين غير المسلمين وما ارتكبوه من الشهوات والملذات بين العالمين .

انظروا يا قوم إلى مؤسسي المذاهب الضالة كمزدك وزرادشت و . و . و . ثم انظروا فسقهم وخروجهم عن تعاليم العقل ، وما أفسدوا البشرية بمن تبعهم من المعتوهين الضالين ، أو من المنكرين للآخرة التابعين لشهواتهم كالحيوانات العُجم البُهْم ، كأنهم خلَقُوا سُدىً مهملين . ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] أترك هذا العقل الذي منَّ الله به علينا يضيع فلا يلزمنا

بشرع نَدِينُ له ؟ ما الفرق بين الإنسان والحيوان لولا ما أكرمنا الله به من هذا العقل الذي يجب ان لا نهمله سُدى ؟ قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى * أَلَمْ يَكْ نُطْفَءَ مِنْ مَنِيِّ يَمْنَى * ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَسَوَى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة : ٣٦ ، ٤٠] .

بلى إنه قادر على أن يحييهم ويعاقب من ضيع ما أنعم الله به عليه ، ويشيب من أطاع أمره . فنسأله أن يجعلنا ممن أطاعه وأثابه آمين .

الفصل الرابع :

ما في القرآن العظيم من الإخبار بالغيب وفي بعضه أن لو كان كيف يكون وآياته كثيرة ظاهرة المعنى المراد منها ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَيِّغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : ١٢] فقد اشتملت هذه الآية على خمسة أقسام : الأول ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ ، الثاني ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ، ولأم القسم مقدرة هنا كما في الصاوي ، فهذا تكلما به والله تعالى فضحهم به وأعلم به نبيه ﷺ وهو غيب عنه ، والقسم الثالث من الله أكذبهم بأقسامهم فقال تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ ، والرابع ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ ، والخامس ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، وهذه الأقسام الثلاثة الأخيرة من الله تعالى أخبر الله تعالى بها بما

سيكون من جملة معجزات كلام الله تعالى التي لا تنحصر .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤١ ، ٤٢] .

وقوله تعالى في سورة النور : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٥٣] . ومن ذلك قوله تعالى في آل عمران : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٢] .

وقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ * وَقَالُوا أُسَاطِرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] .

إلى آخر هذه الآيات مما كانوا يتناجون به والله سبحانه يخبر رسوله بمناجاتهم ويفضحهم بها ، وبقية هذه السورة كلها مُعْجَزٌ تنوعت أنواع إعجازها ، فبعضها من إخبار الله سبحانه بما أعدَّ للمكذِّبين من عذاب ، وبما أعدَّ للمؤمنين من نعيم مما لا يعلمه سواه ، وبعضها بما يتناجونه أيضاً ، وبعضها إرشاد لمكارم الأخلاق بأبلغ عبارة وأوجز إشارة كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ * وَالَّذِينَ يَسْتَوْنَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ إلى آخر السورة [الفرقان : ٦٣ ، ٦٤] .

وقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾
[الأنعام : ١١١] .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح : ١١] وكان ذلك عامَ الحديبية حيث تخلف عن الخروج مع النبي ﷺ كثير وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عُقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، ثم لما رجع من الحديبية ولم يصب من المشركين شيئاً ولم يُصيبوا منه شيئاً ووعده الله مغنم كثيرة وأخبره بما سيقوله المخلفون حيث قال : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذْهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ١٥] أي وعده لمن يذهب معه إلى الحديبية فأمر الله نبيه أَنْ قَالَوا ذلك أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : ﴿ لَنْ نَتَّبِعُوكَ ، كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : أخبرنا بما سيقولون ، وأمرنا أَنْ غَنَائِمٌ خَيْرٌ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ خَاصَّةً ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِغَيْبِ آخِرِ أَنَّهُ لَوْ قَاتَلَ الْكَافِرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ لَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأُدُبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح : ٢٢ ، ٢٣] . أي سنته تعالى في نصر رسله .

وقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤١ ، ٤٢] . وهذه الآية من آيات الإعجاز التي تدل أن الله يعظّمهم في الدنيا والآخرة فكان في الدنيا كما أخبر الله عز وجل .

قال ابن كثير في تفسيره : مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، وَصَارُوا أُمَرَاءَ حُكَّامًا ، وَكُلُّ مَنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابَهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا . اهـ .

ولو تأمل القارئ فيما مرَّ من الآيات لرأى فيها أن الله تعالى يخبر بما لم يكن أن لو كان كيف يكون . ٣

وقوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ زُيُوفَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً﴾ [الفتح : ٢٧] فكان كما أخبر الله تعالى في فتوح مكة وفي سورة الفتح .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم : ٣ ، ٤] .

وقوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف : ٩] .

وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النور : ٥٥] .

ثم قال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر سورة النصر .

قال عليه الصلاة والسلام : « زُويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » (١) . وسيلغ ملكه إلى ما زوي له منها .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة : ٨]

وقوله تعالى : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر : ٤٥] وكان ذلك في يوم

بدر

وقوله تعالى في هجرته ﷺ إلى المدينة : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص : ٨٥] فأعاده الله إلى مكة بعد عام الفتح .

(١) رواه مسلم بلفظ : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلْغُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا » .

ومن أوجه هذا الإعجاز إخباره تعالى بالمغيّب بوجه خاصّ ، كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٩٥] وما تمناه أحد منهم .

وآية المباهلة مع وفد نجران حتى تنصل منها النصارى ، وقال العاقب وهو كبيرهم وصاحب رأيهم : لئن فعلتم ذلك لتهلكن . فودّعوا الرجل وانصرفوا وقد احتضن النبي ﷺ الحسين ، وأخذ بيد الحسن وفاطمة ثمشي خلفه وعليّ خلفها والنبي ﷺ يقول لهم : « إِذَا دَعَوْتُ فَأَمَّنُوا » . فلما رآهم أُسْقِفُ نَجْرَانَ قَالَ : يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى ، إِنِّي لَأَرَى وَجُوهًا لَوْ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُزِيلَ جِبَلًا لِأَزَالَهُ ، فَلَا تَبْتَلُوا فَتَهْلِكُوا وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نَصْرَانِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وآية المباهلة بسورة آل عمران قال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأُنْفُسَنَا وَأُنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] . وكان ذلك سنة تسع من الهجرة . قال ابن كثير في تفسيره عن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أذى الجزية إلى رسول الله ﷺ . وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

وآيات هذا النوع كثيرة وفيما ذكرناه عبرة وفيرة وسندكر ما هو قريب منها . فمن ذلك قوله تعالى أول سورة الأنبياء : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥] وهذا مما كانوا يتناجون به ولا يظهرونه للرسول ﷺ لكن الله يخبره بما يتناجون .

ومثله قوله تعالى في سورة المدثر في حق الوليد بن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَيْنَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَمِيداً * سَأَرْهُقَهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر : ١١ ، ٢٨] . وفي هذه الآية زيادة عما أضمره هذا اللعين من حاله ، وما اتصف به من مكابرتة ، وفيها الإعلام بالغيب المطلق الذي أعدّه الله له من العذاب في الآخرة والعياذ بالله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور : ٤٧ ، ٤٩] . وقال تعالى في سورة النمل ﴿ قَالُوا تَفَاسُمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٤٩ ، ٥٠] ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٨] .

يؤيدها قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١ - ٣] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ آذَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٢٧] . ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥] . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الأحزاب : ١٨] . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿ [الدخان : ١٥] ﴿ يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿ [الدخان : ١٦] ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ ﴿ [الدخان : ٢٣ ، ٢٤] . ثم الإخبار عن يوم القيامة وما فيها من الأهوال والفظائع ، وشجرة الزقوم وغيرها .

فأما الدخان فتحتمل الآية معنيين إما المجاعة التي أصابتهم حين دعا عليهم رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري ومسلم من حديث مسروق عن ابن مسعود قال : « اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبَعَ يَوْسُفُ » فأخذتهم سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ ، وَيَنْظُرُ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى كَهَيْئَةَ الدُّخَانِ ؛ فَأَتَاهُ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصَلَةِ الرَّحِمِ ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا ، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ [الدخان : ١٠] .

ثم أخبر تعالى بأنه يكشفه عنهم ، وأخبر بأنهم عائدون ؛ ثم أخبر بأنه سيبطش بهم البطشة الكبرى ، وهي يوم بدر للانتقام ، وكله حصل كما أخبر ربنا عز وجل .

ويحتمل الدخان الذي سيأتي يوم القيمة الذي يكون من علائم الساعة . ففي الخازن يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ الْآيَاتِ : الدخان ، ونزول عيسى بن مريم ، ونارٌ تخرج من قصر عدن أبين ، تسوق الناس إلى المحشر ، ثَقِيلٌ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا » . قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلا هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ [الدخان : ١٠] يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، فأما المؤمن فيصبيه كهيئة الزكام ، وأما الكافر كمنزلة السكران ، يخرج من منخريه وأذنيه وذُبره . اهـ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء : ٦٧] ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وما هذه الحياة الدنيا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣ ، ٦٦]

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَواسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَدْرُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : ٦١ ، ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٣ ، ٦٥] . فهذه الآيات الكريمة تنادي وتظهر ما يتبرأ منه العابدون لغيره تعالى عند الشدائد ، لما يعلمون أن معبوديهم لم ينفعوهم بحول ولا قوة .

وأيضاً سبب محبة المسلمين المؤمنين لربهم أنه الرب الحقيقي في الدنيا والآخرة ، وأما الذين هم أرباب من دون الله فما هم إلا رابطة دنيوية ، شبه حزب سياسي ، يمشون وراء نهجهم الذي اتفقوا عليه ، ليس من الدين في شيء . كما قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] وكان كما قال الله حتى لم يأخذ في سفينته غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] . وقد كان كما قال الله حيث جاء المعذرون من الأعراب بهذه الأعذار التي ذكرها عنهم وهم كاذبون فيها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] يؤيدها قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٥ ، ٤٦] وكان كما أخبر الله سبحانه حيث حفظهما من فرعون وملئه ، وكانا هما الغالبيين في سائر المواقف ، إلى أن أغرق الله عدوهما .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء : ٨١] ، وهكذا كان أمر المنافقين وشأنهم ، وكان أمرهم يخفى على الرسول ﷺ ولكن لا يخفى على الله فكان جبريل عليه السلام يأتيه بخبر

وقوله تعالى في سورة التوبة : ٤٧ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ،
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۝﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ ، [الحجر :
٩] ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ ۝﴾ ، [الذاريات : ٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا
نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝﴾ ، [الصف : ٨] ﴿وَعَدَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يُعْبُدُونَنِي
لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۝﴾ [النور : ٥٥] .

قال الخازن في تفسير سورة النور على هذه الآية برمز البخاري : عن
عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا
إليه الفاقة ثم أتى آخر فشكا إليه قطع السبيل .

فقال : « يا عدي ، هل رأيت الحيرة » ؟ فقلت : لم أرها ولقد أنبتت
عنها . قال « فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف
بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله » قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَار طيِّئِ
الذين قد سَعَرُوا البلاد ؟ « ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » ،
قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة
لترى الرجل يُخرج ملء كفه من ذهبٍ أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد
أحداً يقبله ؛ وليلقين الله أحدكم يوم القيمة وليس بينه وبينه ترجمانٌ يترجم له ،
فليقولن ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك ؟ فيقول : بلى يا رب فيقول : ألم أعطك
مالاً وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر
عن شماله فلا يرى إلا جهنم » . قال عدي : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :
« اتقوا النار ولو بشق تمره ، فمن لم يجد شق تمره فبكلمة طيبة » . قال

عدي : فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله
وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ؛ ولئن طالت بكم حياة لتروا ما قال
أبو القاسم عليه السلام يخرج الرجل ملء كفه ذهباً يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً
يقبله . اهـ .

من ذلك قوله تعالى : في سورة الأحزاب : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا
ثُمَّ سُلِقُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴾ [١٤] .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَا ضَعُوعاً
خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٧] .
﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يجدُونَ وِلياً وَلَا نَصِيراً ﴾
[الفتح : ٢٢] في وقعة الحديبية .

﴿ وَأَمَّا الْعَلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ
يُبدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف : ٨٠ - ٨١] .
فأعلم الله الخضر أن لو عاش عاش كافراً وربما فتن والديه .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ
كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

ذلك أن كلمات الله تعالى متعلقة بخلقه ومتعلقة بما لا نعلمه ، ونحن
نذكر طرفاً مما يتعلق بخلقه ؛ ذلك أن الله تعالى يعلم عدد رمال الأرض
وذرات ترابها ، وعدد أوراق الأشجار ، وقطرات البحار وقطرات الأمطار مما
خلق في سابق الأزمان وما يخلقه إلى آخر الدورات ، ويعلم عدد أشعار جلود
كل حيوان ، ويعلم حركات كل إنسان بالليل والنهار ، ويعلم كلماته
وخطراته . فلو أراد أحد أن يكتب حوادث إنسان واحد من كلماته وخطراته
وأفعاله وحركاته وسكناته وطعامه وشرابه وسائر أحواله لاقتضى ذلك كتبة
يعينونه ودفاتر وسجلات ودوايات وأقلاماً ومداداً عظيماً للدوايات ، فما بالك

بسائر بني آدم من حين خلق الله آدم إلى يوم القيامة وحسابهم وعذابهم ونعيمهم وما يعملون في هذه الدنيا ؟ وما بالك بأمراضهم وصحتهم وتركيب أجسامهم ؟ وما بالك بسائر الحيوانات من كبير وصغير ؟ فكل ذلك من كلمات ربنا عز وجل بعلمه وتقديره ، فما كفاية أشجار الدنيا للأقلام ، وما كفاية البحور مداداً لتحرير كلمات ربنا عز وجل ؟ ومن تصور ذلك بإمعان واعتقده بالجنان عليم بلاغة هذه الآية التي تدل على أن هذا المداد كيف يكون أن لو كان .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِيتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : ١٨] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .
 وقوله تعالى في وقعة بني النضير : ﴿ لَنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ لِيَبْزُلُوا الْإِدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١٢] .
 ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : ١٤٢] وقد كان كما أخبر الله عز وجل بعد أن حوّل الله القبلة قالوا ذلك ووصفوا النبي ﷺ بأنه يغيّر ويبدّل من تلقاء نفسه عليهم لعنات الله المنتقم .

وقوله تعالى في سورة النحل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ [١٠١] وقد قالوا ذلك حينما كان رسول الله ﷺ يخبرهم بنسخ آية وإتيان أخرى مكانها أو نسخها لا إلى بدل .

الفصل الخامس :

في ذكر الأمم السابقة وما جرى معهم وسكوت التاريخ عن ذكر أحوالهم ، ثم اختباط المؤرخين واختلافهم بعدد سنّي أيامهم ، ومدة أعمار الأمم السابقة التي أثبتت الآثار الجيولوجية أنها فوق ما ذكروه بكثير وكثير . ثم جاءت الآية التي في أول سورة إبراهيم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [٩] فإنه كل يوم يطلع علينا بحث الآثار بشيء جديد من ألفي سنة ، وهذا من خمسة آلاف ، وهذا قبل الميلاد بكذا ، وهذا من عشرين ألف سنة ، وهذا من مائتي ألف سنة كالذي يجدونه في مناجم الفحم وفي الجليد ولا يعلم حقيقة هذه الأمم ولا عددهم وما جرى معهم إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد تبع عامة المؤرخين غلطاً أخبار الإسرائيليات في مدد الدنيا والأمم السابقة ، وحينما تأتاهم الآثار العلمية الأرضية يقفون باهتين حائرین تجاه هذه الآثار الفنية المشاهدة المتواترة ، مصدقة لما جاء في القرآن العظيم من جهالة التاريخ ونفي علمهم عن غير الله عز وجل .

الفصل السادس :

آيات التهديد للأمم العاصية وما يحلّ بهم من العذاب إن خالفوا أوامر أنبيائهم . وحصول تلك الكوارث كما وعدّهم الله على لسان أنبيائهم . فإن هذا أمرٌ مغيبٌ لا يعلمه إلا من أنزله ، وهذا منه في القرآن كثير ؛ كقصة نوح حين كان يصنع الفلک ، وكلّما مرّ به أحدٌ من قومه سخرّوا منه ، وكقصة عاد وقوتهم وضخامة أجسادهم مع ما أصابهم بعد عصيانهم نبيهم هود ، وكقصة ثمود وما أصابهم بعد عقرهم الناقة ، وكقصة لوط وموسى وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين .

الفصل السابع :

آيات الأحكام الشرعية التي أتت موافقة لكل عصر وزمان . ودليل ذلك أن المسلمين لما تمسكوا بها كما أنزلت ملكوا الدنيا وسادوا العالم ، ولم تبق آثار أمة من أمم الأديان ولا أمم الفلاسفة ما بقيت آثار الإسلام من بدنها وحتى الآن . وما أخذ فيها الانحلال والاضمحلال الا بابتعادها عن أحكام دينها الأساسية . ولو عمل كل من يدعي الإسلام بمقتضى دينه لعاد الإسلام لما كان عليه ، ولما وقف بوجهه قوة في العالم . ولكن أملنا بالمجدد المنتظر الذي اتفقت على مجيئه الأديان السماوية أن يُعيد الدين غضاً طرياً كما بدأه الله على لسان نبيه ﷺ . فإن من معتقدات المسلمين مجيء المسيح عيسى بن مريم في آخر الزمان . والآيات والأحاديث صريحة بذلك منها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : ٦١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : ١٥٩] ، ومن الأحاديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم عليه السلام حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيُفِضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ، ثم قال أبو هريرة : واقرأوا إذا شئتم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] . رواه الشيخان والترمذي كما في « التاج الجامع للأصول » . وعنه عن النبي ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامكم منكم » ؟ رواه الشيخان وأحمد . وعنه عن النبي ﷺ قال : « والله لينزلن ابنُ مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يُسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » . اهـ .

وكذلك من معتقدات النصارى واليهود أنه سيجيء ولا بد ، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » في بحث المهدي المنتظر قال : اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحدٍ في آخر الزمان ؛ فاليهود لا يزالون منتظرين المسيح الذي يجددُ ملكهم قُبيل انقراض الدنيا ؛ والنصارى يرون في عيسى عليه السلام المسيح الذي بشرت به الأنبياء ، ويقولون برجوعه في آخر الوقت لإبادة الدجال الذي نبأ به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدي الذي يظهر قُبيل قيام الساعة ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً إلى آخر ما ذكره عن المهدي . لكن لو ذكر عن المسلمين أيضاً ما ذكره عن اليهود والنصارى في أمر المسيح لوافق الصواب والمرمى ، لأن بعضهم يطعن في أحاديث المهدي ولكن أحاديث عيسى عليه السلام لا مطعن فيها لأحد .

وإني بقياس ما وصل إليه المسلمون من اضمحلال أخلاقهم يثبُتُ كلُّ اليأس أن يكون لهم ما كان لأسلافهم من النصر والظفر والعزِّ والمكانة والاستعلاء إلا بالمجدد المنتظر الذي هو عيسى عليه السلام أو المهدي رضي الله عنه .

وقد نقل الأمير شكيب في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » في ترجمة جمال الدين الأفغاني أنه قال له إحدى المرات : قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حدٍّ أن لا أمل أن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقاً جديداً وجيلاً مستأنفاً ، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كلُّ من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربيةً جديدة تسير بهم في طريق السلامة . وقال لي أيضاً : إن المسلمين قد سقطت همهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شيء واحد فيهم وهو شهواتهم . هذا ما نقله عنه هو وأمثاله .

وإني قد بلغ اليأس مني أكثر مما بلغ من جمال الدين . فإنه لو ذهب أهل العصر من المسلمين ونشئوا نشأً جديداً لا ينشئون إلا أفسد من الأول بمقتضى

البيئة والعصر الذي هم فيه مع كثرة المزعجات والموقظات لتنبيههم واتحادهم ووجوب صمودهم يداً واحدة أمام الأعداء والمستعمرين . وما بقاء الدولة المزعومة اليهودية الغاصبة إلا ببقاء الاختلاف بين أمم العرب وما زوالها إلا باتفاقهم .

وهذا بقطع النظر عن الأخلاق الخاصة الفاسدة من الكذب والخيانة والخداع والغش والربا والقمار والحسد والتباغض والسرقات والتعدي والرشوة وكثرة الخصومات . فإن هذا لا يمكن تلافيه بأي صورة من الصور لاستحكامه في سائر الطبقات . ولكن ننظر لما هو في خير الإمكان من وجوب اتفاق حكومات العرب أولاً ثم وجوب اتفاق حكومات الإسلام وتوحيد كلمتهم ، وانتهاجهم سياسة موحدة ضد العدو الخارجي ، ليستطيعوا الصمود والحياة مطمئنين فيتفرغوا لإصلاح الداخل الفاسد ، لأن المشاكل السياسية الخارجية من الدول الكبرى شغلت كل حكومة صغيرة بحيث لا تُبقي لها من الوقت ما تتمكن من إصلاح داخلها فترى أفراد الأهلين متعطشين للإصلاح الذي لا يتأتى إلا من قوة حاكمة ، لذا فإنني أدعو أمراء الإسلام ورؤساءهم أن يوحدوا مناهج سياستهم ، وأن يستيقظوا من حبّ الرئاسة إلى ما سيذكر التاريخ من شؤم تفرقهم وانقسامهم إذا لم يستيقظوا ، كما أنني أدعو متنفذي الأمم أن يقفوا عن شهواتهم من حب المال الذي دُئس أيديهم بما أخذوه من أهمهم التي يحكمونها أو من الأمم الخارجية المعزوة لهم ليقعوا الخلاف في الداخل طمعاً بالمناصب الزائلة أو استكثاراً للثروة الفانية . ولينظروا مصير كل حائد عن الصواب ، فإن الله تعالى لعباده بالمرصاد . هذا ما أدعو أمم الإسلام إليه أن يتنبهوا له كي يتفرغوا لإصلاح الرعية وإزاحة كابوس الظلم عنها فينهضوا النهضة الحقيقية ، وإلا فلينتظروا المجدّد فإننا من المنتظرين .

وثمة أمر أدهى وأمر هو ما يسعى إليه العدو الخارجي من تفريق الشعوب أحزاباً وفرقاً ، وهذا أدهى الدواهي وأصعب المصاعب التي لا يمكن تلافيتها بعد

رسوخها وتمكنها . فإن الأجنبي كان يتوصّل لتفريق الأمم من جهة الدين حينما كان الناس يخضعون له ، ولكن حين تقلّص النفوذ الديني من البشر عمد إلى تفريقهم أحزاباً ليجد بأحدها ما يساعده على الدسّ والهدم والتفريق . مع أن الله تعالى ضرب لنا الأمثال في القرآن العظيم لنعبر حيث قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ [القصص : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

الفصل الثامن :

من الإعجاز القواعد التي سنّها الله سبحانه لعباده من مكارم الأخلاق ، وهذه عددها يفوق الحصر لاستنتاجها من جميع كلام الله تعالى ، ولكن أمهات آياتها مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [النساء : ٥٨] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النمل : ٩٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُغْلَقَةِ ﴾ . [النساء : ١٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً * وَهَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٢ ، ٢٣] . ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١] . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الإسراء : ٣٢ ، ٣٣] . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ

الْيَمِّ إِلَّا بِأَلْفِي مِي أَحْسَنُ ﴿ [الإسراء : ٣٤] . ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] . ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

ومن تتبع ظفر بحكم شتى من بقية كلام الله تعالى ولقد صدق سبحانه بقوله ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٣٩] إشارة إلى أن ثمة حكماً في آيات أخرى والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] . وقوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْماً فَإِنَّهُ يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : ١١٠] ، ١١١ .

الفصل التاسع :

من الإعجاز احتمال الآيات معاني متعددة يأخذ السامع والتالي منها حسب فهمه واستعداده ابتلاءً من الله تعالى لمن يتبع دينه ولمن يضلّ ، وامتحاناً منه للعلماء أن يغوصوا ويستخرجوا من معانيه ما دقّ ورقّ وصفاً ، ثم يكون إظهاراً لمعجزته المنيرة القيّمة أن يكون ما يُستحدث في الزمن مشأراً إليه بأجلى بيان وهذا الفصل من الإعجاز أربعة أنواع تتبين بأمثلتها ، وعلى النوع الرابع منها مدار بحثنا بهذا الكتيب .

النوع الأول : المتشابه .

النوع الثاني : آيات الأحكام الشرعية وما استنتج منها علماء الأصول

والفقه .

النوع الثالث : ما استخرج منها علماء التصوف ما دق ورق من المعاني على حسب الإشارة لا العبارة .

النوع الرابع : الذي عليه مدار بحث هذا الكتاب ونذكر أمثلة للأنواع الثلاثة ثم نفيض بالنوع الرابع بحسب الإمكان ومن الله العون وعليه التكلان .

النوع الأول من الفصل التاسع :

هو المتشابه المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

فمن يتبع دين الله يُسلم ويكل الأمر إلى الله وهو مذهب السلف ، أو يؤول تأويلاً مقبولاً وهو مذهب الخلف فرضي الله عن الفريقين . وأما من يضلّ يؤول تأويلاً بعيداً ، أو يأخذ الألفاظ المتشابهة على معانيها والعياذ بالله بأن يكون مجسماً كاليهود . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَذَّكَّرُ فَوقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ، ﴿ وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ، وأمثال ذلك فإنه ضالٌّ مضل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] لمن يقول بالتناسخ .

وإني بعد أن تعمقت في استخراج ما ظهر لي من إعجاز كلام الله تعالى كدت أن أضرب صفحاً عن هذا الكتيب الذي لم يحو إلا بعض ما ظهر منها ، والآيات التي ذكرتها ليست وحدها آيات إعجاز ، بل لم أفكر بآية إلا ورأيته تحوي أنواعاً عظيمة يقتضي استقصاؤها مجلدات يخرج الكتاب بها عن مبدأ

الاختصار والإيجاز ، تاركاً لغيري من أهل العصور الآتية إكمال ما بدأت به . وماذا نعدّد من الوجوه التي بعضها إخبارٌ بالغيب ، وبعضها إظهار لأسرار الفجار ، وبعضها إظهار لحوادث الأبرار كي يزدادوا إيماناً بالنبّي المختار ، وبعضها أحكام عادلة للفصل بين العباد ، وبعضها آداب وكمالات وأخلاق يجب التخلّق بها في كل قطر وناد ، وبعضها أخبار بإيجاز عن أحوال الأمم الماضية التي ما كان يعلمها أحدٌ من البشر ، ومنها ما يتعلق بالعلوم والفنون .

ولذا فإنّي لا أدعي حَصَرَ الإعجاز بما ذكرته من الوجوه ، أو بما عدّدته من الآيات التي تدلُّ دلالةً واضحةً لكلّ منحرفٍ وكايد أو منكر معاند ، وقد ذكر ابن حزم في كتابه « الملل والنحل » في الكلام على إعجاز القرآن ما أتخذه أنا والمسلمون عقيدةً وديناً . قال : وذهب سائر أهل الإسلام إلى أن القرآن كلّهُ قليلُهُ وكثيرُهُ معجزٌ ، وهذا هو الحقُّ الذي لا يجوز خلافه . اهـ . والله أعلم .

النوع الثاني من الفصل التاسع :

ما استنبط منه المجتهدون أحكامهم التي اختلفوا فيها ، ولا نفيض بهذا القسم لأن موضعه علم أصول الفقه وعلم الجدل والمنطق والفروع ، وهو بحرٌ لا ساحلَ له ، فصَلَّه أهلُ المذاهب ، ويقال : إنه العلم الذي نَضِيجٌ واحترق ، فقد نقل العلائي صاحب « الدر المختار » في خطبة كتابه عن فوائد شتى من كتاب « الأشباه والنظائر » لابن تُجيم قال : وفيها العلوم ثلاثة : علم نَضِيجٌ وما احترق ؛ وهو علم النحو والأصول ، وعلم لا نَضِيج ولا احترق ؛ وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نَضِيج واحترق ؛ وهو علم الحديث والفقه . اهـ .

لذا فإننا نترك علم الحديث والفقه لأربابه ونخوض بشيء من علم التفسير

الذي لم يَنْصَحْ ولم يحترق قال ابن عابدين في حاشيته على الدر في توضيح ذلك عن السيوطي : إِنَّ القرآن في اللوح المحفوظ ، كُلُّ حرفٍ منه بمنزلة جبل قاف ، وكلُّ آيةٍ تحتها من التفسير ما لا يعلمه إلا الله تعالى . اهـ .

النوع الثالث من الفصل التاسع :

المثال الأول :

استخراج مادق ورق وصفا من معانيه العظيمة بإشارة خفية ، كاستخراجات الصوفية رضي الله عنهم الذين يحملون معاني القرآن على المواعظ والآداب ، لأنهم منزّهون عن النقائص والارتباب .

قال العلامة محمد طاهر بن علي الهندي الفتني المتوفى سنة ٩٨٦ هـ في كتابه « تذكرة الموضوعات » في باب التفسير ما نصه : قال السيوطي : وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير ، والتفسير الذي لأبي عبد الرحمن السُّلَمي المسمى بـ « حقائق التفسير » فَإِنْ كان قد اعتقد أنه تفسير فقد كفر . قيل الظن بمن يوثق به منهم أنه لم يذكره تفسيراً ، وإلا كان مُسَلَكاً باطنياً ، وإنما هو تنظير . قال النسفي : النصوص على ظواهرها ، والعدول عنها إلى معنَى باطنٍ إلحاد .

وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أنها على ظواهرها ومع هذا فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر فهو من كمال الإيمان . إلى آخر ما نقل في هذا الباب عن السيوطي وابن تيمية قُدس سرهما وقد رأيت في « روح البيان » في تفسير سورة الأنعام تحت قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٧٥] عن التأويلات النجمية ما حاصله أَنَّ لكلِّ شيءٍ من العالم ظاهراً يعبرُ عنه تارةً بالجسماني ، وتارةً بالروحاني ، وتارةً بالدنيا ، وتارةً بالآخرة ،

وتارة بالمعنى ، وتارة بالغيب ، وتارة بالملكوت ؛ والملكوت من الأوليات التي خلقها الله تعالى من لا شيء بأمر « كُنْ » إذ كان الله ولم يكن معه شيء ، يدلُّ عليه قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] فنبه على أن الملكوت لم يُخلق من شيء ، وما سواه خلق من شيء ، وقد سمى الله تعالى ما خلق بالأمر أمراً ، وما خلق من الشيء خلقاً . فقال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، فالله تعالى أرى إبراهيم ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدالة على التوحيد . اهـ .

وقد أطلق العلماء المُلْكَ على ما يُدْرَك بالبصر ، والملكوت على ما يُدْرَك بالبصيرة . فالملكوت لا ينكشف لأرباب العقول بل لأصحاب القلوب ؛ فإنَّ العقل لا يعطي إلا الإدراك الناقص بخلاف الكشف ، وتلك المكاشفة لا تحصل إلا لأهل المجاهدة ، فإنَّها ثمرة المجاهدة ، وهي مما يعزُّ مناله جداً . اهـ .

وقال في « روح البيان » في تفسير سورة الإسراء وتحت قوله تعالى : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُّوا ﴾ [الإسراء : ٨٩] . قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : عبارة القرآن للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء . اهـ .

فالصوفية بعد تسليمهم ظواهر القرآن التي يكون إنكارها كفرًا والعياذ بالله ، يحملون إشارتها على نهيمهم عن خلاف الأولى كما في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

قال في « روح البيان » : أي على كلِّ عضوٍ في الظاهر ، وعلى كلِّ صفةٍ في الباطن ، فصوم اللسان عن الكذب والفحش والمغيبة ، وصوم العين عن النظر

في الغفلة والرّية ، وصوم السمع عن استماع المناهي والملاهي ، وعلى هذا فقس الباقي ، وصوم النفس عن التمني والحرص والشهوات ، وصوم القلب عن حُب الدنيا وزخارفها ، وصوم الرّوح عن نعيم الآخرة ولذاتها ، وصوم السرّ عن رؤية وجود غير الله وإثباته ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٤] هي إشارة إلى أن أجزاء وجود الإنسان من الجسمانية والروحانية قبل التركيب كانت صائمة عن المشارب كلّها ، فلما تعلق الروح بالقلب صارت أجزاء القلب مستدعيةً للحظوظ الحيوانية والروحانية بقوة إمداد الروح ، وصار الروح بقوة حواس القلب متمتعاً من المشارب الروحانية والحيوانية ، فالآن كتب عليهم الصيام وهم مرگبون ، كما كتب على الذين من قبلكم من المفردات لعلكم تتقون . اهـ . وإنما هي أيام معدودات بعد التركيب لا دائمة مستمرة كما كانت قبله .

فالصيام أحد أركان الإسلام الذي لا يشكُّ أحدٌ فرضيته ولا معناه ، ولكن لا مانع من استفادة الأخلاق الفاضلة بإشارة الآية ، قال الشيخ أبو طالب المكي في كتابه « قوت القلوب » : إن الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهيم الدنيّة والأفكار الدنيوية ، ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدي الحدود ، وصوم اليد والرجل عن البطش والسعي في أسباب النهي إلى أن قال : ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ : « الصوم جنة من النار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة »^(١) . وأمره في قوله عليه السلام : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ شائم فليقل إنني صائم »^(٢) ، وفي لفظ آخر : « لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء » . أي يتحفظ في صومه لحرمة . وفي

(١) رواه البيهقي عن جابر .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة .

خبر آخر « الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته »^(١) فحفظ الأمانة من صيانة الجوارح لقول النبي ﷺ لَمَّا تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] ، ووضع يده على سمعه وبصره فقال : « السمع أمانة ، والبصر أمانة » . فذلك مجازُ قوله : « فليقل إنني صائم » ، أي يذكر الأمانة التي حمل فيؤديها إلى أهلها ، ومن حفظ الأمانة أن يكتمها ، فإن أفشاها من غير حاجة فهي خيانة . اهـ .

المثال الثاني :

قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكَ لِيخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [٤٣] فالتفسير الذي ذكره المفسرون أنه يصلي علينا برحمته وملائكته باستغفارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] .

وأهل الحقيقة يستنتجون منها معنى آخر ، حيث يقولون : إن الناس أموات والصلاة على الميت . فالله تعالى يصلي علينا وملائكته ، ثم يقولون : منهم من يرى نفسه ميتاً بين يدي مميته ربّه ، وهو العارف المكمل الذي يكون الحق تعالى سمعه وبصره ولسانه ويده ، فتكون نفسه عين الجنابة . ومنهم من يموت في الدنيا وهو من لا معرفة له بربه ولا يتعرف إليه ، وقد أفاض سيدي محيي الدين رضي الله عنه في الباب التاسع والستين في أبحاث صلاة الميت في ذلك . ومما قاله في فصل القراءة : قال أبو يزيد البسطامي : اطلعت على الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات . قال بعض شيوخنا : رأى أبو يزيد عالم نفسه ؛ فإن هذه الصفة تكون لمن لا معرفة له بربه ولا يتعرف إليه وتكون لأكمل الناس معرفة بالله . فالعارف المكمل يرى

(١) أخرجه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » من حديث ابن مسعود .

نفسه ميتاً بين يدي ربه ، إذ كان الحقُّ سمعهُ وبصرهُ ولسانهُ ويدهُ يصلِّي عليه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . اهـ .

وفي « الحكم العطائية » : ادفنْ وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتَّم نتاجه . اهـ . فأهل الله موتى بين يدي ربهم ، لا يرون وجودَ الشيء سواه ، ولا يتحركون إلا بإرادة الله ، وأهل الدنيا موتى بحبهم لها لا يرون وجود الشيء سواها .

المثال الثالث :

قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] حيث يفهم السادة من هذه الآية الإشارة إلى مقامين : مقام الجمع ومقام الفرق . قال السيد العدوي في « شرح نخبة الفكر » ما نصُّه : والجمع ما سُلِبَ عنك ، والفرق ما تُسبب إليك ، ومعناه أنَّ ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فَرْق ، وما يكون من قَبْلِ الحقِّ من إبداء معانٍ وابتداءٍ لطيفٍ وإحسان فهو جمع . ولا بدُّ للعبد منهما . فإنَّ من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جَمْعَ له لا معرفة له .. فقول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إثبات للفرقة بإثبات العبودية ، وقوله ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ طلبُ الجمع ؛ فالفرقة بداية مع الإرادة والجمع نهايتها .

المثال الرابع :

قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] في آخر سورة البقرة فظاهر الآية أن اللام للخير ، وأن على للشر ، وأن الكسب بأي طريق كان ، وأن الاكتساب بالتحصيل فما كان للخير يكون للعبد بأي طريق حصل حتى يؤجر على الرُّغم من أنفه . وأما ما يكون من الشر إذا لم يكن للعبد فيه اكتساب واجتهاد لا يكون عليه بل يكون معفواً عنه .

وعلى ذلك فَوَجَدُ الصوفية الذي يحصل معهم هو خيرٌ لهم ، ولكنَّ التواجد هو الشرّ ، لأنه رياءٌ لا خيرَ فيه ، ولا يكون هذا إلا من المتصوفة .

قال الشيخ الأكبر في « فتوحاته » في الباب الخامس والثلاثين ومائتين في معرفة التواجد وهو استدعاء الوجد .

إن التواجد لا حالَ فتحَمَدُهُ ولا مقامَ له حكمٌ وسلطانٌ
يُزْري بصاحبه في كلِّ طائفةٍ وما له في طريقِ القومِ ميزانٌ
فكلُّ ما فيه مما لا يقومُ به فإِنَّهُ كُلُّهُ زورٌ وبُهْتَانٌ

قال : اعلم أن التواجد استدعاء الوجد لأنه تعمُّلٌ في تحصيل الوجد . فإنَّ ظهر على صاحبه بصورة الوجد فهو كاذبٌ مُرَائٍ مُنافق ، لا حظُّ له في الطريق . اهـ .

المثال الخامس :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] ؛ وهي ظاهرة المعنى المراد منها الذي هو منسوخ في حقِّ أمة محمد ﷺ بحيث لا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه مهما عمل من ذنب أو معصية بل التوبة وإقامة الحدِّ بشرطه ، ولكنها غير منسوخة الإشارة عند السادة الصوفية حيث يقولون إنَّ قتل النفس في مجاهدتها هو عينُ حياتها في مشاهدتها ؛ فمن قتل نفسه بالفناء في الله أحيائها في البقاء بالله ، ومن أحيائها فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، ولذلك قال النبي ﷺ لأنس : « إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَصْبِحَ وَتَمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي ، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ » ، فمن أراد أن يحيى فليُمِتْ عن كلِّ صفةٍ ذميمة ويحيى بكلِّ صفةٍ عظيمة . وقد ورد : موتوا قبل

أن تموتوا والمراد به في الباطن مَوْتُ شهواتِ النفس . قال بعض السادة :

اقتلونني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

قال في « روح البيان » في سورة السجدة : ٢ تحت قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ روي أن الشيخ نجم الدين الأصفهاني قدّس سرّه خرج مع جنازة بعض الصالحين بمكة فلما دفنوه وجلس الملقن يلقنه ضحك الشيخ نجم الدين وكان من عاداته أن لا يضحك ، فسأله بعض أصحابه عن سبب ضحكه فزجره ، فلما كان بعد ذلك قال : ما ضحكْتُ إلا أنه لما جلس على القبر يلقن سمعت صاحب القبر يقول : ألا تعجبون من ميت يلقن حياً . اهـ . فالتاس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

المثال السادس :

قول الله تعالى في سورة المؤمنون : ٦٠ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ فالتفسير الظاهري أن قلوبهم وجلة أن لا تكون مقبولة عند الله ، مع أنهم راجعون إليه تعالى . والسادة الصوفية يستتجون من الآية ما يؤيد هذا المعنى ، لكن بصورة أعلى مما يتصور ، وهو قلب « ما » الداخلة على آتوا نافية ، وإن هذا العمل ما أتوا به هم ، إنما الله الذي أتى به على أيديهم فهو بشارة لهم بقبوله .

قال سيدنا الشيخ الأكبر والقطب الأنور في فتوحاته في الباب الثاني والعشرين بعد الخمسمائة في معرفة حال قطب كان منزله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ [المؤمنون : ٦٠] قال : اعلم أن السبب الموجب لوجلبهم من الله قول الله عنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ وجعل هنا « ما » بمعنى الذي ، ثم جاء بـ « آتوا » بعد « ما » وكلامه صدق فأدركهم الوجلب ، إذ قطعوا أنهم لا بد أن

يقوم بهم الدعوى فيما جاؤوا به من طاعة الله ، فيكشف الله لهم إذا خافوا ووجلوا أو وجلوا من ذلك ، وتبديل الله لفظة « ما » التي بمعنى الذي بلفظة « ما » النافية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] هكذا يكون كشفه هنا للوجل ، ما يؤتون الذي أتوا به ولكن الله أتى به فأقامهم مقام نفسه فيما جاؤوا به من الأعمال الصالحة ، ثم نظروا في ذكرهم للتعليل وهو قوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] فيما أتوا به مع كون الله وصفهم بأنهم الذي أتوا به ، فانظر ما أدقَّ نظرهم في السبب الذي جعل في قلوبهم الوجل . اهـ . فقدس الله روح هذا الولي العظيم ما أدقَّ استنتاجه من كلام الله تعالى وأحسنه .

وانظر ما في كتاب « كَفُّ الرِّعَاعِ فِي مُحَرَّمَاتِ اللّهُو وَالسَّمَاعِ » لابن حجر . قال العارف أبو الحسن الشاذلي في قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم ٤٤] ؛ سنريهم الكرامات حتى يعتقدوا أنهم أولياء الله فيأخذهم على بغتة . اهـ .

فانظر إلى هذا الولي الكريم كيف استنتج من هذه الآية ما يوافق حاله مع ظاهر تفسيرها في أهل المعاصي ، ولكن المعاصي من أمثاله بعيدة فحملها على ما ذكر مع التسليم لتفسير ظاهرها بدون شك .

المثال السابع :

ما قاله بعضهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح : ٢٩] . إنَّ الزرع مثالٌ لمحمد ﷺ والشَّطْءُ أبو بكر ، وآزَرَهُ عمر ، فاستغلظ هو عثمان ، فاستوى على سوقه علي رضي الله عنه ، يعجب الزُّرَّاع هم بقية المؤمنين الذين غُرس الإيمان في قلوبهم ، وقد رنا حصادهم بالعين التي انفتحت

بابها بكسره فلا يغلق إلى يوم القيامة . وما أبعد هذا الإلماع وما أعجبه . مع تسليم ما أريد وجهه بالآية من التمثيل الظاهر .

المثال الثامن :

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ أَلِصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٨] فتفسيره الظاهر يشمل سؤال الأنبياء عن التبليغ ، ويسأل الشهداء لم قاتلوا ؟ ويسأل الكرماء لم جادوا ؟ ويسأل العلماء لم تعلموا ؟ ولا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن أربع أو خمس إلى آخر ما تحتمله الآية الكريمة .

وقد استخرج السادة منها أيضاً ما قاله الشيخ الأكبر رضي الله عنه كما نقله عنه في « روح البيان » في آخر سورة الأحزاب : إنّ اسوداد الوجوه من الحق المكروه كالغيبة والنميمة وإفشاء السرّ فهو مذموم وإن كان صديقاً ، فلذلك قال تعالى : ﴿ لَيْسَ أَلِصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ أي هل أذن لهم في إفشائه أم لا ، فما كلُّ صدقٍ حقّ . اهـ .

المثال التاسع :

ذلك أن قيام الليل كان فرضاً على الأمة قبل الصلوات الخمس بقوله تعالى : ﴿ قُمْ أَلَيْلٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ٢] ﴿ نِصْفَهُ ﴾ [المزمل : ٣] أي في الليالي المعتدلة ﴿ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ أي في الطويلة ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي في القصيرة . فلا نسخ بقوله تعالى في آخر السورة ﴿ عَلِمَ أَنَّ لَن تَحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَأَقْرَرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل : ٢٠] أي في الصلاة المفروضة ليلة الإسراء أعلمه سبحانه ببقاء فرضيته عليه بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَمَنَّكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

قال الصاوي : قال مالك لم ينسخ في حقه ﷺ بل بقي وجوب التهجد عليه لكن في خصوص الحضر . اهـ .

قال المفسرون : الأمر بالتهجد للوجوب ، والنافلة الزيادة ، فكيف يجتمعان ؟ وأجيب بأنه زيادة عن الأمة . وقال السادة الصوفية بعد تسليم الجواب المذكور : لما قال له ربه : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] تحققت النافلة هنا بأن قيامه ليس لتكفير ذنب كنوافل أمته بل هو نافلة خالصة لك ليعثك ربك مقاماً محموداً ، بل أصبحت جميع طاعاته ﷺ نافلة مَحْضَةً وبحقنا مكفرة محضة إن قبلت والأمر لله .

المثال العاشر :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة : ٤] .

أي أن أرباب السلوك يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم وحُرِّم عليهم في الدنيا والآخرة ؟ كما قال ﷺ : « الدنيا حرام على أهل الآخرة ، والآخرة حرام على أهل الدنيا ، وهما حرامان على أهل الله تعالى » . قل أُحِلَّ لكم الطيبات وهي ما لا يقطع عليكم طريق الوصول إلى الله . فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب . وكلُّ مأكولٍ ومشروبٍ وملبوسٍ ومقولٍ ومعقولٍ ومعمولٍ طلبتموه بحظ من الحظوظ فقد لوثتموه بلوث داعي الوجود . فهو من الخبيثات لا يصلح إلا للخبيثين ، وما طلبتموه بالحق للقيام بأداء الحقوق مطيئاً بنفحات الشهود فهو من الطيبات لا يصلح إلا للطيبين . كذا في « روح البيان » وهذا بعد تسليم ما يفهم من صريح العبارة التي لا يكابر بمفهومها الظاهر إلا مكابر .

ويوضح تفسير السادة الصوفية لهذه الآية ما نقل عن بعض الصلحاء قال : رأيتُ في منامي الجنة وفيها قصر له أربعة شرايف ، على كل شرافة حورية أرخت شعرها على نحرها ، فلما رأنتي ضحككت فأشرق القصر من نور ثغرها وقالت لي : اجتهد في طلبي بعبادة ربك فأنا أجتهد في ذلك .

فقال له الزائر : ما أقل همتك ، لقد ظننتك صوفياً حقيقياً ، إنما أنت مقلد

للسادة ولست منهم ، قال : فمن هم إذن ؟. قال : اعلم أن المريدين ثلاثة :
مريد للدنيا ، ومريد للآخرة ، ومريد لخالق الدنيا والآخرة . فصاح المزور
صيحةً هام على وجهه .

وقيل إن عيسى صلوات الله عليه مرّ بقومٍ يذكرون الله تعالى فقال :
ما حملكم عليه ؟ قالوا : الرغبة في الثواب . ومرّ على قوم يذكرون الله تعالى
فقال : ما حملكم عليه ؟ قالوا : الخوف من العقاب . ومرّ على قوم يذكرون
الله تعالى فقال : ما حملكم عليه ؟ فقالوا : لا خوفاً من العقاب ولا رغبة في
الثواب ، بل لإظهار ذلّ العبوديّة وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته ،
واللسان بالآلفاظ الدالة على قدسه وعزته . فقال : أنتم المتحققون .

المثال الحادي عشر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] وهي ظاهرة
المعنى أن الإنسان يفتن بحبّ المال ، فيجمعه من حرامٍ وحلال ، ويقتل
بسببه ولا يشبع من جمعه مهما كثر . وكذا الأولاد يضطرّ الإنسان بحبهم أن
يتركهم أغنياء ، وأن يجمع لهم المال والدنيا وغير ذلك مما يفتن به الإنسان
في هذه الحياة ، وهذا المعنى الظاهر لا شك فيه .

مع أن السادة الصوفية استنتجوا من هذه الآية معنًى آخر بالإشارة ، هو أن
الروح لما اقترنت بالجسد وتزاوجت به وُلد بينهما النفس التي هي فتنة
والديها ؛ فالنفس هي مجموعُ الروح مع الجسد ، وهي التي تحمل الإنسان
على ارتكاب الملاهي والمناهي والشهوات كإبليس بل هي أشد ، لأن الشيطان
قد يفارق الإنسان عند التعوّذ منه ، وفي السجود وفي رمضان ، والمعصومون
ليس له عليهم سبيل . ولكن النفس لا تفارق صاحبها لا بحركة ولا بسكون ،
فهي الفتنة كلُّ الفتنة نعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

المثال الثاني عشر :

قوله تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] أي ابتلاؤك واختبارك ليتبين المطيع من العاصي ، فتقوم عليه الحُجَّة ويستوجب العقاب ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

وقد أولها الصوفيون أن إسماعه تعالى كلامه لهم أوجب افتتانهم وتشوقهم لأن يروا مصدره لعدوبته وحلاوته حتى قال الصاوي : كان جبريلُ معه فلم يسمع ذلك الكلام . ولعمري إنه تأويل مقبول ، فليل به الفرار من القال والقليل بين من ينسبون كلَّ شيء إلى الله الجليل ، وبين المعتزلة الذين ينسبون خلق الشرور إلى الإنسان الضَّليل ، وهذا دأب السادة الصوفية باتباع أحسن تأويل .

المثال الثالث عشر :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] فظاهرُ التفسير لا ينكره إلا كافر ، لأنه مصادقةً لكلام الله تعالى ، لكن له إشارة لمعنى آخر .

أولاً : بنسيانه أن يقول : إن شاء الله ، حتى جاوز المكان ووجد من سفره نصباً ، كما نسيه سليمان لما قال : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة . أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، قال : حدثني محمود ، حدثنا عبدُ الرزاق ، أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة تلذن كلُّ امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملكُ : قل إن شاء الله . فلم يقل ونسي ، فأطاف بهنَّ ولم تلذن منهن إلا امرأة نصفَ إنسان » . قال النبي ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته » .

ثانياً : إن الحَظير على علم لا يعلمه موسى ، وموسى على علم لا يعلمه

الخضر عليهما السلام ، فعَلِمَ موسى ظاهرُ الشرع لأنه مرسلٌ إلى بني إسرائيل ، وعلم الخضرُ صُوفي ناظرٌ إلى باطن الأمور وكلاهما نبيٌّ ، وأدلةُ نبوةِ الخضرِ كثيرة ، منها ما نحن بصددِه أنه قتل نفساً وانتزع لَوْحاً من ألواح السفينة مما يؤدي لتلفها وغرقها ، وكلاهما لا يجوزُ فعلُهُ بالإلهام الأولياء ، بدليل إنكار موسى ﷺ ، ولو كان جائزاً في شرعهم بالإلهام لما أنكره ، وعليه لا شكُّ بنبوته .

والمقصودُ من بحثنا هذه الإشارةُ الصوفية واستنتاجُها من الآية ، وهو أن الخضرَ إمامُ الحقيقة ، وموسى إمامُ الشريعة صلوات الله وسلامه عليهما . فقال موسى : لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمعَ البحرين ، أي بحري الشريعة والحقيقة ، فبحرُ الشريعة وصلُّهُ بواسطة جبريل عن الله تعالى ، وبحر الحقيقة عن^(١) الخضر عليه السلام . وقال له الخضر : أنا على علمٍ علَّمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علمٍ علَّمكهُ الله لا أعلمه . ولما اتصل بالخضر جمع بين العلمين وصار بمجمع البحرين صلى الله عليهما وسلم .

ومن الآية يُعلم أن موسى فوق الخضر عليه السلام لأنه أنكر عليه ما أتاه ، إذ الظاهرُ هو الحاكم على الباطن والسرائر ، ولكن الأمر الإلهي لموسى أن يتعلَّم من الخضر أو جب التأدُّب معه حتى ظهر له الدليل بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾^(٢) ، ولو لم يكن نبياً قامت عليه الحُجة كما قامت على الحلاج حتى نال

(١) أي وصله عن الخضر .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه بموضعين من باب العلم بسندين مختلفين عن ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهما لما قام موسى خطيباً في بني إسرائيل وسأله رجل : هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : لا . فأوحى الله إليه بل عبدنا خضر . وفي رواية : سئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم . فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال القسطلاني : وهذا الحديث أخرجه البخاري في أكثر من عشرة مواضع .

جزاء مخالفتِهِ لظواهرِ الشرع ، فظواهرُ الشرع محفوظةٌ عن أن يتطرقَ إليها بابُ التأويل بدون دليل . والنبوةُ هي دليلُ الصدق على التأويل ، كما قتل سيدنا داود أحدَ المتحاكَمين إليه في قصة غَصَبِ البقرة فقال له المدعى عليه : إنما أمرك الله بقتلي ليس لهذه الدعوى ، فإني مُحِقٌّ بها ولكن كنتُ قتلْتُ أبا خصمي ولم يعلم بقتلي له إلا الله الذي أمرك بقتلي . فهذا مدارُ الفرق بين تأويل الأولياء والأنبياء ، وإلهام كلٍّ منهما والله أعلم ..

المثال الرابع عشر :

قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء : ٤٣] فالمعنى الظاهري هو السكر الحقيقي حينما صَلَّى عليّ رضي الله عنه بالصحابة لما دعاهم عبد الرحمن بن عوف بعد أن شربوا الخمر وقرأ سورة الكافرون وخلط فيها فنزلت هذه الآية . وقيل أيضاً المراد بالسكر النوم لحديث عائشة المرفوع : « إذا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يَصَلِّي فَلْيَرْقُدْ » كما في « الخازن » أخرجاه في الصحيحين .

ولكن لا يمنع أن تشير الآية لسُكْرِ الدنيا بعدم الإخلاص في صلاته لمن يَصَلِّي . قال الشرنبلالي في شرحه « مراقي الفلاح » قُيِّل باب التيمم : لا تنفع الطهارةُ الظاهرةُ إلا مع الطهارة الباطنة ، بالإخلاص والنزاهة غن الغلُّ والغشُّ والحقد والحسد ، وتطهير القلب عما سوى الله من الكونين ، فيعبد الله لذاته لا لعلَّةٍ مفتقراً إليه ، وهو يتفَضَّلُ بالمنِّ بقضاء حوائج المضطر عطفاً عليه . قال الحسن البصري :

رُبُّ مُسْتَوِرٌ سَبَّهَ شَهْوَةً قَدْ عَرَى عَنْ سَتْرِهِ وَانْهَتْكَ
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا مَلَكَ الشَّهْوَةُ أَضْحَى مَلَكاً
قال في « روح البيان » في تفسير الآية بعد تفسيرها الظاهري : يعني

يا مدّعي الإيمان ، لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، أي لا تجدوا القربة في الصلاة وأنتم سكارى من الغفلات وتتبّع الشهوات ، لأنّ كلّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملتحق بالسكر . ومن أجله جعل السكر على أقسام ، فسكر من الخمر ، وسكر من الغفلة لاستيلاء حبّ الدنيا ، وأصعب السكر سكر من نفسك ، فإنّ من سكر من الخمر فقضاؤه الحرقه ، ومن سكر من نفسه له القطيعة والفرقة . اهـ . وتماه فيه .

المثال الخامس عشر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى : ٥١] فالمعنى الظاهر الذي لا يختلف فيه مسلم هو أنه بواسطة الوحي ، أو من وراء حجاب كالشجرة لموسى حيث إنه لم ير ربه عزّ وجل ، إنما سمع كلامه من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً يأمر البشر وينهاهم فيوحي إليه بواسطة الملك ما يشاء ، ونحو ذلك من المعاني المتقاربة .

وأما المعنى الإشاري فهو أن الله لا يكلم أحداً من البشر إلا وحيّاً للأنبياء ، أو من وراء حجاب للأولياء وحجابهم الأنبياء ، أو يرسل رسولاً للمؤمنين . وأما الكافرون فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم لأنّ لهم قلوباً لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . وإنّ أدخلنا الكفرة فنقول : إنّ الرسول هو العقل فسواء أتت الأنبياء أو لم تأت فالعقل كافٍ لمعرفة الرّبّ عزّ وجل ؛ وإنّ كان غير مكلف بفروع الشرائع ، وعليه لا يكون أرباب الفترة ناجين كما هو مذهب المائريديّة ، ويؤيده حديث مسلم : « أبي وأبوك في النار » وعند الأشعرية ناجون لأنهم يحملون الرسول على حقيقته ، والله أعلم وأكرم .

المثال السادس عشر :

في سورة حم فصلت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : ٣٠] فتفسيرها الظاهري أَنَّ معنى قالوا ربُّنا الله ، أي وحده سبحانه وأقروا بربوبيته على سبيل الحصر ، من باب صديقي زيد أي لا سواه ، ثم استقاموا أي ثبتوا على هذا الإقرار وما يتبعه من الامتثال لسائر الأوامر الإلهية ، وهذا المعنى لا شك فيه : ثم تشير الآية لمعنى آخر نقله في « روح البيان » عن « التأويلات النجمية » قال : تشير الآية إلى يوم الميثاق لما خوطبوا بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أي ربنا الله وهم الذريات المستخرجة من ظهر آدم عليه السلام أقروا بربوبيته ثم استقاموا على إقرارهم بالربوبية ثابتين على أقدام العبودية لما أخرجوا إلى عالم الصورة ، ولهذا ذكر بلفظ « ثم » لأنه للتراخي فأقروا في عالم الأرواح ، ثم استقاموا في عالم الأشباح وهم المؤمنون بخلاف المنافقين والكافرين ، فإنهم أقروا ولم يستقيموا على ذلك . اهـ .

المثال السابع عشر :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] . فإن تفسيرها الظاهر مُجمَع عليه عند من قال لا إله إلا الله . وأما تفسيرها الباطن فلأرباب الطريق أنه إذا استكمل المريد رشده أن يدلي له الشيخ بسرائر الطريق ويهديه إلى سُبُل التحقيق ، وأن تكون هذه الآية قاعدة لكل من استكمل ما هو بصده ، أن يعينه من كان يرشده ، وكلام الله يفهم منه كلُّ أحدٍ ما يناسبه ويهواه ، ولكن لا يسلم لإفهامه إلا ما لا يتعارض مع قواعد الشرع المطهر . ففي « روح البيان » تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ [النساء : ٥] ما نصه :

اعلم أنَّ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ إشارة أخرى

وهي أن أموال العلوم وكنوز المعارف لا تؤتى لغير أهلها من العوام ولا تذكر ، كما حكي أن بعض الكبار ذكر بعض الكرامات لولي ، فنقل ذلك بعض السامعين في مجلس آخر وأنكره رجل ، فلما رجع إلى الأصل قال : لا يُباع الإبل في سوق الدجاج . اهـ .

المثال الثامن عشر :

قوله تعالى في سورة النور : ١٢ : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ .

فظاهر الآية النهي عن ظنّ السوء ، وأنه يجب على المؤمنين تحسين الظنّ ببعضهم ، وأن لا يأخذوا بالشبهات ، ولا سيما في أمر الحدود والقذف . وثمة وجه آخر من أحسن ما يُستفاد من الآية ، وهو أن يقيس الإنسان من اتهمه على نفسه أن لو كان الظان يعمل هذا الأمر القبيح أولاً . فإن كان الظان يتنزه عن مثل هذا الأمر بل يُقبّحه ، فكيف يجوزُه على غيره ؟ ولا سيما من كان بمثل مكانة السيدة الطاهرة رضي الله عنها وعن أبويها وصلاته وسلامه على من تشرفت به واختارها الله له .

المثال التاسع عشر :

قوله تعالى : ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥] فظاهر الآية دعاؤه عليه الصلاة والسلام أن يُعده الله وبنيه عن عبادة الأصنام التي يعبدها الكفرة . ولكن يبعد أن من هداه الله للنبوة أن يعبد صنماً أو تكون آخرته سوءاً كغيره من أفراد المخلوقات البشرية . اذن تشير الآية إلى معنى آخر .

قال في « روح البيان » في تفسير هذه الآية : وخصّصها الإمام الغزالي بالحجرين أي الذهب والفضة ؛ إذ رتبة النبوة أجل من أن يُخشى فيها أن تعقد الإلهية في شيء من الحجارة ، فاستعاذ إبراهيم من الاغترار بمتاع الدنيا .

يقول الفقير : الظاهر أن الإمام الغزالي خصَّص الحجرين بالذكر بناءً على أنهما أعظم ما يَضِلُّ الناس ، وقد شَبَّه رسولُ الله ﷺ طلابَ الدراهم والدنانير بَعَبَدَةِ الحجارة فقال : « تَعَسَّ عَبْدُ الدرهم ، تَعَسَّ عَبْدُ الدينار »^(١) وإلا فكلُّ ما هو من قَبِيلِ الهوى فهو صنم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] ولذا قال في « التأويلات النجمية » صنم النفس الدُّنيا ، وصنم القلب العُقبى ، وصنم الروح الدرجات العلى ، وصنم السرِّ عرفانُ القربات ، وصنم الخلفاء الركونُ إلى المكاشفات والمشاهدات وأنواع الكرامات ، فلا بدُّ من الغنى عن الكل . اهـ . أقول وقد فني الخليلُ عن غير الخليل حيث قُذِفَ في النار فرضي ، وأمر بذبح ولده فذبحه فلم يبق له صنم ، بل توجهَ لخالق الصنم ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات : ٩٦] .

المثال العشرون :

قوله تعالى في سورة الفرقان : ٧٢ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ؛ فالزُّور هو الكذب ، والله تعالى يوجب النار لشاهد الزور قبل أن تزول قدماه ، وهذا لا شكَّ فيه عند أحدٍ من المسلمين . ولكنَّ بما أن السادة الصوفية منزَّهون عنه ويستبعدون ظهوره من مسلم ، فلهم إشارةٌ خَفِيَّةٌ من معنى الآية لحسن الأخلاق ؛ وهو أن يحضر الإنسان مجالس اللهو والفجور وإن لم يشاركهم . قال في « روح البيان » : قال ابن عطاء الله رحمه الله : هي شهادةُ اللسان من غير مشاهدة القلب . ويجوز أن يكون يشهدون من الشُّهود وهو الحضور ، وانتصابُ الزُّور على المفعول به ، والأصل لا يشهدون مجالسَ الزُّور فحذف المضاف وأقيم المضافُ إليه مقامه ، والمعنى لا يحضرون محاضرَ الكذب ومجالسَ الفُحش ، فإنَّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه من حيث إنها دليلُ الرضا

(١) رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة .

به كما إذا جالس شارب الخمر بغير ضرورة فإنه شريك في الإثم . اهـ .

المثال الحادي والعشرون :

قوله تعالى في سورة الدهر : ١ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ فقد ذكر المفسرون أن الاستفهام هنا للتقرير أي : قد أتى . قال في « روح البيان » استفهام تقرير وتقريب ؛ فإن « هل » بمعنى « قد » ، والدليل على أن الاستفهام غير مراد هو أن الاستفهام من الله محال ، فلا بد من حمله على الخبر . تقول : هل وعظتك ؟ ومقصودك أن تحمله على الإقرار بأنك قد وعظته . روي أن الصديق أو عمر رضي الله عنهما - كما في « روح البيان » - لما سمع رجلاً يقرأ بهذه الآية بكى وقال : ليتها تُمُتْ فلا شيء ؛ أراد ليت تلك تمت وهي كونه غير مذكور ولم يُخلق ولم يُكلف . اهـ .

وثمة معنى آخر تحتمله الآية الكريمة : لم يأت على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، بل هو كان مذكوراً ومعلومًا بعلم الله عز وجل . قال في « روح البيان » : أي ما أتى على الإنسان حين من الأحيان وهو كان منسياً فيه بالنسبة إلى الحق ، وكيف وهو مخلوق على صورة حاجزة له مشهودة عنده .

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن الله ذاكرًا لك فيه . اهـ . فانظر - يا رعاك الله - ما أجمل هذين المعنيين اللذين يحتملهما كلام الله عز وجل بدون أن يخالفهما شيء من أدلة الشرع القطعية ، بل تؤيدهما عقيدة أهل السنة والجماعة . ومن استقرأ أدوار الإنسان إلى أن يدخل الجنة أو النار علم أنها سبعة قبل ولادته ، وسبعة في حياته الدنيوية ، وسبعة بعد موته ، وقد ذكر الله تعالى السبعة الأولى في سورة المؤمنون : [١٢ و ١٤] قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ

نُطْفَةٌ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ صدق الله العظيم . ثم يأتي أدوار الحياة : دور الرضاع حتى السنتين ثم دور الطفولة حتى السبع ثم دور الصبا حتى /١٤/ ثم دور الشباب حتى الثلاثين ثم دور الكهولة حتى الأربعين ثم دور الشيخوخة حتى الخمسين ثم دور الهرم حتى الموت .

ثم تأتي أدوار ما بعد الموت السبعة : الأول دور الموت ، الثاني دور البرزخ ، الثالث دور البعث والنشر ، الرابع دور الحشر إلى الموقف ، الخامس دور الحساب ، السادس دور الصراط ، السابع دور الجنة والنار .

المثال الثاني والعشرون :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] فقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآية آخر سورة القصص أن رسول الله ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عدل عن الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل الجُحفة ، وكانت قرية جامعة على اثنين وثمانين ميلاً من مكة وكانت مهَيَّعة فجاءهم سيلٌ فأجحفهم ، أي ذهب به فسميت جُحفةً بتقديم الجيم المضمومة على الحاء الساكنة ، موضع بين مكة والمدينة ، وهو ميقات أهل الشام فنزلت عليه هذه الآية بها كما في « روح البيان » . فمثلُ هذا التفسير الظاهري لا يُنكره أحد ، لكن لا ينافي ما أشار إليه كلامُ الله تعالى من عَوْدِ الإنسان بحفرته التي خلق فيها ، فقد ورد أنه ما من مولودٍ يُولد إلا يُدْرُ على نطفته من تراب حفرته ، فلا بدَّ أن يرجع التراب إلى محله .

النوع الرابع :

فيما ظهرت معجزة آياته الكريمة . ونحن وإن قصّرنا فيما كان ينبغي الكتابة في بعض الفصول السابقة لكن هذا الفصل هو المقصود من هذا الكتاب ، وهو أبحاث متعددة .

اعلم أن كلّ شيء في الوجود له ظاهرٌ وباطن ، سواء كان ذاتاً أو صفة أو حالاً أو قالاً . وأعظم القول في القرآن العظيم الذي هو مشحونٌ بالحكم والأسرار والبواطن التي تدقُّ عن الأفكار . فلا يعثر الإنسان على دُرره إلا بعد العوص في بحره . وسنة الله أن تظهر حكّمه ظاهرةً في بطون وباطنة في ظهور . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] وليس المراد ظواهر الآيات فقط ، إذ هي بارزة للعيون المحسوسة الظاهرة ، ولكن المقصد منها النظر بعين البصيرة الباطنة ، قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الروم : ٥] . روي عن بعض الصحابة أنه قال : قلت : يا رسول الله إنا نجد في قراءتك ما لا نجده في قراءتنا ، قال : « لأنكم تقرأون ظاهراً وأنا أقرأ باطناً » والمقصود من ذلك أن يعرف شرف أهل الباطن الذين فهموا عن الله أسرار التدبير وأنوار التذكير ولطائف التفكير ، وأطلعوا على ما أودعه الله في بواطن آياته وحقائق مكنوناته ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٨] .

البحث الأول

قال الله تعالى في سورة المرسلات ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات : ٣٠ ، ٣١] قال الإمام السيوطي في

كتابه « الإكليل في استنباط التنزيل » : أوله أنَّ في هذه الآية قاعدةً هندسيةً عظيمة ، وهي أن الشكل المثلث لا ظلَّ له .

وإني صَدَّرْتُ أبحاثي هذه بهذا الاستنباط اقتداءً بهذا الإمام الجليل الذي أخذه على سبيل الإشارة من الآية الكريمة ، مع التسليم لما يدلُّ عليه ظاهرها ، واعتماداً على أن مثله لا ينافي الدين ولا عقيدة المسلمين ، وإن كان بعض الناظرين اعترض على هذه القاعدة .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

[فصلت : ٥٣]

أي والله أعلم أنَّ أدلة التوحيد قائمة في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين للخلق أنَّ هذا الدين هو الدين الحق . كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] دين لا نرى مبغضيه إلا يزدادون منه قرباً من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، وقد يستحسن أكثرهم تعاليمه فيدخلها فيما يضطرُّ إليه ، وقد يستحسنها بعضهم فيعاكسها قصداً وعناداً .

لقد أَرَانَا الله آياته في الآفاق وفي نفوسنا بما مرَّ من الآيات الصريحة في إعجازها والتي أسهبنا في تفسيرها بما لم نوفِّه معشار ما يستحق . وهنا نأتي ببعض الأحاديث التي أخبر بها السيد الأعظم من المعجزات ، فمنها قوله ﷺ : « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بَشِيرًا ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ » . قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وإنَّ هذا الحديث يُعَدُّ من أكبر معجزات الرسول الأعظم ﷺ ، فإنَّ

سَبِيلَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى الْجَارِفِ ، عَمَّ كُلَّ تَلِيدٍ وَطَارِفٍ -

فَأَمَّا النِّظَافَةُ الَّتِي بُنِيَ الدِّينُ عَلَيْهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا كَلْبٌ وَلَا جَزْئِي ، وَبَابُ
الِاسْتِنْجَاءِ صَارَ مِنَ الْمَعْيِيَّاتِ وَالْمَنْسُوخَاتِ عِنْدَ الْأَمَمِ ، فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَتَضَمَّخُ
بِالْبَوْلِ بَدُونَ أَنْ يَمْسَسَ الْمَاءَ وَسُرْوَالَهُ مَتَضَمَّخٌ بِالْقَاذُورَاتِ لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِ
الْمُطَهَّرَاتِ . وَلَقَدْ سَافَرْتُ فِي الْبِلَادِ ، وَسَبَرْتُ أَحْوَالَ الْعِبَادِ ، فَأَيُّمَا تَسِيرٍ تَرَى
مَوَاضِعَ الْقَاذُورَاتِ يَقُومُ عَنْهَا وَاحِدٌ وَيَقْعُدُ آخَرُ ، وَلَا أُدْرِي كَيْفَ يُجِيزُ الطُّبُّ
وَعِلْمُ حِفْظِ الصَّحَّةِ هَذَا الشَّكْلَ الْقَذِرَ الْغَرِيبَ الَّذِي يَنْقُلُ الْأَمْرَاضَ ، وَلَوْ كَانَ
هَذَا الْمَكَانَ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ لَا يَرْتَادُهُ غَيْرُهُ لَأَنْفَ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ،
فَكَيْفَ بِالْمَحَلَّاتِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي كُنَّا نَقَاسِي مِنْهَا الْأُمَرَاءَ مِنَ الْقَرْفِ وَمِنْ
خَشْيَةِ عَدَوِي الْأَمْرَاضِ ، يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ أَمْرِ الطَّهَارَةِ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ الَّتِي تَعُدُّ
مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ .

وَمِنَ الْعَوَائِدِ أَمْرُ اللِّبَاسِ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى الْأَسَاسِ وَالْمَدَاسِ ، فَإِنَّ الْقُبْعَةَ الَّتِي
يَرْتَدِيهَا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُمْكِنُ السَّجُودُ مَعَهَا لِمَا لَهَا مِنَ الْبُرُوزِ فِي أَطْرَافِهَا أَوْ فِي
طَرَفِ الْجَبْهَةِ . ثُمَّ فِي الْأَلْبَسَةِ الَّتِي تُشَخَّصُ أَعْضَاءُ الْعَوْرَةِ الْمَكْرُوهَ لِبَسِهَا
تَحْرِيمًا كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ ، ثُمَّ فِي لِبَسِ السَّرَاوِيلِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنْهَا
الرَّكِبَتَانِ وَمَا فَوْقَهَا الَّتِي لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ وَلَا تَتَعَقَّدُ بِهَا ، ثُمَّ خَلْعُ جِلْبَابِ الْحَيَاءِ
عَنِ النِّسَاءِ وَظَهْوَرُهُنَّ بِأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ مَتَبَرِّجَاتٍ بِحَالٍ لَا يَرْضَاهَا أَحَدٌ مِنْ ذَوِي
الْمَرْوَاتِ بَحِثَ لَوْ أَرَادَ أَحَدٌ مَخَالَفَتَهَا لَعُدَّ مِنَ الْمُسْتَهْجَنَاتِ ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ
الْعَامَّةُ الطَّائِفَةُ ، هِيَ أَخْبَثُ الْمُسْتَحْدَثَاتِ وَفَوْقَ الْمُنْكَرَاتِ . ثُمَّ اخْتِلَاطُ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ فِي النُّوَادِي وَالْبُيُوتِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ .

وَقَدْ ذَكَرَ فِي « الْحَاشِيَةِ » حَدِيثًا فِي بَابِ الْحِظْرِ وَالْإِبَاحَةِ : « مَنْ تَأَمَّلَ خَلْفَ
امْرَأَةٍ وَرَأَى ثِيَابَهَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ حَجْمُ عِظَامِهَا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » فَكَيْفَ

بمن ينظر إليها متجرّدة متزينة ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟ وقد ذكر ابنُ عابدين في باب السياسة قال : روي أن الفقيه أبا بكر البلخي خرج إلى الرُستاق ، وكانت النساءُ على شطِّ النهر كاشفاتِ الرؤوس والذراع . ف قيل له : كيف فعلت هذا ؟ فقال : لا حرمةَ لهنّ إنما الشكُّ في إيمانهن كأنهنّ حريات ، وهكذا في « مجمع الفتاوى » . اهـ . وذكره صاحبُ الدرِّ في باب نكاح الكافر .

فما بالك بمن يرقصن مهتكتاتٍ مع أزواجهنّ وغير أزواجهن في الحفلات والمجمعات كما نسمع بذلك سماعاً متواتراً ، وكما صادفناه في الطرقات في بلاد الفرنجة ، ونرى صور ذلك على الحيطان وفي النشرات بصورة لا تستدعي الإنكار فهل من شكٍّ بسوء إيمانهن والعياذ بالله ؟.

هذا ما نبرأ إلى الله منه ولا نقدرُ على تغييره ولا على إنكاره ، وقد أخبرنا عن ظهوره صاحبُ المعجزات عليه السلام بصريح الأحاديث البينات ؛ روى مسلم وأحمد في مسنده عن أبي هريرة قوله عليه السلام : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد ، قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقر يضربون بها الناس ، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات ، مائلاتٌ مميلات ، رؤوسهن كأسمنةِ البُخْتِ المائلة ، لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يجذَنَ ريحها ، وإنَّ ريحها ليوجدُ من مسيرةِ كذا وكذا » ، قال المُنْأَوِي : كنايةٌ عن خمسمائة عام ؛ أي يوجدُ من مسيرة خمسمائة عام كما جاء مفسراً في رواية أخرى .

وقد فسره شُرَّاح الحديث بأنَّ النساءَ يعظُمن رؤوسهنّ بالخُمُر والعمائم التي يلفنوها ، ولكنَّهم لم يصلوا إلى زمننا هذا فينظروا نساءه كيف يعظُمن رؤوسهنّ بالشعور المستعارة التي يحشونها ، وبالصموغِ الأفرنجية التي يُلصقونها بها ، مع أنهم يقصُّون شعورهنَّ كالرجال وهنَّ سافراتٌ يلبسن ما يلبسه الرجالُ تماماً مما يعسرُ على كلِّ مَنْ رآهن أن يميز بين الرجل والمرأة

إِلَّا مَنْ تُعْظَمَ شَعْرَ رَأْسِهَا ، فَإِنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أَنْثَى .

وأما اللباس فالأزياء إنما تأتي صُورُهَا من أمريكا أو من فرنسا . كيف أولئك يلبسن وكيف يفعلن برؤوسهن فيتبعهن نساؤنا ، ولم يكن ذلك معروفاً في زمن سُراح الحديث حتى يتكلموا عليه ، ويرحمهم الله لو رأوا عين ما رووا لاختاروا الموت على الحياة ، وعلموا ظهور هذه المعجزات من كلام سيد المخلوقات ﷺ .

ومهما بالغت وأكثرت من اختلاط الرجال بالنساء في المجتمعات والمراقص والمساح والمتمنّزات فإنني أوقن بأن الأمر سيزداد حتى تمرّ المرأة فينكحها الرجل علناً كما أخبر بذلك ﷺ بقوله : « لكلّ شيء إقبالٌ وإدبار ، وإنّ من إقبال هذا الدين ما بعثني الله به ، حتى إنّ القبيلة لتتفقّه كلها من عند آخرها ، حتى لا يبقى إلا الفاسق والفاسقان ، فهما مقهوران مقموعان ذليلان ، إن تكلمّا أو نطقا قُمعا وقُهرًا واضطُهدا »^(١) . ثم ذكر من إدبار هذا الدين « أن تجفو القبيلة كلّها من عند آخرها ، حتى لا يبقى فيها إلا الفقيه أو الفقيهان ، فهما مقهوران مقموعان ذليلان ، إن تكلمّا أو نطقا قُمعا وقُهرًا واضطُهدا . وقيل لهما : أتطعنان علينا ؟! حتى يُشربَ الخمرُ في ناديم ومجالسهم وأسواقهم ، وتُنحلَّ الخمرُ غير اسمِها ، حتى يلعن آخر هذه الأمة أوّلها ألا حلّت عليهم اللّعة ؛ ويقولون : لا نأمن هذا الشراب . يشرب الرجل منهم ما بدا له ، ثم يكفّ عنه ، حتى تمرّ المرأة فيقوم إليها بعضهم ، فيرفع ذيلها فينكحها وهم ينظرون ، كما يرفع ذنب اللّحّة ، وكما أرفع ثوبي هذا - ورفع رسول الله ﷺ ثوباً عليه من هذه السّحوليّة - فيقول القائل منهم : لو نحّيتموها عن الطريق ، فذاك فيهم كأبي بكر وعمر ، فمن أدرك

(١) رواه ابن السّني وأبو نعيم في الحلية .

ذلك الزمان وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فله أجرٌ خمسين ممن صجّني وآمنَ بي وصدّقني أبداً » . ذكره ابن حجر الهيتمي أول كتابه « كَفُّ الرِّعَاعِ فِي مُحَرَّمَاتِ اللّهُو وَالسَّمَاعِ » .

وإن أحاديث هذا الباب أكثر من أن يحصيها كتاب ، وفيما ذكرناه من الإلماع إليها كفاية والله أعلم .

البحث الثاني

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩] . اعلم أن هذه الآية من أعظم آيات الإعجاز التي بنيت عليها حكم الدنيا والآخرة ، فإنَّ سائر الأجسام والأرواح والمخلوقات كلّها بنسبٍ ثابتة معروفة ، بحيث إذا زاد شيءٌ عن حدّه في تركيبه خرج عن أصله ومادته وحقيقته وانقلب إلى ضده . ولُناتٍ بأبسط الأمثلة ليقاس عليها غيرها . مثلاً إنا نرى الهواء بنسبة أربعة حجّوم من الآزوت وحجم واحد من الأوكسجين ، كما هو ثابت بتجربة لافوازيه التاريخيّة عام ١٧٧٤ ؛ حيث سخّن الزئبق في دورقٍ معوّج الرقبة ، وصاعدها من آخر رقبتة ، ومغطوس بماء ، وفوّهته الصاعدة عاليّة عن الماء ، ومُطبّق عليها ناقوسٌ خالٍ ممتلئ من الهواء ، وبعد تسخين الزئبق عدة أيام تشكّل الجسم المسمّى بالسُرور كطبقة حمراء على سطح الزئبق ، وهو حمض الزئبق ، ونقص من حجم الهواء الموجود في الدورق خمس حجمه ، فأدخل في الهواء الباقي شمعة مشتعلة فانطفأت وأدخل فيها عصفوراً فمات . مما دلّ على فقد الأوكسجين . ثم سُخّن الدورق مرّة أخرى حتى فقدت تلك الطبقة فزاد حجم الهواء في الناقوس ، وأعيدت تجربة العصفور والشمعة فعاش ، وبقيت شاعلة ، وتجربة الفوسفور هي أسهل من الأولى .

فلو زاد أو نقص في الهواء هذا الجسم لمات الإنسان والحيوان والنبات وطفئت النيران ، واختل نظام الكون من أساسه . مع أن الاحتراقات الأرضية والتحوّلات الكيماوية في جميع الأجسام قائمة على ساق وقدم ، فمن الذي يحافظ على هذه النسبة بصورة لا تتغير ولا تتبدل ؟ .. هذا أبسط شيء في الوجود ، ولا ضابط له ظاهر ؛ ولا ميزان قائم ، ومن الذي يجبر الطبيعة على اتباع هذا السُنن الذي يجب أن يختلف ، بما يحدث فيها من تعديلات في الهواء ، واختلاف في الرياح والأقطار ودرجة الحرارة والبرودة ؟ فسبحان من أنزل هذه الآية عبرةً لأولي الأبصار . وعنده كلُّ شيء بمقدار . ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ .

ولو أردنا استقصاء مخلوقات الله في تركيبها على مقاديرها المتوازية لما وسعته مجلدات الكتب ، ومن أمثالها شيء كثير في كتابنا التفسير .

البحث الثالث

قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ [الأنبياء ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ [فصلت : ١٢ ، ١١] .

وقال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء : ٥٨] .

قال عبيد الله الاباحي في كتابه « المذهب الروحاني » ما نصه : رأينا في

الفصل السابق ما أجمع عليه العلماء طُرّاً من أن الأرض تولّدت كباقي السيارات من منطقة اقتطعت من خطّ استواء الشمس ، وتكاثفت مادتها فأصبحت كرة نارية تدور على محورها وحول الشمس . فالأرض كانت في البدء كتلة نارية ، وعرض لها ما يعرض لكل مادة ذائبة ، أي أخذ سطحها يبرد ويجمد شيئاً فشيئاً كجمر نار إذا عرّضتها للهواء ينطفئ خارجها ويبقى باطنها مشتعلا ، وكان الهواء ممتدّاً بفعل الحرارة إلى بعد شاسع ، والمياه بأسرها على حالة بخارية مختلطة بالهواء ، ومثلها كل المواد القابلة التحول إلى بخار ، كالمعادن والكبريت والكربون وما شاكلها بنوع أن الجو كان يومئذ في منتهى الكثافة لا تحرقه أشعة الشمس .

وإن العلماء يقسمون تاريخ تكوّن الأرض إلى ستة أعصر ، يقال لها الأعصر الجيولوجية . الأول العصر الأصلي ، الثاني الانتقالي ، الثالث الثانوي ، الرابع الثالثي ، الخامس الطوفاني ، السادس اللاحق للطوفان أو الحالي . وقال أيضاً : يقال للطبقات التي تكوّنت في كل عصر : الطبقات الأصلية أو الانتقالية أو الثانوية الخ ، وعددها ست وعشرون طبقة عامة متميزة .

ويبتدئ العصر الأصلي أو الأولي من حين ما أخذت الأرض تبرد وتكتسي بقشرة جامدة وهي الحجر الصوّاني الشديد الصلابة ، لا أثر فيه للنوابت ولا للحيوان ، ولا يعلم كم دام هذا العصر وما بعده . وقد قدر بعض علماء الطبيعة ومنهم العلامة ليل ، باستنادهم إلى امتحانات عملية في الرسوب ، أن الأرض مضى عليها نحو من ثلاثمئة مليون سنة منذ ما أخذت القشرة الأولى تجمد على سطحها . وأما في بدء العصر الانتقالي فلم تكن الطبقة الصوّانية قد بلغت من السّمك ما تقى الأرض عوارض الزعازع والزلازل والانشقاقات . ولا زالت العصور تتوالى على الأرض وتترك طبقات وآثاراً حتى طرأ تغيير

فجائي على وضع محور الأرض وقطبيها ، فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعاً عاماً ، وانقرض في هذا الطوفان كثير من الحيوانات ، ولجأ بعضها تخلصاً من الغرق إلى شقوق ومغاور في أعالي الجبل فهلكت ، وقد كشف العلماء كثيراً من تلك المغاور الحاوية عظاما عديدة من الوحوش الكواسر التي كانت قبل تلك الفاجعة ، وقد انقرضت أنواع من الحيوان عن بكرة أبيها .

وفي هذا العصر أخذ القطبان يكتسيان الجليد ، مما يدل على تناقص عظيم في حرارة الأرض فجأة وليس تدريجياً لأن علماء الجيولوجيا استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من (الماموث) كشفوها وسط الجليد الشمالي فحكموا بحصول برد فجائي باغتها وقتلها قبل أن تتمكن من الهجرة إلى أقطار أخرى .

ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالي وهو السادس وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاوة وأرسلت الشمس أشعتها فطاب النبات وأنس الحيوان وظهر بعدها الإنسان ، وهل كان الإنسان موجوداً قبل الطوفان أم لا ؟ إنهم وجدوا آثاراً تدل على ذلك . اهـ .

أقول وما المانع أن يكون الطوفان المذكور بالقرآن هو العصر الطوفاني طالما أنهم وجدوا آثار الإنسان قبله . بينما حكموا أنه الطوفان الآسيوي الخاص . ولا أرى دليلاً عقلياً ولا نقلياً يؤيد قولهم إلا ما جاء في الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة ، من حدوث تاريخ هذا الطوفان بالنسبة لما ذكرته من أعمار البشر ، فاضطروا بحكم هذا التاريخ بسنين معدودة أن يكون طوفان نوح هو الطوفان الآسيوي الجزئي الحديث . على أن هذا يكذبه ظاهر الحال لأن الطوفان الآسيوي أيضاً جاء بأسفار القيدا الهندية التي كانت قبل التوراة

بأكثر من مدة العالم المذكورة في التوراة ، فعلى كلِّ حال لا دليل يؤيد مزاعم من يحمل طوفان نوح على الطوفان الآسيوي الحديث بل هو الطوفان العام السابق القديم الذي لا يعلم سنِيَّة ومدته إلا الله .

وأذكر مشاهدة لي في بعض أسفاري حينما كنت في يوغوسلافيا فأطلعني مدير الآثار فيما أرونا من متاحفهم القيمة على آثار قديمة يرجع عهدُها إلى عشرين ألف سنة من صنع الإنسان ؛ فقلت له : لكن في كتاب العهد القديم – وهو التوراة – يقولون إن عمر البشر سبعة آلاف سنة ، فكيف تدَّعون أن هذه من آثار البشر وهي ترجع إلى عشرين ألف سنة ؟ فقال : إني أخاطبك بلسان الفن لا بلسان الدين . فأعدت عليه السؤال فأعاد الجواب ، فعلمتُ أن التعصُّب الديني يستر الحقائق ، والتقليد الأعمى يُعمي ويصم .

نعم إن الأرض مهما بلغت من اعتدالها وصلاحتها للحياة لا بد من زوالها ومحوها من سفر الوجود يوماً ما ، ولكن متى وكيف يتم ذلك ؟ هذا أمرٌ ما زال وقته في حيز الظنون ، وعلمه الحقيقي عند من لا تراه العيون ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نَقُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] . وقد بلغت الأرضُ اليوم كمال نموها وقرارها بحيث لا نخشى معه انقلابات عامة ، كالتي كانت تحدث في الأعصر الجيولوجية المتقدِّمة ، لأسباب عقلية ونقلية ، أما العقلية الفنية فمنها :

- ١ – إن البرودة التي حصلت على سطح الأرض ولا سيما في القطبين كافية لإطفاء ما يخرج من حرارة الأرض الداخلية التي توجب الدمار العام .
- ٢ – كون مساحة البحار أكثر من مساحة البر ، والماء طبعه البرودة .
- ٣ – سمك قشرتها المحيطة بالمركز الناري التي تزداد يوماً عن يوم

بالأسباب التي كونتها حين انفصلت واستقلت عن الكتلة الذرية الدخانية ؛
وأسبابٌ آخر : منها زيادةُ القشرة بما يتساقطُ من الأحجار السماوية في كل
آن .

على أنه لا ينكر حدوث بعض الخسوفات المحلية الناشئة عن الزلازل كما
حصل في اليابان سنة ١٩٢٣ وهلك فيها نصف مليون من البشر . ولا تزال
تحدث كل يوم ، وكما حصل في أمريكا أيضاً سنة ١٩٣٩ ، وكما حصل في
مقاطعة أذربيجان في تركيا سنة ١٩٣٩ حيث خسف هناك بقرى كثيرة ،
وهلك فيها زهاء مائة ألف نسمة ، وكما حصل بمملكة العجم خسوفات
ذهب ضحيتها ما ينوف عن خمسين ألف نسمة ، عدا المشردين وذلك سنة
١٩٦٣ ولا زال الخراب والدمار حتى كتابة هذه السطور ، وكما حصل
بالمغرب في بلدة أغادير من بلاد المغرب التابعة لمملكة مراكش وروته
الصحف وذكرت من هوله وشدته ما تقشعرُّ منه الأبدان ، وذهب ضحيته
ما ينوف عن خمسين ألف نسمة ، وذلك أول شهر رمضان سنة ١٣٧٩ وآخر
شهر شباط سنة ١٩٦٠ .

وهذه كلها تعد زلازل وخسوفات عادية لا تخلو الأرض منها في زمان
ومكان لا يعلم حدوثها أحدٌ إلا الله ، بل نراهم بعد حدوثها وصدورها
يتكهنون ويقولون للسبب الفلاني والعلة الفلانية ، وكلُّه فرضٌ وتخمين استأثر
الله بعلم ما يُحدثه في ملكه ليقرَّ البشر بعجزهم مهما وصلوا من العلم ويلجؤوا
للتسليم لقوله تعالى :

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [لقمان : ٣٤] ، وقوله تعالى :

﴿ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

أما الأخبار النقلية فمنها ما رواه مسلمٌ في صحيحه في كتاب الفتن عن

النبي ﷺ قال : « سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ؛ سألتُ ربي أن لا يهلك أمتي بسنةٍ فأعطانيها ، وسألتُه أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألتُه أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » .

وفي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « يكون في آخر هذه الأمة خُسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ » .

وفيه عن علي رضي الله عنه : « إذا فعلت أمتي خمسَ عشرةَ خصلةً حلَّ بها البلاء » . وفي آخر الحديث « فليترَقَّبُوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خُسفاً أو مَسْخاً » .

وفي أبي داود في الملاحم عن أنس بحق بُصرى يقول عليه الصلاة والسلام : « يكون بها خسف وقذف وَرَجْفٌ » والرَّجْفُ الزلزال . وفي حديث طويل عن أبي هريرة رواه الأربعة قوله ﷺ : « وتكثر الزلازل » ، وفي حديث آخر عن حذيفة قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة قال : « إنها لن تقومَ حتى تروا قبلها عشر آيات » ، فذكر : « الدُّخَانُ ، والدَّجَالُ ، والدَّابَّةُ ، وطلوعُ الشمس من مغربها ، ونزولُ عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثةُ خُسوف : خُسْفٌ بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن ، تطرد الناسَ إلى محشرهم » رواه مسلم والترمذي وأبو داود .

فهذه الأحاديث تدلُّ على زلازلٍ وخسوفاتٍ موضعيةٍ غيرِ عامة ، وقد ذكرنا ما فيه الكفاية من الحوادث الطبيعية . ولكن متى أراد الله مَحْوَ الكرة الأرضية من عالم الوجود بعد تلك الآيات العشر ، ترى قد دبَّ بها الضعف والاهتراء العام ويُأخذ الانحلال يدبُّ في كلِّ جزءٍ من أجزائها وبعناصرها

المنحلة كما قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [طه : ١٠٥-١٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ . [الرعد : ٤١] .

وحينئذ يأتي زمن النكبات التي ابتدأت به الأرض في أول نشأتها ، فالسماء تقذف بالحجارة ، والانخسافات تكثر ، والبحار تُسَجَرُ نارًا ، ويصدق حينئذ قوله تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكويد : ١ ، ٢] .
وقوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان : ١٠ ، ١١] .
وقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : ١-٤] .

وتبدل الأرض بغيرها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .
وقد جاءت أحاديث كثيرة مؤيدة لذلك ، موضحة لها . منها ما رواه أحمد مختصرًا وابن أبي الدنيا والبيهقي .

« بِيَتْ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى طَعْمٍ وَشَرْبٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ ، فَيَصْبَحُونَ وَقَدْ مُسَخُوا قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ ، وَلَيُصَيِّئُهُمْ خَسْفٌ وَقَذْفٌ حَتَّى يَصْبَحَ النَّاسُ يَقُولُونَ : خُسِفَ اللَّيْلَةُ بِدَارِ فُلَانٍ ؛ وَلْتُرْسَلَنَّ عَلَيْهِمْ حَجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أُرْسِلَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ عَلَى قِبَائِلٍ مِنْهَا ، وَعَلَى دُورٍ ، وَلْتُرْسَلَنَّ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمُ الَّتِي أَهْلَكَتْ عَادًا عَلَى قِبَائِلٍ مِنْهَا ، وَعَلَى دُورٍ بِشَرِبِهِمُ الْخَمْرَ ، وَلِبَسِهِمُ

الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم » . وَخَصْلَةُ نَسِيهَا جعفر ، ذكره في زواج ابن حجر في كبيرة شُرْب الخمر . وذكر هو وغيره من هذا الباب كثيراً والله أعلم .

البحث الرابع

قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] .

اعلم أن انشقاق القمر من آيات الله ورسوله الباهرة المعجزة الدالة على نبوة الرسول الأعظم ﷺ . قال الخازن : يدل عليه ما روي عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريَهُمْ آيَةً ، فأراهم انشقاق القمر مرتين أخرجه البخاري ومسلم وزاد الترمذي : فنزلت ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] . ولهما عن ابن مسعود قال : انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ شقين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » . وفي رواية أخرى قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمرُ فلقين فوق الجبل ، وفلقةً دونه . فقال لنا رسول الله ﷺ : « اشهدوا » . ولهما عن ابن عباس قال : إن القمر انشقَّ في زمن رسول الله ﷺ . وفي مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فلقتين ، فستر الجبلُ فلقةً وكانت فلقةً فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اشهد » .

وعن جبير بن مطعم قال : انشقَّ القمرُ عهد رسول الله ﷺ فصار فلقين ، فقالت قريش : سحرَ محمدٌ أعيننا . فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم . أخرجه الترمذي وزاد غيره : فكانوا يتلقون الرُّكبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم . قال مقاتل : انشقَّ القمر ثم

التأم بعد ذلك ، وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمرُ على عهد رسول الله ﷺ . فقالت قريشُ سحرَكم ابنُ أبي كبشة . فسألوا السفارة ، فقالوا : نعم قد رأيناه فأنزل الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾ [القمر : ١] . فهذه الأحاديثُ صحيحةٌ قد وردت بهذه المعجزة العظيمة مع شهادة القرآن المجيد بذلك ، فإنه أولُ دليلٍ وأقوى مثبت له ، وإمكانه لا يشك فيه مؤمن ، وقد أخبر عنه الصادقُ فيجب الإيمان به واعتقاد وقوعه .

فأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا لنقل متواتراً ، واشترك أهل الأرض كلُّهم في رؤيتهم له ومعرفته ، ولم يختصَّ بها أهل مكة ؛ فأجاب العلماء عن هذا بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ، ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم مغطَّون بثيابهم ، فقلَّ من يتفكَّر في السماء أن ينظر إليها إلا الشاذ النادر . ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره مما يحدث في السماء في الليل من العجائب والأنوار الطوالع والشهب العظام ونحو ذلك يقع ولا يتحدثُ به إلا آحادُ الناس ، ولا علم عند غيرهم بذلك لما ذكرناه من غفلة الناس عنه . وكان هذا الانشقاقُ آيةً عظيمةً حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها فلم يتأهب غيرهم لها . قال العلماء: وقد يكون القمر حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم ، وكما يجد الكسوفُ أهلُ بلد دون بلد والله أعلم .

وقيل في معنى الآية : ينشقُّ القمرُ يومَ القيمة . وهذا قولٌ باطل لا يصح ، وشاذ لا يثبتُ لإجماع المفسرين على خلافه ، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ، وحمل الماضي على المستقبل بعيدٌ يفتقر إلى قرينة تنقله أو دليل يدلُّ عليه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإن يروا آيةً يعرضوا ﴾ دليلٌ على وجود هذه الآية العظيمة ، والمستمرُّ الدائمُ المُطَرَّد ، وكلُّ شيء دام حاله قيل فيه مستمر .

وذلك لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات فقالوا : هذا سحرٌ مستمر ،
وتمامه في الخازن .

قلت : إن انشقاق القمر هي علامةٌ من علامات الساعة ، كما يدلُّ عليه
نظم الآية الكريمة حيث قال تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ وكأنَّ قائلًا يقول : ما علامةُ اقترابها ؟ فنقول : هاهو
القمر قد انشقَّ ، فكما انشقَّ القمر سينشقُّ غيرُه من الكواكب ، فانشقاقه علامةٌ
ودليلٌ واضح على تكرار أمثاله ، وحيثُ حصل الاختلالُ والاختباط به يحصل
بغيره أيضاً ، ويوشك أن يحصل بالأرض ، أما تعيين وقت ذلك فهذا
ما لا يقدر عليه أحدٌ إلا الله تعالى ، ومن أطلعه من أهل غيبه .

وقد ثبت ثبوتًا لا مَرِيَّةَ فيه لدى علماء الفنِّ الحاضر من أهل أوربة
المشتغلين بهذه الأبحاث ، أنه حصل بالقمر احتراقات وبركانات متعدّدة
بأوقاتٍ وأزمنةٍ شتى ، مما جعله غيرَ صالحٍ للحياة والمعاش فيه ، ولا شكَّ أن
أحد هذه الحوادث بل أعظمها كان حينما أراد ذلك رسولُ الله ﷺ فأوقعها
الله معجزةً له ﷺ ، حيث انفصل منه قطعةٌ عظيمةٌ ثم عادتْ إليه بحكم
الجزائية ، وأن هذا الكَلَفَ المشاهدَ به إنَّه هو إلا نتيجةُ هذه الاحتراقات
المتتالية ، وأن هذه العلامة هي ظاهرةٌ من ظواهر القيامة التي أشار الله تعالى لها
بقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ تنبيهًا لما سيتلو انشقاقه من أمثالٍ
متعدّدة ، أعظمها ما يكون في الأرض التي عليها هذا المخلوق المُكْرَم وهو
الإنسان .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] . كيف وقد
سَخَّرَ الله لهذا المخلوق سائر الأكوان ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴿ [الجاثية : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ [لقمان : ٢٠] فإذا أراد الله إهلاك جنس هذا المخلوق المكرَّم فهي القيامة الحقيقية ، أما وقد سبق في الأرض حوادث نظيرها حينما كانت الأمم تعصي رُسُلَهَا وتكذبهم ، فيعذب الله المكذِّبين معجزةً لرسله كما قال تعالى :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [القصص : ٨١] ، وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : ٧٤] ولكن كانت تلك حوادث محلية غير عامة ، ومتى عمَّت فهي الطامة الكبرى التي تُوجب اختلال جاذبيَّة هذه الكواكب والعوالم ، ويتحقَّق عندها سائرُ ما وصفه الله تعالى من أقواله الصادقة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ ، ٣] وغير ذلك . ونحن لم نقصدُ بما ذكرنا أنَّ هذا الأمر عاديٌّ لا معجزةً فيه ولا خرقَ عادةٍ نعوذ بالله من ذلك ، ولكن نريدُ إثباتَ إمكانِ وقوعه لمن ينكره ، وكيف لا تكون معجزةً وقد كانت حينما أرادها رسول الله ﷺ ، كما كانت معجزاتُ الأنبياء السابقين من هلاك أقوامهم بالطوفان أو الريح العقيم أو انخسافِ الأرض أو قلبها أو غير ذلك .

ثم انظر ما أشد مناسبة قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ مع قوله : ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ إذ هما متلازمان تلازُم الظلِّ لصاحبه . فإنَّ خراب هذا الكوكب دليلٌ على تسرُّب الخراب لغيره الذي يصدق قوله ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وأشار بمسبِّحته والوسطى^(١) ولكن متى يكون حدوث ذلك ؟ الله أعلم بوقته . قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أنس .

هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ
إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف : ١٨٧] .

ومما ينبغي أن يعلم أن الاقتراب ليس معناه بعد يومٍ أو يومين أو مائة أو مائتين أو ألف أو ألفين ، فإنَّ آلافَ آلافِ السنينَ واللحظةَ الواحدةَ بمنزلةٍ واحدةٍ ، بحقِ إلهه عزَّ وجل . وما المدَّةُ التي انقضتْ من زمنِ نزولِ الآيةِ حتى الآنِ إلا عمرٌ واحدٍ ممن كانوا يعيشون ألفَ سنةٍ أو ألفاً وخمسمائةٍ أو أكثرَ أو أقل .

فالاقترابُ بالنسبةِ للمخلوقاتِ الكثيرةِ التي لا يحصيها العدُّ من الجنِّ والملائكةِ التي يعيش أحدهم مئةَ ألفِ سنةٍ ، وسبعين ألفَ سنةٍ ، وألفَ ألفِ سنةٍ ، وهم الكثرةُ الكثيرةُ التي لا يكونُ هذا المخلوقُ الضعيفُ وهو الإنسانُ عَشْرَ عَشْرِ معشارهم ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

فالقرآنُ العظيمُ أشارَ بآياته إلى هذه المعجزةِ العظيمةِ التي جعلها تعالى في مصابيحهِ المنتشرةِ بهذا الفضاءِ على سبيلِ الرمزِ والإشارة ، لا بصريحِ العبارة ، كي لا يلتفت المسلمون لهذه الأمورِ العظامِ في بدءِ الإسلامِ ويتركوا ما هو أعظمُ منها ، وهو نشرِ دينِ الإسلامِ اعتماداً على ما سيظهره الزمانُ بتصاديقِ آياتِ القرآن . ونحن نلمح إلى بعضِ ذلك بكلامِ علماءِ الفلكِ والطبيعة ، ثم نتبعه بكلامِ سيدنا الشيخ الأكبر ليكون لهذا المبحثِ مسكُ الختام .

فاعلم أن علماءِ الفلكِ المتأخرين أثبتوا أن الأرضَ عبارةٌ عن كوكبٍ يدورُ حولَ الشمسِ كبقيةِ الكواكبِ ، له دورةٌ يوميةٌ حولَ نفسه بزمنٍ مقسَّمٍ إلى أربعةٍ وعشرينَ قسمًا ، يسمون كلاً منها ساعةً ، وأما دورتها حولَ الشمسِ فثلاثمائة وستين يوماً تقريباً . ويوجد غيرها من السيارات : كالزهرة وهي أكثرُ السياراتِ ضياءً بعد غروبِ الشمسِ في المساء ، وتُرى في جهةِ المغرب ، وتُرى

صباحاً في المشرق كذلك قبل شروق الشمس ، ولذا تُسمَّى كوكب الراعي ، ونجمة الصباح وتسمَّى أيضاً كَرَوَان وقيران ، وضياؤها عظيمٌ لدرجة أنها تُرى بالنهار أحياناً ، وتدور حول الشمس خلال /٢٢٤/ يوماً وتدور حول محورها في /٢٣/ ساعة و ٢١ دقيقة . وأما المشتري فبعدها من الشمس أكثر من بُعد الأرض تقريباً وتدور حول الشمس باثنتي عشرة سنة وحول محورها — أي يومها — عشر ساعات .

وأورانوس أكبر من الأرض بـ ٨٢ مرة ويبعد عن الشمس أكثر من بعد الأرض بتسع عشرة مرة (١٩) ، ويدور حول الشمس مرة كل /٨٤/ سنة ، ونبتون أكبر من الأرض (١١١) مرة ويدور حول الشمس مرة كل (١٦٥) سنة ومسافته من الشمس أكثر من بعد الأرض بثلاثين مرة . ويوجد سيارات أخرى منها ما اكتُشف ومنها ما لم يكتشف . الله أعلم بها .

وأيضاً يوجد من النجوم الثوابت ما لا يعلم عددها وعظمها إلا العظيم المطلق الذي خلقها ، وهذه من عدم تبدّل أمكنتها قبل لها الثوابت ، وربما كان كل كوكب من هذه الثوابت عبارة عن شمس من الشموس مثل شمسنا ، وله توابع وسيارات تدورُ حوله ، كالسيارات التي عدّدنا بعضها ، وأقرب نجم بعده عن الأرض كبعد الأرض عن الشمس بمائتي ألف مرة ، وأكثر وأقرب نجم وأضوؤه يُرى من هذه النجوم في قطعة أوربة هو الشُّعْرا اليمانية في حين أن ضياءها يقطع في ثانية واحدة سبعين ألف فرسخ ، وبثلاث سنين حتى يصل ضوءه إلى الأرض ، فما بالك بالكواكب التي يُظن أنها أبعدُ منه بألف مرة أو أكثر ، بما يلزم لوصول ضوءه إلينا آلاف السنين ويحتمل أنه طفئ وانمحي ، وضوؤه في طريق الوصول إلينا .

والجرّبي في هذا المضمار لا آخر له ، ذكرنا عنه هذه النبذة ليُعلم أن عروج الملائكة يختلف باختلاف الأمكنة التي أمرهم الله تعالى بالرجوع إليها .

فقله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥] أي بقضائه وقدره يوجد في الأرض ، ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل . ثم يرجع هذا الأمر المُقضى في الأرض إلى الله تعالى ويرفع إليه من أمكنة لو أردنا ارتيادها لاحتاج إلى ألف سنة من سني الدنيا ، أو أكثر أو أقل . وقد علمت اختلاف أيام الكواكب السيارة المارة : فيوم الزهرة ٢٣ ساعة و ٢١ دقيقة ، وستتها ٢٢٤ يوماً . ويوم المشتري عشر ساعات ، وستتها اثنتا عشرة سنة ، وسنة أورانوس ٨٤ سنة ، ونبتون سنتها ١٦٥ سنة .

فيستفاد من الآيات أشياء؛ أولها أن الأمكنة التي تنزل فيها الملائكة بعضها مدته ألف سنة من سني الدنيا، وبعضها ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ مَسْنَةً ﴾ [المعارج : ٤] . والمراد باليوم في هذه الآيات أقل الزمان أي في زمن لو أردنا اجتيازه لاحتمل كذا . لأن سنة الله في خلقه بين شيئين : عالم الخلق وعالم الأمر ؛ فأما عالم الخلق فله المدة التي يقدرها الله تعالى له ، كما تحمل المرأة تسعة أشهر ثم تلد طفلاً ثم وتم . وكذا تغرس الأشجار فتنبت ثم تثمر ، فهذا عالم الخلق . ولكن عالم الأمر عكس ذلك ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] فجبريل سلام الله عليه يكون تحت العرش وبلحظتها يكون في الأرض بعالم الأمر . فعالم الأمر ليس له وقت محدود ، ورسول الله ﷺ أُسْرِي به وعُرج به وصلى بالأنبياء وطاف السماوات وتشرفت به الملائكة ووصل إلى الكرسي والعرش ورأى الجنة والنار كله بعالم الأمر ، وملك الموت يقبض أرواح من في المشرق والمغرب بعالم الأمر . فعالم الأمر حينما يخطر ببالك العرش تكون به وأنت في الأرض ومراي الإنسان وأحلامه أعظم دليل على ذلك ، ومتى صفا الإنسان وغلبت روحانيته على جسمه طويت له الأرض ومشى على الماء وركب الهواء وقام بالكرامات التي تشبه المعجزات التي يختص بها الأنبياء . والأمر الثاني

المستفاد من الآية هو اختلاف المسافة بين تلك الأمكنة طبق ما اكتشف في هذا العصر مما أسلفنا . والأمر الثالث اختلاف مدة الأيام في تلك الأفلاك التي لا يعلمها سواه ، بأن يكون في بعضها يوم كألف سنة ، ويوم كخمسين ألف سنة . وخلاصة القول أن في آيات الله من أنواع الإعجاز ما يكتشف على توالي السنين كما قال سيد المرسلين ﷺ : « وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وإنّ ما حدث الآن من تمكّن الغربيين بالطائرات والصواريخ وقطعهم المسافات البعيدة بأسرع من الريح قطعاً وأسرع من الصوت ، ومحاولتهم النزول على بعض الكواكب ووصولهم إلى القمر ثمّ لا يصدّقه أحد لو لم يكن أمراً واقعياً هو أعظم دليل على ما قلنا من تدبير الله وأمره من السماء إلى الأرض بما يقتضيه ألف سنة أو خمسين ألف سنة ليجتازه الإنسان ، فالله تعالى يدبّره بأقلّ من لمح البصر ، وما أمر عرش بلقيس إلا من هذا القبيل ، حيث كان على عظمه أتى به من عنده علّم من الكتاب قبل أن يرتدّ طرف العين من اليمن إلى بيت المقدس ، مما يدلّ على أن المسافة لا قيمة لها بأمر الله عزّ وجل ، وتوضيحها أن الإنسان إذا خطر بباله السموات السبع فهذا الخاطر هو سرعة الموكل بأمر الله تعالى متى خطر ببالك الشيء صار ، وخطوره بالبال عبارة عن عمل الروح والملائكة فبمجرد إرادة الإله الأمر يحصل كقولك « كُن » فكان ، فالخاطر كأنّه هو الروح وكأنّه هو الملك وهو الكون والوجود ، سبحان القادر على ما يشاء ربّ الأرض والسماء ، ومنزّه بكبريائه عن كل شيء .

البحث الخامس

قال تعالى في سورة المعارج [١ ، ٥] : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ واقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٤٧﴾ وقال تعالى في سورة الحج [٤٧] : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

وقال تعالى في سورة السجدة [٥] : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴾ . فاعلم أنه تقرر في دين الإسلام أن الله تعالى لا مكان له ولا زمان ، وهو ربُّ الزمان والمكان . وإنما الأمكنة التي تضاف إليه إنما تضاف إليه تعالى للتشريف ، لأنه شَرَّفَهَا فيقال بيثُ الله وبيثُ العِزة والبيثُ المعمور ، وكذلك في غيره ، يقال : عيسى من روح الله ، وكلمة الله . إذا تقرر ذلك فاعلم أن القرآن العظيم ومحمدًا ﷺ لم يخصَّ الله بهما بني آدم فقط ، إنما هما لسائر مخلوقات الله تعالى من الإنس والجن والدواب والهوام والملائكة وغير ذلك مما لا يعلمه أحد إلا الله ، وأن الملائكة تعرج إلى ربها ، أي إلى أمكنة ربها المشرفة في هذه السماوات والملكوت وإلى حيث شاء تعالى بأوامره التي يقضيها بين عباده لتدبير ملكه وملكوته كما قال : ﴿ فَالْمُدْبِرَاتُ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : ٦٤] . وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : ٤] وعلى ذلك سواء قلنا : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أو قلنا : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، فلا زمن ولا مكان ولا علو ولا سفل ، ولكن ما يضاف إلى الله فهو الشريف العالي وما يضاف لغيره تعالى فهو السافل النازل .

فإذا انتقل المخلوق من مكان إلى مكان ؛ فالمكان المشرف يقال : صعدت إليه ، وغيره نزلت وهبطت إليه ، وعلى ذلك فانتقال الملائكة من كوكب إلى كوكب بأمر الله سبحانه . فقد يكون البعد والمسافة بين واحد وواحد ألف سنة ، وبين واحد وآخر خمسين ألف سنة ، وليست المسافة واحدة بين جميع مخلوقات الله تعالى في هذه الكواكب المنتشرة في الفضاء . ولو حملنا « اليوم » على حقيقته التي نعرفها بأن يكون طوله ألف سنة أو خمسين ألف سنة لما استحال ذلك أيضاً لأن

الأيام الفلكية تطول وتقصّر حسب المواسم والفصول وحسب دورة الأرض حول كوكبها المنور وهو الشمس ، وقد ذكروا أن طول سنتنا نحو من ٣٦٥ يوماً ، وأن طول سنة المشتري هو اثنتا عشرة سنة ، وطول سنة زحل ٢٩ سنة فتكون أيامهما كذلك . فإذا كان طول يوم زحل شهراً من أشهرنا مثلاً فثمة من الكواكب ما طول نهاره سنة وألف سنة وخمسون ألف سنة ، بل في بعض مناطق الأرض من يكون طول نهارهم الشمسي نحواً من أربعة أشهر وخمسة أشهر كما في القطبين ، وهذا ما يعرفه عوام الناس فضلاً عن خواصهم .

هذا وقد أفاض سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه في فتوحاته بمواضع شتى عن المعارج المناسبة لهذه الآية ، نقتصر على شيء مما قاله في الباب السابع والثلاثمائة في معرفة منزل تنزل الملائكة عن الموقف الحمدي من الحضرة الموسوية قال : اعلم أيها الولي الحميم أن الله جعل من السماء إلى الأرض معارج على عدد الخلائق ، وما في السموات موضع إلا وهو معمور بملك يسبح الله ويذكره بما قد حُدَّ له من الذكر ، والله تعالى في الأرض من الملائكة مثل ذلك لا يصعدون إلى السماء أبداً ، وأهل السموات لا ينزلون إلى الأرض أبداً ، ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ﴾ [النور : ٤١] ، وأن الله تعالى أرواحاً من الملائكة الكرام مستخراً قد ولاهم الله تعالى وجعل بأيديهم جميع ما أوحى الله في السموات من الأمور التي قد شاء سبحانه أن يجريها في عالم العناصر ، وجعل سبحانه معارج الملائكة من الكرسي إلى السموات ينزلون بالأوامر الإلهية المخصوصة بأهل السموات وهي أمور فرقانية ، وجعل من العرش إلى الكرسي معارج لملائكة ينزلون إلى الكرسي بالكلمة الواحدة غير منقسمة إلى الكرسي ، فإذا وصلت الكلمة واحدة العين إلى الكرسي انفرت فرقاً على قدر ما أراد الرحمن أن يجري منها في عالم الخلق والأمر . وأطال في ذلك إلى أن قال رضي الله عنه في تمثيل ذلك : كالصوت الخارج من الصدر إلى خارج الفم عين واحدة لا يظهر

بديع صنع الله الذي أظهر سرّ هذه الآية ، وأردفها بقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومن هنا تعلم سرّ تسمية السُّور بالعنكبوت والنمل والبقرة والنحل إشارةً إلى نكتٍ دقيقة أشار لها سبحانه وأودعها كتابه ، ولم يكن أحدٌ يعلمها بتلك العصور ليناوئ القرآن العظيم على توالي السنين ، فيقرُّ مرغماً بصدق معجزة محمد ﷺ بما أتى به أنه من عند الله ، ولا يمكن أن يعلم هذه العلوم أحدٌ آنذاك حتى تتطرق شبهةٌ إلى أنه تعلّمها من أحد كما ادّعوا بغيرها فقالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] ، فأين البشر الذي يعلم هذا في تلك الأيام والأوقات ؟ فآمنت بالله وبكتبه وبرسله وبأنبيائه .

البحث السابع

قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر ٢١] .

هذه الآية من آيات الإعجاز التي لا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها في حين نزولها ، ولا يمكن لأيّ كان أن يتكلم بها بدون علم ولا روية ، وما هي إلا من وحي علام الغيوب ، وما يدري البشر أن الرياح تنقل أعضاء التذكير من النبات والأشجار إلى مكان يتعذر أو يتعسر لقاحها فيتزوج عالم النبات، والأشجار العاليات بما تسفيه الرياح وبما تقرّبه من رؤوس الأشجار لبعضها ، كما تشاهد في الحور والدُّلب والصِّفصاف والسَّرو وغيرها ، وبما يتطاير في الهواء . هذا فضلاً عما تفعله الرياح من جمع السحاب المذكر والمؤنث حتى يحصل التزاوج بينه ويتولّد المطر ، لأن السحاب غيرُ خارجٍ من قاعدة قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] ، وبنتيجة التزاوج يخرج الودق من خلاله ويحصل الرعد والبرق .

قال عبيد بن عمير : يبعث الله الريح المبشر فتقم الأرض قمًا ، ثم يبعث الميثرة فتشير السحاب ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركامًا ، ثم يبعث اللوآح فتلقح الشجر .

وقال أبو بكر بن عيَّاش : لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربعة فيه ؛ فالصبا تهيجه ، والشمال تجمععه ، والجنوب تُدرُّه ، والدُّبور تفرِّقه اهـ . قسطلاني على البخاري في سورة الحجر .

وهذا غاية ما وصل إليه علماء الفلك الحديثون ، وعلماء الحكمة الطبيعية الذين هم بمعزلٍ عن هذه الأسماء الواردة في بعض الآثار ، لكنهم قالوا : إنَّ الغيوم لا بدَّ من اجتماع المثلث والمنفيِّ فيها حتى يظهر منها عجائب السحاب ، فاستتروا عن كلمة التلقيح بالاجتماع ، وعن المذكر والمؤنث بالمثلث والمنفي ، لا أدباً عن ذكر ذلك ، بل إنكاراً لما ثبت في القرآن وتغييراً لأسلوب ما ورد في الكتاب العزيز بأجلِّ بيان ، ومتى اجتمعا تولَّد منهما البرق الذي هو عبارة عن النور الكهربائي المتولَّد من اجتماعهما ، ثم حصل الصوت الذي هو الرعد ، والصواعق التي هي النار المنبعثة من هذا التوالد ، ومن نتيجة التراكم يحصل الانعصار للسحاب الذي يحمل الأمطار فتهطل ، كما قال تعالى في سورة النور [٤٣] : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ ﴾ كما سنراه في الفصل الآتي بتفسير هذه الآية .

وأصرح من ذلك ما في سورة يس [٣٦] من قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن ما لا نعلم من خفايا مخلوقات الله أكثر مما نعلمه ، بل ما نجهله من خفايا أنفسنا أكثر مما نعلمه

أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] .

فعلّمنا بأنفسنا ما هو إلا علمٌ إجمالي ، وعلمُ الله تعالى تفصيلي لا يخفى عليه شيء . فإذا كُنّا نجهل ما في أنفسنا من خفايا حكم الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] فنحن بغيرنا أجهل كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

أما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرعد ما هو ؟ فقال : « ملك من الملائكة موكلٌ بالسحاب معه مخاريق من نار ، يسوقُ بها السحابَ حيث شاء الله » . فقالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : « زَجْرُهُ السحابَ حتى ينتهي حيث أمر » . قالوا : صدقت . [أخرجه الترمذي] فهذا إن صح لا يعارض ما قدّمناه من نظريات الطبيعيين ، لأن الملائكة أجسامٌ نورانيةٌ تتكيفُ بالصور التي يريدُها عز وجل ، والأشياء الروحية المعنوية لا يجوزُ تطبيقُها على العقول القاصرة ، ولا إنكارها كما أنكرها المعتزلة والحكماء ؛ فأحوال الآخرة والسؤال في القبر وفسحه مدٌّ بصير الميت إن كان صالحاً ، وعذابه إن كان طالحاً وصياحه بما لا يسمعه الثقلان ، ووسوسة الشيطان للإنسان ؛ كل ذلك أمرٌ شرعيٌ روحي لا ينطبق على العقل القاصر ، وليس علينا إلا تسليم ما ورد عن المشرّع الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

وحيث علمت أن التزاوج هو أساسُ التوافق ، وأنه متى حصل تولّد منهما الثمرة . فالثمرّة من اجتماع مذكّر الكهرباء مع مؤنثه هو الهواء البارد والحرّ والقوة التي تدفع القاطرات وتحرك العجلات ، وتدير المصانع والمعامل ، وهي الفائدة

المطرّدة في سائر مخلوقات الله عز وجل ، وسيأتي قريباً تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ [الرعد : ٣] .

ومعنى (يزجي) : يسوق ، ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجعل ألفاً بين مذكّره ومؤنّته ، ﴿ ثم يجعله رُكّاماً ﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر وهو ثمرة التزاوج والتراكم ﴿ يخرج من خلاله ﴾ من فتوقه - جمع خلل كجبال وجبل - ﴿ وينزل من السماء ﴾ كل ما علاك سماء ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ من للتبعية واللتان قبلها للابتداء ، وذلك أن الأبخرة إذا تصاعدت فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمعت وصارت سحباً ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً ، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برداً . وقد يبرد الهواء بما فيه من البخار برداً مُفرطاً فينقيض وينعقد بخاره سحباً وينزل منه المطر أو الثلج . ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ : ضوء برقه المتولد من التزاوج ، وهو الثمرة الثانية من التأليف ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ لشدة إضاءته ، مع أنها متولدة من شدة تراكم السحاب الذي هو نهاية في الظلمة ﴿ يقبّل الله الليل والنهار ﴾ أي الظلمة والنور يُعاقِبُ بينهما ، كما جعل ضوء البرق بعد ظلمة السحاب ﴿ إن في ذلك لَعبرةً لأولي الأبصار ﴾ الذين يعتبرون بتقلّب الأحوال على زوالها ، وقدرة مقلّبيها وعدم زواله سبحانه وتعالى .

وقد ذكر الشيخ طنطاوي جوهرى أنّ الثلج دائم في جميع أنحاء الدنيا ؛ غاية الأمر أنه يرتفع عند خطّ الاستواء ، وهو على الأرض عند القطبين ، ويأخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً ويكون بينهما بالنسبة لها ارتفاعاً وانخفاضاً .

ثم أيده بكلام العلامة الإنكليزي (روبرت براون) في كتاب له سَمَّاه « علوم للجميع » قال فيه : إن الثلج يظهر في أعلا الجو في كلّ مكان في الأرض ، وعند كلّ خطّ من خطوط العرض . غاية الأمر أن ذلك الثلج قد يذوب قبل نزوله إلى

الأرض ، إذ يقابل الطبقات المنخفضة الحارّة فهذه الحرارة تذيبه . إذا ما من بقعة في الأرض إلا وفوقها ثلج ، فمنه ما ينزل إذا لم تقابله الحرارة في الأماكن المنخفضة ومنه ما لا ينزل . اهـ .

ثم قال الشيخ طنطاوي : قد قدّمت لك أن العقول لا تقبل أن يكون في السماء جبال ، وأزيدك على ذلك أي حينما كنت أقرأ هذه الآيات أقول هل الجبال جعلت مجازاً عن السحاب ؟ أما الآن فقد ظهر أن جبال الثلج دأمة في الجو ، ولكن العجيب أن يقول ﴿ فيها من بَرَد ﴾ ، فلم يقل جبلاً من البرد ، لأن الحقيقة أن الجبال المتقدمة من الثلج لا من البرد ، والبرد كما تقدّم داخل في الثلج كما شرحه العلماء وأوضحه العالم السالف الذكر في الظواهر الطبيعية فيما تقدم آنفاً .

إذا قوله تعالى : ﴿ فيها من بَرَد ﴾ لم يتضح إلا في هذا العصر ، لأن جبال الثلج إنما يكون البرد محوّلًا عن بعضها لا كلّها. إذا ذكر ﴿ من ﴾ في الآية قد ظهر سرّه الآن .

وقد أيد الشيخ طنطاوي كلامه بكلام طويل عن علماء الهيئة .

وعن سيدي عبد العزيز الدبّاغ أنه سأله الشيخ أحمد بن المبارك من رجال القرن الثاني عشر الهجري : هل في السماء جبال من برد كما قاله بعض المفسرين ؟ أجاب : ليس فيها ذلك . ثم ذكر خاصلاً عن كتاب العلامة روبرت براون قال : إذا يكون الأمر دأراً بين هذه الأحوال مطر جمد فصار ثلجاً . مطر جمد فصار جليداً . والجليد اجتمع فصار برداً متجانساً الأجزاء الداخلية فيه . ثلج تكون ثم ذاب ، ثم برد ثانياً قبل تمام ذوبانه فصار برداً . هذا ملخص ما جاء في كتاب « علوم للجميع » . اهـ .

وذكر في تفسير سورة الأعراف مقادير ارتفاع الطبقة الجليدية عن وجه

الأرض ؛ فإنها عند خط الاستواء وما جاوره من مبدأ العرض الشمالي نحو ثلاثة عشر ألف متر ، ولا زالت تقرب من سطح الأرض شمالاً وجنوباً حتى القطبين ، حيث يكون الثلج جبالاً فوق الأرض عندهما .

وانظر إلى قوله تعالى في سورة الأنعام [٦٥] : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

فإن من دقق النظر في هذه الآية الكريمة يقشعر جلدُه ، وتستولي عليه رهبة التهديد وعظمة القادر الذي تحقق سائر ما أخبر به على صور وأشكال يوقعها تعالى بمن يقدر عليهم ذلك ، فالعذاب من فوق يتحقق بصور ؛ منها الطائرات القاذفات للحُمم ، ومنها الأرواح الغازية الخائفة ، ومنها ما لا نعلمه من قاذفات الكواكب التي ترمي الأرض بالحجارة . وأما من تحت أرجلنا بالخشوفات التي نسمعها كل يوم في أنحاء الدنيا ، وبالألغام المتفجرة التي يدبرها البشر بعضهم لبعض ، وبالقنابل التي يفجرونها في البحار التي فُجرت واحدة منها في هيروشيا فجعلتها قاعاً صافصفاً . وأكد جميع ذلك الحديث الموضح لأمثال هذه الأمور ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لَيَبِيتَنَّ أَنْاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشْرٍ وَبَطَرٍ وَهُوَ وَلَعِبٌ ، فيصبحون وقد مُسَخُوا قردةً وخنازيرَ ، وليرسلنَّ عليهم حجارة من السماء ، كما أرسلت على قومٍ لوطٍ على قبائلٍ لهُوا بشريهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم » .

البحث الثامن

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

[الشعراء : ٧] .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠] .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾

[الزخرف : ١٢] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦] .

فصراحة هذه الآيات الكريمة تنادي بأن الله تعالى خلق من كل شيء زوجين ، فما هذه الأزواج ؟ وما حكمتهما ؟

فاعلم أنه تقدّم شيء عن هذا البحث والآن نزيده أيضاً فنقول : من المعلوم أن أساس العمران هو الاتفاق والاتحاد والائتلاف ، وأساسُ الخراب والدمار هو التنافر والاختلاف والافتراق ، ومتى وُجد الحبُّ بين الشيئين حصل الوفاق وأخواه ، وزال التنافر وأخواه ، لأنَّ عينَ الرِّضَا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلَةٌ .

فجعل الله هذا الكون مؤلفاً من زوجين ليكونا على ما ألهما له من إعمار الكونين ، وجعل ذلك عامّاً في جميع مخلوقاته الدنيوية ، لأنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرة ، أما الفرقُ بين محبتنا ومحبه تعالى ، فهو أنَّ محبته تعالى الإرادة كما في « الرسالة القشيرية » ، إرادته تعالى لإنعامٍ مخصوص هو الرحمة ، وإرادته كأن يخصّه بالقرب والأحوال العليّة ، كما محبته وإرادته سبحانه وتعالى صفة واحدة ؛ فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أَسْمَاؤُهَا ، فإذا تعلقت بالعقوبة تُسَمَّى غضباً ، وإذا تعلّقت بعموم النِّعم تُسَمَّى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة .

وقوم قالوا : محبة الله للعبد مدحُه وثناؤه عليه بجميل ، فيعود معنى محبته على هذا القول إلى كلامه تعالى ، وكلامه قديم ، وتمامه في « الرسالة القشيرية » في باب المحبة .

وأما محبة الخالق فقال في « الرسالة القشيرية » : وإلا ما هو المعقول من صفة

محبة الخالق ؟ كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء ، والسكون إليه ، وتعلق القلب به ، كحالة يجدها المُحِبُّ بقلبه مع محبوبه من المخلوقين ، فالقديم سبحانه يتعالى عن ذلك ، وأما محبة العبد لله فحالة يجدها بقلبه تلتطف عن العبارة . اهـ .

قال الألوسي في تفسير سورة الرعد [٣] تحت قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ آتَيْنِ ﴾ . أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا زوجين وصنفين . إما في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفية كالحر والبارد وما أشبه ذلك .

وقيل المعنى : خَلَقَ في الأرض من جميع أنواع الثمرات زَوْجَيْنِ زوجين ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتَوَعَّتْ ؛ وتعقب أنه دعوى بلا دليل ، مع أن الظاهر خلافه ، فإنَّ النوع الناطق المحتاج إلى زوجين خلق ذكره أولاً ، فكيف في الثمرات ؟ وتكوُّن واحد من كلٍّ أولاً كَافٍ في التكوُّن . والوجه ما ذكر أولاً . اهـ .

فالآيات المتشابهة بهذا المعنى في القرآن صريحة في الوجه الثاني كما هي صريحة في الوجه الأول ولا تدافع بينهما ، لأن إيجاد الله تعالى أحدهما قبل الآخر لا ينافي توقُّف التكاثر على إيجاد الآخر لاستكمال الحكمة ثم التزاوج كما يُحمل على المعنى الحقيقي يُحمل على المعنى الاعتباري أيضاً .

فأحدهما إشارة والآخر عبارة ، وإنَّ من وجوه إعجاز القرآن احتمالاه لمعان شتى ، يأخذ السامع منها ما أحب ؛ فالاعتباري كالأبيض والأسود ، والحلو والحامض . والحقيقي ما كان حاوياً لعضو التذكير والتأنيث كما ثبت عند علماء النبات أنه لا بدَّ من تلقيح النباتات كلها مذكراً لمؤنثها ، وقد

يكون شيءٌ منها مذكراً ومؤنثاً بوقتٍ واحد . ولما يتباعد بعضه عن بعض يجعلُ الله له الرياحَ لواقحَ ، حتى لو أن بعضَ النباتاتِ المذكرة كانت بعيدةً عن مؤنثها ، بحيث لا يتصلان فلا يمكن أن تحمل الأنثى قط ، وهذا من الأسباب التي تجعل الشجرة الغريبة لا تحمل في مكان غربتها لاحتمال كونها مذكراً لا تحمل أو أنثى لم تتلقح .

قال طنطاوي جوهري في تفسير هذه الآية : جعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى في أزهارها عند تكوُّنِها ، فقد أظهر الكشفُ الحديث أنَّ كلَّ شجرةٍ زرع لا يتولَّد ثمره وحبه إلا من بين اثنين ذكرٍ وأنثى ؛ فعُضْوُ الذكر قد يكون مع عضو الأنثى في شجرةٍ واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضوُ الذكر في شجرةٍ والآخر في شجرةٍ أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه في شجرةٍ واحدة إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة ، وإما أن يكون كلُّ منهما في زهرةٍ واحدة ، والثاني كالقرع والأول كشجر القطن ، فإنَّ عضو التذكير مع عضو التأنيث في زهرةٍ واحدة ، وسيأتي تفصيلُ هذا المقام في سورة الحجر .

والتفصيل الذي ذكره علماء النبات أنَّ بعضَ النباتات فيها الطَّلَع وبعضها يقبله ؛ فمثلُ النخل فيه ذكورٌ وإناث ، وطلَعُ الأول يلقِّح الثاني ، ومثل الورد والرُّمان بواسطة الحشرات التي جعل الله غذاءها وعسلها الذي تجنيه منها ، فيعلق بأرجل الحشرات وظهريها وجناحيها من طَلَع المذكَر ما يكفي لتلقيح الأنثى ، فنرى الزهرة لها غلافٌ من ورقٍ أخضر يسمى الكأس ، وداخل الغلاف الزهر المسمَّى بالتَّويج ، ملوَّن بألوانٍ جميلة ، وداخل التَّويج سوق (جمع ساق) كالفصن تحمل الطلع ، وقد يكون بعض الزهور لا كأس له ، إنما هو تويج فقط كزهر الليمون والحوامض ، وحتى أن نور الكهرباء الشائع في أيامنا إذا لم يتصل مذكَّره بمؤنثه لا يتولَّد منه النور ، ولا قوة التحريك

ولا الحرارة ولا البرودة بمختلف الآلات المعدة لذلك ، وحتى السحاب المسحّر بين السماء والأرض إذا لم يتصلّ مذكره بمؤنثه لا يحصل البرق ولا الرعد ولا الصواعق ، وغير ذلك مما لا يحصى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] . ولولا أن فيها حكمة عظيمة وآية باهرة لما أشار الله تعالى لها بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦] .

ويشير إلى ذلك ما كان يقوله ﷺ إذا هاجت الرياح : كما في « النهاية » لابن الأثير في مادة الرء والواو : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » (١) . العرب تقول : لا تلقح الرياح السحاب إلا من رياح مختلفة ، يريد : اجعلها لقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً ، ويحقق ذلك مجيء الجمع في آيات الرحمة ، والواحد في قصص العذاب كالريح العقيم وريحاً صرصراً . اهـ ما في النهاية .

ولعمري إن إشارة الرسول الأعظم ﷺ كافية لما يعتقده أهل العلم من العرب الموصوفين بالجاهلية ، فإنهم يعلمون تلقيح السحاب بعضه بعضاً ، حتى يتولد منه الخير ، وأما إذا كانت ريحاً فقط غير ملقحة من أخرى مثلها فتكون عقيماً وعذاباً أليماً ، وما وصف العرب بالجاهلية إلا لأنهم بعيدون عن علم الدين والإلهيات ، ولكن كانوا كأهل هذا الزمن الذين هم أولى بهذا الاسم لتشيت عقائدهم وإقبالهم على علم الحياة الدنيا فقط .

ومن حكمة الإله اختلاف ألوان الزهور حسب ائتلاف الحشرات الناقلة للطلع لتلك الألوان . بل من الزهور ما يذبّل في أوقات معينة ليناسب الحشرات التي تنتشر في تلك الأوقات ، ولعلنا نتعدّى حشرة على طعام حشرة أخرى

(١) رواه الشافعي رحمه الله في كتابه « الأم » بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما .

فتحرّمها رزقها ، وكلّ ذلك لحكم لا تجري بدون قُدرة قادر حكيم .

البحث التاسع

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

من المعلوم أن المائيات عندما تجمدُ يصغرُ حجمُها ويزدادُ ثقلها ، وعلى ذلك تهبطُ إلى قعرِ الإناء ، كما لو أذبنا شيئاً من السَّمْنِ وبقي منه كتلةٌ لم تذُبْ فإنها تهبطُ للأسفل لزيادة ثقلها ، ويُستثنى من هذه القاعدة الماء فإنه متى جمد كبر حجمه وخفّ ثقله . ولذلك كلما جمد الماء طفا على الوجه كما يشاهد في الثلج ومياه البحار المبتنى على ذلك حياة الأسماك وحيوانات الماء ، ولو كان بالعكس لمات كلُّ شيء في البحر ، وينشأ عن كبر حجمه تشقُّقُ أنابيبِ المياه الحديدية متى جمد الماء داخلها ، وتشقُّقُ أغصان الأشجار الدقيقة الذي يسببُ يُيسِّها أحياناً كثيرة ، وهو ما يسمونه حادث الصقيع ، وعلى ذلك إذا جمدت رطوبة الأحجار في الجبال داخل الأحجار فترى حينئذ تشقُّقها وتفتُّتها سريعاً كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ [البقرة : ٧٤] أي الجامد داخلها ويتجمعه كثيراً تنفجر ينابيع الأنهار ، فسبحان من أودع هذه الحكمة العجيبة بكلمتين من كتابه الكريم ، وهدى إليها من شاء من عباده . ولا شك أنه ينشأ عن تشققها وتفتتها هبوطها ؛ فإما بسبب مشاهد وإما بمحض الخشية الإلهية تعالى الله وتبارك .

البحث العاشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام [١٢٥] :

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .

فقال المفسرون : كأنه كلف أن يصعد إلى السماء ، أو أنه يتكبر كأنه يصعد في السماء ، وقيل : كناية عن المشقة ، والذي يوافق قوانين الحكمة أن مادة الأوكسجين الموجودة في الهواء الصالحة للتنفس إنما توجد في الطبقة الهوائية القريبة من الأرض لأنها لا تتولد إلا من المخلوقات الأرضية ، ولا توجد في الطبقات العلوية إلا قليلاً ، ولذلك فإن سكنى الجبال يورث اللون الأحمر في الوجه ، وفيما يبدو للهواء من أعضاء الإنسان لكثرة هجرة الكريات الحمراء الدموية إلى ظاهر الجسد التي تحمل له الأوكسجين بمقتضى الغريزة الإلهية فيها ؛ فبالنظر لقلّة الأوكسجين في المحلّات العالية تكثر الكريات الحمر في ظاهر الجسد لتوازن الاحتياج ، ولذلك ترى الأطباء يمنعون ذوي الأمراض القلبية عن سكن المحلّات المرتفعة لإتعاها القلب ، ولأن تنفس الأوكسجين لا يتيسر للإنسان بالقدر الكافي ، فيقتضي انهماك القلب في عمله ليؤمن احتياج الجسم . وأيضاً كل من يصعد في الطيارات فإنهم يحتاجون لتعيين درجة ضغط دمهم بسبب خفة الهواء التي تجعل الدم ينفذ من منافذ الجسم الرقيقة ، فيجبرون على تقنيع رؤوسهم وآذانهم لقوة دفع القلب للدم في عروقه ؛ فإذا رقق الهواء وخفّ انفجر الدم من منافذه الرقيقة ، مما يدلّ كل ذلك على أن الصعود في السماء يوجبُ خلافاً في الحياة ، خاصة الحرج الذي يكون في الصدر من ضيق التنفّس العظيم ، واختلاف نسبة الضغط بين الهواء وقوة القلب ولخفاء هذه الحقائق على كثير من البشر في العصور التي لم

تكتشفها ضمَّنهما الله كتابه ، ليريهم أنه لو كان من عند غير الله لما نظر إلى هذه الحقائق التي ستكتشف . وتوجد الآيات صريحة الدلالة عليها في حين أن من لا يفهمها يحتاج لتأويلها بما يراه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والشيخ طنطاوي جوهري على ضخامة تفسيره لم يتعرض لهذا المعنى ، ولا لتفسير هذه الآية بما يوافق الحكمة الطبيعية التي برع فيها في تفسيره رحمه الله . على أن الثابت عند الأطباء ثبوتاً لا مِرْيَةً فيه أن الصعود في الارتفاع يسبب مرض الجبال الذي أوصافه قريبة مما ذكرنا ، وفوقها بأعراض أخرى .

ومثل هذا الحكم ، الآية الأخرى التي في سورة مريم وهي قوله تعالى : ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجْعَدُ النَّحْلُ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] فَإِنَّ إشارة هذه الآية للحكمة الطبية هي أن المادة السُّكَّرِيَّة التي في الرُّطْب غنيَّة ، مما يسهل الوضع على الحامل باتفاق الأطباء ، حتى إن من توصيهم إعطاء الولادة في أثناء مخاض الولادة شيئاً من الحلو ليسهل عليها الوضع ، فوالله إن ما خفي عنَّا من إشارات هذا الكتاب العزيز هو أكثر بما لا يقدر مما فهمناه منه ومن علومه الخفية الظاهرة .

البحث الحادي عشر

قال تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ . [آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُودُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا عَيْنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : ٣٨ — ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَيُْمِسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٤١] .

مجموع هذه الآيات المناسبة تنادي بعظمة الله الذي تخضع الرؤوس لجلال كبريائه ، وتنادي من أعْمى الضلال أبصارهم وأفقدتهم عن رؤية الحق أن يتدبروا ويؤمنوا بقوانين الخالق وقدرته تعالى ، إذ إن العلماء توغلوا في معرفة النواميس التي تستلزم هذه الحركات ، واخترعوا من أجل ذلك أدق الآلات وأكملها لمعرفة تماسك هذه الأجرام الكبيرة وتمركزها في مجاريها بدون شذوذ ؛ فلم يتوقفوا حتى الآن لإظهار حركات مستديمة ومنتظمة كحركة الأفلاك بقوانين جاذبياتها ، بل لم يتوصلوا لمعرفة القوة الدافعة لكرة الشمس وما مائلها من الكواكب العظيمة من الحضيض إلى الأعلى وبالعكس . ولو علموا تلك القوة الكافية وأمكنهم استخدامها لأفادهم ذلك في تدليل الوسائط

الميكانيكية التي تضيّع كثيرًا من الأوقات مع كثرة النفقات والمخصصات لإعدادها .

قال الفيلسوف نيوتن الذي هو أكبر علماء الإنكليز بالفلك في عصره وهو مكتشف قانون الجاذبية العامة المولود بسنة ١٦٤٢ والمتوفى سنة ١٧٢٥ حين سُئل دليلاً بدرجة المحسوس عن وجود الخالق جلّ وعلا فقال : من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ، لأنّ هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يدٌ إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها . ثم قال : ومن الجليّ الواضح أنه لا يوجد سببٌ طبيعيّ استطاع أن يوجّه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في جهةٍ واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أي تغيير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدلّ على وجود حكمةٍ سيطرت عليه .

ومن قوانين هذا العالم القصور الذاتي للأجسام الذي يستنتج منه أن الجسم يجب أن تكون حركته منتظمة ومستقيمة ، وأنه لا بد لانحرافها من قوة توجب هذا الانحراف والآية صريحة في ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٥] فإن التسخير فيه معنى القهر والجبر . بل أصرح منها قوله تعالى :

﴿ وَيُمَسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] فإنها صريحةٌ في أن هذا الجسم الثقيل الذي يمشي بحركته إلى الأسفل يجب أن يبقى مشابراً عليها حتى يجد له مستقراً . فما الذي يقطع عليه هذا الطريق ويدفعه إلى الأعلى بحيث لا يصطدم بغيره من الأجسام التي لا تحصي كثرة وعدداً؟! فهذه الآيات وأمثالها من معجزات القرآن العظيم التي يتحدّى بها

البشر أن يضاهاوا ذلك الخلق وتلك النواميس إن استطاعوا .

ومع ذلك فهم عاجزون عن فهم تمام حقيقتها فضلاً عن مضاهاتها مع أن قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان : ١٠] ينادي ببناء ذلك على أسس وقواعد بحيث إذا اختلت فسد النظام ، وهلك الأنام . ولكن مبدئ هذه القوى ومبدع نظامها هي يد القدرة الإلهية التي يعجز عنها كلُّ أحدٍ سوى الخالق جلَّ وعزَّ كما قال : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي صدور هذه القوى الكامنة في مخلوقاته تعالى . ومن جملة القوى الكامنة الجذبُ المركزيُّ الكامنُ في الأرض ، الذي بسببه تماسكت أجزاؤها ؛ فهو متناسب طردًا مع جسامتها ، وعكسًا مع مربّع المسافة بينها وبين المركز ، بحيث يشتدُّ كلما قرب الجسم المجذوب إلى المركز ويخفّ كلما بعد .

ومن جملة الخواصُّ الكامنة خاصة الدفع عن المركز بقوى تتناسب طردًا مع سرعة دورانها حول محورها ، ومثال ذلك قطع الطين التي تتطاير من سطوح دواليب العجلات حيث تكون شدة انقلابها بقدر سرعة دورانها ، فهاتان الخاصّتان متضادتان لم تقمّ على وجودهما براهين قطعية عملية بحيث يمكن لمس تلك الخواصّ وتهيئة أمثالها ليستفاد منها .

إنما هي فرضية بحثة يستدلُّ عليها بنتائجها ليستنتج من ذلك أن وزن الأجسام في جهة الأقطاب غيره وأقل منه في خط الاستواء لأن الأرض ليست كروية الشكل تمامًا ، بل منبسطة عند القطبين تقريباً ومتفخمة عند خط الاستواء . فبُعد القطبين عن المركز أقلُّ منه عند خط الاستواء . فيستنتج من هذه النتيجة أن وزن الأجسام يختلف باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً ، وهذا دليل آخر يدلُّ على كروية الأرض .

ويُستنتج مما تقدّم أيضاً أنه لو كانت سرعة دورانها أعظم ممّا هي عليه الآن

بسبع عشرة مرة لتعادل قوة الدفع مع قوة الجذب ، ولأصبح وزن الأجسام صفراً .

وإنه لو لم تكن الأرض بهذه النسب لما أمكن المعاش عليها ، ولما حافظت على وضعيتها الراهنة التي أهلتها لمعيشة البشر عليها . قال الله تعالى :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد :

٨ - ٩] .

البحث الثاني عشر

قال تعالى في سورة الأنبياء :

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ

الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥ - ٧] .

ذكر المفسرون في تفسير الآية أن الإنسان لكثرة عجلته في الأمور كأنه خلق من العجل ، بدليل الآية التي بعدها : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ولكن لا يمنع هذا احتمال تفسير آخر بطريق العبارة أو الإشارة ، فإن أصل خلقته على الحقيقة من عجل ، وإن الله تعالى سيرينا آياته بما يهدينا له من العلم ، فلا تستعجلوا الشيء قبل أوانه أيها المخاطبون . وقد ورد أن الله أعطى نبيه ﷺ علوماً شتى ، منها ما أمره بكتمانها وعدم إظهارها ، وهو ما لا يتوقف عليه حاجات البشر ولا تحتمله عقولهم كمسألة الروح ومتشابهات القرآن .

ومنها ما أعطاها للخواص من أصحابه ، فكان يخص أحداً منهم بأشياء لا يعطيها إلى غيره ، وقد أخرج البخاري عن طريق سعيد المقبري عن

أبي هريرة قال : حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَاءَيْنِ : فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَشْتُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَشْتُهُ لَقُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ . وَعِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقِيلَ لَهُ : أَكْثَرْتَ . فَقَالَ : لَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِمَا سَمِعْتُ لَرَمَيْتُمُونِي بِالْقَشْعِ . أَيِ الْجُلُودِ .

ومنها ما أمر بتبليغه وعدم كتمانها ، وهو ما أظهره لأُمته ﷺ من الشرائع . ومما تحتمله هذه الآية أَنَّ خِلْقَةَ الْإِنْسَانِ حَقِيقَةٌ هِيَ مِنْ عَجَلٍ ، فَسُرْعَةُ الْمَنِيِّ حِينَ تَكُونُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَظْفَتِهِ ، وَخُرُوجُهَا مِنْ مَقَرِّهَا إِلَى رَأْسِ الذِّكْرِ كَسُرْعَةِ الطَّرْفِ ، وَلَازِدُكَرُّ لَكَ الْمَسَافَةُ الَّتِي يَقْطَعُهَا حَتَّى تَعْلَمَ سِرَّ الْعَجَلِ حَسْبَمَا قَالَ عُلَمَاءُ التَّشْرِيحِ .

إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخِصْيَةَ وَتَوَابِعَهَا تُفَرِّزُ الْمَنِيَّ وَتَحْضُرُهُ ، وَالَّذِي يَأْخُذُ بِقَسْطِهِ الْوَافِرُ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ هُوَ اللَّحَافَةُ الْبَيْضَاءُ (أَحَدُ أَقْسَامِ الْخِصْيَةِ النَّسِيجِي) وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ غِشَاءٍ لَيْفِي يَسْتُرُ الْخِصْيَةَ وَالْبَرْبَخَ ، وَتَسْمَى الْبُوجِينَةُ albugia وهي تحتوي على القنوات المولدة للمني قانوبروكتور : Canax Prodict. وحافة هذه اللحافة العلوية ثخينة يقال لها جسم هغمور : Corpl Higmor ويحتوي هذا الجسم على قنوات ناقلة للمني تسمى شبكة هالليز ه دوهالزر Rese du heller ، ولما تجتمع هذه القنوات تؤلف قناة واحدة يقال لها القناة المستقيمة قناة ليكول دروا Conlical Deroit فالقناة المفرغة للمني عبارة عن مجموع القنوات المستقيمة وشبكة هالزر والمخروطات الموصلة والقناة البربخية ، وكلها لا تذكر من حيث الطول والمسافة ما عدا القناة البربخية التي هي عبارة عن القناة الجامعة للمخاريط الموصلة وطول كل مخروط ١٠ - ١٥ مليمترًا ، وهو منشَر على بعضه بحيث لو مد لبلغ ١٠ - ١٥ سنتمترًا ، ويمتدُّ على طولِ الْبَرْبَخِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِقَنَاةٍ تَسْمَى الْقَنَاةُ نَاقِلَةُ الْمَنِيِّ وَطُولُهَا ٥/ سنتمترات وهي منشية على نفسها ،

وإذا مُدَّتْ يصبحُ طولها ٦ — ٧ أمتار ، وتتصل هذه بالحويصل المنوي الذي هو كالحويصل الصفراوي للكبد ، والمثانة للكلوة ، وهو مزدوج ، واحد في الأيمن وآخر في الأيسر وطوله ٥ — ٦ سنتمترات منشئ على بعضه وإذا مُدَّ بلغ ١٠ — ١٢ سنتمترًا ومنه تنشأ القناة الدافقة وطولها ٢٠ — ٢٥ ميلمترًا وتنتهي في القناة الإحليلية التي في القضيب عند البروتستات ، وطول القضيب حالة الارتخاء ١٥ — ١٦ سنتمترًا وفي حالة النعوظ ٢٠ — ٢٥ سم وعليه فيبلغ طول الجميع نحو (٨) أمتار يقطعها المنى بأقل من ثانية .

أما الخصية فإنها تعدُّ النطفة الأساسية خاصة سيرماتوزويد حيث يكون وحده منفردًا في البربخ والقنوات الناقلة ، ويفرز الحويصلان المنويان أجزاء كلسية ومواد عضوية ، وكذا الغدة البروستاتية تفرز مائعًا ينحدر المنى لخميرة في مفرزاتها تسمى الحويصلين .

وأما إفراز غدتي قوبر — فهو المذي وهو مع إفراز غدة ليترو البروستات يمددان قوام المنى ويسهلان انزلاقه وخروجه ، وإفراز غدد ليتري يشبه إفراز غدتي قوبر . ولذا فإن من تستأصل بروستاته لا يرى هذا المائع العظيم الذي يطلق الناس عليه اسم المنى .

أما احتفاظ الحويصلين المنويين بالمنى مدة طويلة فهو غير صحيح ، ولم يعلم كمية المنى المفرز تمامًا ، لكن الدفقة الواحدة تتراوح بين ٨ — ١٢ غرامًا .

فهذا قليلٌ من كثير مما ذكره الأطباء ذكرناه مختصرًا مفيداً . أما ذكر الترائب في الآية — وهي عظام صدر المرأة — فهو إلماع إلى مالها من الداخل في توليد شهوتها عند مساس الرجل لثديها فإنها من أعضاء النعوظ .

وأما المنى نفسه فهو خلاصة المواد النافعة في جسم البشر ، ويسبب

ملازمة الثدين في إثارة إفراز منيها . فإسناد الخروج إلى الترائب من إسناد الشيء إلى سببه هذا ماأردت إدلاءه مختصراً بحيث يتيسر فهمه لكل مطالع وقارئ . والله أعلم بأسرار كتابه .

البحث الثالث عشر

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩-٢١] المَرَجُ معناه الإرسال أو الخلط أي أرسلهما أو خلطهما . قال في « القاموس » وشرحه ومن المجاز المَرَجُ الخلط ، ومنه قوله تعالى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ العذب والملح خلطهما حتى التقيا . ومعنى لا يبغيان أي لا يبغي الملح على العذب فيختلط ، وهذا قول الزجاج . وقال الفراء : يقول : أرسلهما ثم يلتقيان بعد . قال : ومَرَجُ الأمر كفرح فهو مارج ومَرِجُ التبس واختلط . وفي التنزيل في ﴿ أَمْرٌ مَرِيجٌ ﴾ مختلط مجاز ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ مجاز ، قيل معناه الخلط ، وقيل معناه الشعلة ، وتامه هناك . وأما البرزخ فمعناه الحاجز ، فلذا سُمِّيَ ما بعد الموت بَرْزَخًا لأنه بين الدنيا والآخرة .

وأما آلاء فهي النعم ، مفردها إلى كمعى أو ألى كعصاً أو إلى كجمل أو ألى كأضل .

أما تفسير الآية مما يظهر لي بدون قطع ، مع تسليم المراد إلى الله : أن المراد بهما البحر الأحمر والخليج العربي ، حيث خلطهما الله تعالى هناك بالبحر المحيط الهندي وخلصهما من خليج عُمان ، ثم امتداد المحيط إلى خليج عدن حيث أحيطت الجزيرة بذلك ، وكانت بَرْزَخًا حاجزًا بين الخليج العربي والبحر الأحمر بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر بل يبقى كلُّ منهما محافظاً على خواصه التي أودعها الله فيه ، حيث يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ؛ فاللؤلؤ من خليج العرب ،

والمرجان الأحمر من البحر الأحمر ، وهو مثل اللؤلؤ إلا أنه أحمر ، فلذا سمي البحر الأحمر . قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : ٥٣]
فالعذب الفرات في خليج العرب وشط العرب حيث تتلاطم أمواج الدُّجَلَةِ والفرات هناك ، والملح الأجاج اتصاله مع المحيط الهندي المتفرع منه البحر الأحمر الذي قال الله تعالى فيهما : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] هو جزيرة العرب ﴿ وَجَعَزًا مَحْجُورًا ﴾ مانعًا يمنع أحدهما من الاتصال بالآخر . ثم قال تعالى في سورة فاطر مشيرًا إلى حكمة أخرى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [فاطر : ١٢] أي أن هذا السمك المخلوق الحي يعيش بهما على السواء مع أن أحدهما لا يمكن استيساعه ولا يُنبَت الأشجار ولا النبات الأرضي ، والآخر عليه حياة كل مخلوق حيٍّ ، ومع ذلك يعيش فيه الحيوان بقدرة الله تعالى ، ومن كليهما يُستخرج ما يتحلَّى ويتجملُّ به الإنسان وما هو أنفُسُ من الذهب حيث قال : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : ١٢] وهو اللؤلؤ والمرجان .

وقد تشير آية الرحمن إلى معنى آخر واضح كلِّ الوضوح هو أن الله تعالى خلطَ ومَرَجَ كلَّ بحرَيْنِ متجاورَيْنِ بموج كالجبال ، ومع ذلك يبقى كلُّ بحرٍ على خواصِّه التي ميَّزَهُ الله بها بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر ولا يغيِّر تركيبه ولا ميزاته الكيماوية العجيبة ، كقِطْع الأرض المتجاورات التي تتميز بخواصِّها في إنبات نباتات لا تنبُت بغيرها ، وحيوانات لا توجد في غير أهلها ، وكذلك البحور مع شدة اختلاطها وتلاطم أمواجهما بين كلِّ بحرٍ وبحرٍ برزخٌ حاجزٌ من قدرة الله تعالى التي تمنع أحدهما أن يبغي على الآخر ويغيِّر خواصه وأوصافه ، حيث يوجد في كلِّ بحرٍ أسماكٌ وحيواناتٌ لا تعيش بغيره ، ونباتات في قعر كلِّ بحرٍ لا تنبت في غيره ؛ فاللؤلؤ لا يوجد في البحر الأحمر ، والمرجان لا يوجد في شط

العرب ، وحتوت زيت السمك لا يوجد في البحر الأسود والأبيض ، وإنما هو في بحار بلاد السويد . وهكذا يختلف التركيب الكيماوي في كلِّ بحر عن تركيب الآخر بأملاحه التي يحويها مع شدة تلاطم أمواج البحار التي تمنع قدرة الله تعالى بغني بعضها على بعض ، وتبقى متمايزة أكثر من تمايز قطع الأرض الثابتة المتجاورة ؛ فإنَّ قطع الأرض المتجاورة يمكن ليد البشر أن يغير شيئاً من خواصها فتنتقل بعض نباتات قطعة لأخرى ، ويعيش سكان كلِّ منطقة في أخرى . ولكن في البحار لا يمكن هجرة حيوانٍ من مكان لآخر ، ولا تنتقل خواصه لآخر ، وهذا أمرٌ عجيبٌ وسرٌّ من أسرار القدرة غريب يتجلى بقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۖ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا ۚ جَعَلَ مَا تُلْقُونَ بِالنَّاسِ كَالْفُتَّةِ ۚ ﴾ [النمل :

٦١] .

على أنه لا يمكن قَصْرُ معنى الآية على ما ذكرنا حيث تنطبق هذه الأوصاف التي ذكرها الله سبحانه من جعل البرزخ الحاجز بين البحرين ومن وجود الماء العذب الفرات والماء المالح الأجاج في غير ما ذكرنا وهي القطعة الخامسة المنسوب اكتشافها لكريستوف كولومب حيث يوجد هناك بحور مياه أجاج ومياه عذبة متجاورة ، وذلك في كندا الشمالية أكثر من غيرها ، ويزداد ذلك بما يهطل من الثلوج والبرَد الخالي من الملوحة كلَّ عام وتتكون منه البحيرات والبحور الصغيرة والأنهار العظام ، وحينئذ تأتي الآيات التي تدلُّ على وجود هذه القطعة من الدنيا وتنادى بوجودها صراحة بنفس سورة الرحمن حيث قال تعالى :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن :

١٧ - ١٨] أي مشرق النصف المعلوم من الكرة ومشرق النصف المزعوم جهالته ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات : ٥] فله تأويل آخر لتعدد الكواكب التي لا يعلم عددها إلا الله ، ولكل منها مشرق ومغرب فالله سبحانه ربَّ الجميع .

ومن الآيات الدالة على القطعة الخامسة من الدنيا قوله تعالى في سورة الكهف

[٨٦ — ٨٨] بقصة ذي القرنين :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا القرنينِ إِمَّا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخَذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال تعالى ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ﴾ [٨٩] أي بعد أن بلغ أقصى المغرب لم يزل يسير ولم يرجع بل قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ [٩٠] وهو أقصى المشرق ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [٩٠] إشارة لحالة البدواة الذين لا يعرفون الحضارة وليس لهم ما يقيهم حرّ الشمس قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ﴾ [٩١—٩٢] أي لم يزل يسير باتجاه واحد ولم يرجع ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [٩٣] .

فهذه الآيات بانضمامها تدل بصراحة على وجود القطعة الخامسة من الدنيا لاستكمالها الأوصاف الموجودة الراهنة ، لأنّ مسير ذي القرنين باتجاه واحد من المغرب حتى بلغ المشرق ثم وصوله إلى الجبال التي بني بينها السد ، ثم وجود البحار المالحة والعذبة المتجاورة بكثرة هناك ، كل ذلك يؤيد ما ذكرنا ، ومما يرجّح أنّ السدّ الموجود هناك هو سدّ ذي القرنين المذكور في القرآن العظيم أن بناءه يخالف أبنية الأسوار الموجودة في أراضي الصين كلّها كما رأيته ورأيته ، ومشيت فوق الجميع ، فإنّ الأسوار المحيطة بالمقاطعات المختلفة هناك كلّها مبنية من أتربة وأحجار قليلة ورمال ، بارتفاع عظيم وبعرض كبير ، بحيث يأخذ كلُّ سور مساحةً كبيرة بعرضه يفوق خمسين ذراعًا إلى مائة ذراع . وأما سدّ الإسكندر فهو من الحجارة المتينة المحكّمة البناء التي لا يؤثر فيها مرّ الدهور ، ولكن ليست من الضخامة التي تجلب الأنظار ، وفي مسافة كلِّ خمسمائة متر تقريبًا بناء عالٍ

مشرف على كل الجهات له أدراج من حجر وأبواب من حجر ، قطعة واحدة لقيود الحُرَّاس فيه ، وإمكان مخاطبة بعضهم بعضاً ، ثم هو مسلَّط بزغاليل لإحدى جهتيه لأجل الضرب ورمي النبال ، وطوله حسباً أخبرونا يقرب من خمسة آلاف كيلو متر بحيث يجعل المملكة محصورةً ضمنه مما يدهش الألباب .

أما المفسرون فقالوا : ربُّ المشرقين أي مشرق الصيف والشتاء ، وربُّ المشارق أي كل يوم يختلف مشرقه ومغربه عن الآخر أو المراد مشارق الكواكب ومغاربها ومثلها قوله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المارج : ٤٠] وكلُّ محتمل والله أعلم بحقيقة كلامه ومراده .

البحث الرابع عشر

قوله تعالى في سورة الأحقاف [١٥] : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ .

فالحكمة في تخصيص الله سبحانه الأربعين سنة أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا بعد الأربعين كما قيل . وقد ورد : ما بُنِيَ نبيٌّ إلا على رأس الأربعين سنة . وقد عدَّه ابنُ الجوزي في الموضوعات ، كما في «حاشية الباجوري» على الجوهرة . وقيل : هذه السن غالبية في الأنبياء لامطرده ، فقد نبى عيسى عليه السلام ورفع وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، ونبيُّ يحيى صبيّاً بناءً على أن الحكم الذي أوتيهِ صبيّاً النبوة ، والتحقيق أن عيسى ما رُفِعَ إلا بعد ثمانين سنة من النبوة ، وبعد نزوله من السماء يعيش أربعين سنة . وقوله تعالى في حق يحيى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ [مريم : ١٢] المراد به العلم والمعرفة لا النبوة . وقوله تعالى حكاية عن عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [مريم : ٣٠] من التعبير

بالماضي عن المستقبل على حدّ قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ١] أي جعلني في علمه ، وما وقع في كلام سيدي عليّ الخوّاص أن النبيّ نبيّ من صغره فلعله أراد الكمال والتهيؤ ، كما أفاده الباجوري في حاشية الجوهرة .

وبعد أن أسمعناك ما استقرّ عليه أمر الشرع ، فاعلم أن علماء التشريح ذكروا في تحديد سنّ الإنسان علائم في جسمه تدلّ عليه ، وقد ذكروا من ذلك أن رأس الإنسان وجمجمته مركّب من عظام متصلة مع بعضها بأسنان كأسنان المشط ، لا أربطة تربط هذه العظام ولا أوتار كبقية المفاصل ، إنما هي متداخلة في بعضها بصورة محكمة أبدعها ربّ العالمين ، وبين هذه الأسنان غضاريض تُحكم سدّها لينة ، وهذه الغضاريض اللينة تبقى كذلك وتصلب شيئاً فشيئاً حتى سنّ الأربعين ، فتأخذ كمال صلابتها ، ويتقرّر حجم الرأس بحيث يصبح ككتلة عظيمة واحدة ، وتنمحي الغضاريض الموجودة تماماً . وعليه يصبح الحجم مقرّراً لا يتطور ولا يتمور ، وتقرير هذا الحجم له دخلٌ عظيم في احتمال الضغط والانضغاط على المخ الذي يحصل من جرّائه ما يؤثر على جوهر العقل الذي محله الدماغ ، فلذا جعل الله بعثة الأنبياء على رأس الأربعين ، ووردت الآية مؤيدة كمال رشد الإنسان في بلوغ شدّته العقلية حينما يستقرّ الرأس على حجم معين لا يكبر ولا يصغر أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وقد أثبتت التجارب التشريحية مشاهدة نموّ قشرة فوق الدماغ عند بعض الحاملات يبلغ سمكها تقريباً حتى نصف المليمتر ، تسبّب مرض الجنون المؤقت لكثيرٍ منهنّ حتى الولادة ، وبعد الولادة تزول ، فالضغط على الدماغ أمر لا يستهان به من كلّ ناحية ، فلا جرم أن خصّ الله مدح من بلغ سنّ الاستقرار ، في عظيم كلامه إشارة إلى هذه الحكمة العظيمة .

البحث الخامس عشر

قال الله تعالى في سورة الشورى [٢٧ - ٢٨] : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بَعِيدٌ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

وقال تعالى في سورة آل عمران [٢٦ - ٢٧] : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ * وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوجِلُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَتُجِلُّ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ * وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فهذه الآيات التي يصدّق بعضها بعضاً من معجزات القرآن التي تثبت وحدانيته تعالى وقدرته وانفراده بحكمه وعظائه ؛ وأنه المُعِزُّ ، المُذِلُّ ، المعطي ، المانع ، الرزاق ، المحيي ، المميت ، وكل من سواه مقهورٌ لفعله وأمره ، محجورٌ عن التصرف إلا بما يحكمه الربّ ويريده ، فحكمة الحكيم وعلم العليم واجتهاد المجتهد وشجاعة الشجاع ، كلّ ذلك لم نرها جعلتُ صاحبها غنياً ذا ثروة ، ولا ملكاً ذا قوة ، مهما صرف كلّ منهم غاية مقدوره ونهاية مجهوده ، مع أن الدنيا كثيراً ما تقبل على الغرّ والجاهل والأحمق البليد الذين يسترشدون برأي من ذكرنا ويحتاجونهم في كل زمان ومكان . وهلا صرفوا شيئاً من حكمهم وعلمهم وشجاعتهم وحنكتهم ودرايتهم ليكونوا كهؤلاء الأغنياء الأغبياء ، ولماذا لم يكن الحكماء والعلماء هم ذوي النفوذ والأمر؟ حكمة استأثر الله بها لم يجعلها سبحانه لأحد سواه .

قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

فإنه تعالى لو جعل الناس كلهم بمنزلة واحدة ودرجة واحدة لفسد الكون واختل النظام . فجعل بعضهم أمراء وبعضهم أجراء ، وبعضهم جهلاء وبعضهم علماء ، وبعضهم فقراء وبعضهم أغنياء ، وجعل المال لولب الأمور ، وعليه ربح الدنيا تدور ، ولكنه آله صماء ، وواسطة عمياء مع أنه لا يُسمن ولا يُغني من جوع . ولو أمعنا الفكر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . لاتضح الآيات والحكم لأولي الألباب ؛ لأن من يُعطي بحسابه ربما ينظر في حسابيه ، أو ينظر إليه من يحاسبه ، ويستوضح منه الحكم ويطلب منه الأسباب . والله تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك ، فيعطي الغنيّ ويزيد في غناه ، ويفقر الفقير ويزيد في فقره ، ويعطي الصحيح القوي المعافي ، ويُفقر العاجز المسكين ، ويعطي المذنب العاصي ، ويحرم الطائع الصابر المُعْدَم ، ويعطي مَنْ لا أهل له ولا عيال ، ويحرم ذا الأهل المحتاج الميال ، ويعطي الظالم الطاغبي الباغي ، ويحرم العادل الطائع المبغي عليه . لا يسأل عما يفعل ولا يُعَارَضُ فيما يحكم . ولا يستطيع أحد أن يقول : لم فعلت أو ما حساب ذلك أو ما حَكَمْتُهُ ؟

أَجْر موسى نفسه ثمانى حجج وأتمها عشراً وابن عمه قارون أغنى البشر ، فهذه الآيات لو لم يكن غيرها في القرآن لكفت دليلاً واضحاً على وجود الإله المتصرف في الأكوان . لا حركة لغيره ولا سكون ولا تحويل ولا سلطان .

وما ذلك إلا لهوان الدنيا عند الله سبحانه ، ولو كانت تساوي عنده جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ، ولكنها للزوال والفناء . والآخرة هي دارُ القرار والهناء . فهناك يعطي ربُّنا أرباب الإيمان ، ويطرد أهل الكفر والمعاصي والطغيان ، فليس لهم هناك حظٌ ولا نصيب ، فتأمل هذا السرَّ العجيب .

روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا

من أهل النار فيُصبغ في النار صبغةً ثم يقال له : يا بن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة . فيُصبغ صبغةً في الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرّ بك شدةٌ قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مرّ بي بؤسٌ قط ، ولا رأيتُ شدةً قط ، كما في الزواجر في باب الجنة والنار .

فأظهر الله وجوده في الدنيا بقهره لأنها دار الحجاب ، وفي الآخرة بظهور كل ما أخبر به في نص الكتاب .

وأما آية الغيث فليست بأقلّ إعجازاً من غيرها ، وهي من هذا الباب التي تنادي بعظمة ربّ الأرباب وعجز من سواه من أولي الألباب . فإن البشر إذ يضجون لربهم ويلجؤون عند القحط والمحل إليه لا يجيبهم أحد من معبوديهم المزيّفين ووسائطهم المزعومين .

قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] فنزول الغيث لا يمكن لأحدٍ من البشر بهذه الآية المعجزة مهما وصلت قوته العلمية وحاول أن يجعل ذلك بإرادته الجزئية . وقد حدث في جزيرة ابن عمر سنة ١٩٥٦ أن قلّ المطر عند بعضهم فاستعان بمن يسبّب نزولها بأعمال تُحدث غيوماً وسحاباً إذا استكملت الوسائط الكيماوية وإذا أتاهاهم ريح حول السحاب المصطنع والمطر لغير من أرادوها فخرس الرجل خسراناً مضاعفاً وربح جاره بقدرة ربه الفعال لما يريد .

وقد ذكّرني هذه الحادثة قصةً عن بعض الصالحين ذكرها مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ بكتاب الزهد في باب الصدقة في المساكين قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب ، واللفظ لأبي بكر قالوا : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن وهب بن كيسان عن

عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ . فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابَ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشُّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يَحْوُلُ الْمَاءَ بِمَسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : فُلَانٌ . لِلْأَسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ . فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي ؟ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا ؟ قَالَ : أَمَا إِذْ قُلْتُ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَاتَصَدَّقُ بِثَلَاثَةِ ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثَلَاثًا ، وَأَرُدُّ فِيهَا ثَلَاثَةَ » .

وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّبِيِّ قَالَ : أَنْبَأَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ أَنْبَأَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ أَنْبَأَنَا وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ : « وَأَجْعَلُ ثَلَاثَةَ فِي الْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ » .

فَانْظُرْ لِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ ، حَيْثُ يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَقَدْ رُوي فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ : خَلَقَ اللَّهُ الْخَيْرَ وَخَلَقَ لَهُ أَهْلًا ، وَخَلَقَ الشَّرَّ وَخَلَقَ لَهُ أَهْلًا ، فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْخَيْرِ ، وَجَعَلَ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَالْوَيْلَ لِمَنْ خَلَقَهُ لِلشَّرِّ ، وَجَعَلَ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَالْوَيْلَ كُلَّ الْوَيْلَ لِمَنْ قَالَ : لَمْ وَكَيْفَ ؟

البحث السادس عشر

قوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] وقوله : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق : ١] .

أقول : لقد أقسم الله سبحانه بهذه الأحرف لينبه العقلاء على حكمة

خفيت عنهم في أسرار حروف اللغات ، وهي أن حاجيات البشر غير متناهية والحروف متناهية في العدد . ومع ذلك فإنها بتنوع تركيبها واختلاف هيئاتها يستدلُّ بها في مخاطبات البشر ومعانيه كلها وحاجياته مهما تنوعت وكثرت . وهذا سرُّ من الأسرار الإلهية التي نمر عليها بدون انتباه ولا مبالاة .

وثانياً إن الإفهام بالتخاطب لا يبقى بل يزول سريعاً أثره ، والذي يقيه على مرِّ الدهور هو الكتابة ، فلا جرم أن أشار الله سبحانه إلى هذه الحكمة بقوله : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ ثم عمَّ إيضاحه بقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، وقد قال الأقدمون : إن الموجودات أربع : وجود في الأذهان ، ووجود في الأعيان ، ووجود في النطق ، ووجود في الكتابة . وأدومُّها آخرُها لبقائه دهوراً ، ولكمال تميزه ظهوراً . فكان جديراً بالقسم للإشارة إليه بالقلم ، ولولا الوجود بالسطور لخفي علينا كلُّ ما مضى من حوادث الدهور .

وثالثاً إن ما اصطلاح عليه الآن في كثير من البلدان أن يعبروا عن الحروف بالنطق كأنها سواكن ، ويدخلون على كل حرف همزة الوصل ليتوصلوا إلى نطقه ، فيقولون بدل النون (ان) ، وبدل القاف (اق) ، حتى إنَّ النشأ المتعلِّم لا يعرف اسمَ النون إلا (ان) ، ولا اسمَ القاف إلا (اق) حتى يكبر ويسمع ممن فوقه أو يقرأ في كتب اللغة أو القرآن ، وهذا نسخ لأصل من أصول اللغة عظيم ، ابتدع من زمن الإفرنسيين الذميمة وتمسَّك به المعاصرون بحجَّة سهولة التعليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فالله سبحانه أنزل هذه الحروف في كتابه الكريم ليكون حاوياً لبلاغة هذه اللغة ومبعداً عنها كلَّ تحريف ، ولتنطق أحرفها وأصولها في كلِّ عصر كما أنزلها الله بحيث لا تصح عبادة المسلم إلا باللفظ الذي نزل بإجماع من قال : لا إله إلا الله فهذه حكمة أخرى لهذه الحروف المقطعة جلَّ من أنزلها وتبارك .

أما بقية حكمها وأقوالها فلا نتعرض لذكرها لأنه مدون في بطون الكتب والتفاسير ، وقد استوفيته في تفسيري المختصر . وإنَّ سريان هذه البدعة وهي عدم النطق بالحروف الأبجدية على نطق القرآن كاد يعم وكان مبدؤه من سورية ودمشق التي هي أم العروبة ، وبدأ تقليدها في أكثر البلدان العربية ، وكنت استحضرت كثيراً من تلامذتي الذين يقال عنهم أدباء باللغة ، فلم استطع إقناعهم بخطأ هذا الأمر ، والشيطان زين لهم قُبْحَهُ فأجمعوا على إذاعته وإشاعته ، وسوف لا يعرف النشء الآتي ترتيب الحروف الأبجدية إلَّا بعد الرجوع إلى كتب اللغة المنسقة عليها ، مع أن سائر لغات العالم يدرسون حروفهم الابتدائية بترتيب معلوم ، ويضعون كل حرف بموضع خاص لا يتقدم ولا يتأخر إلَّا هذا التعليم العصري المبتدع في الأحرف العربية ، فإنهم يضعونها بدون ترتيب وتمهيد ، وينطقون بها بخلاف النطق القرآني ، فالله أعلم بفساد عباده الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، فأنزل هذه الحروف المتقطعة في أوائل السور التي لا يلفظ بها إلَّا على حقيقتها المنزلة والله أعلم .

البحث السابع عشر

قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾

[المائدة : ٣] .

فأما لحم الخنزير فَلَمَّا يحويه من الجراثيم الضارة كالاكينوق والتيناسوليوم أي المسلحة والتريشينلا سبيراليس وغيرها مما أبانه التحليل المجهرى لعسر التحرُّز عنها وما تسببه من علل وأمراض شتى . أما استعمال الفرنجة له فليس بحجة صحيحة لإباحة استعماله بعد ثبوت وجود ما ذكر من الجراثيم وغيرها لأن الغربيين فطروا على مخالفة الشرقيين ولو أذاهم الأمر

لارتكاب الضرر الذي لا محيدَ عنه كي نتبعهم في عوائدهم بحكم التقليد الأعمى ، وننسى سائرَ ما ورثناه عن أسلافنا من تعاليم الأديان والشرائع .

فأما الميتة والمنخنقة فمعلومان . وأما الموقوذة فهي المضروبة حتى تموت . والمتردّية الساقطة من علو إلى أسفل . والتطيحة المقتولة بنطح أخرى لها . وما أكل السَّبُع وهو كلُّ ما عدا عليه مفترسٌ ، كالأسد والذئب والفهد ، إلا ما ذكّيتُم أي أدركتُم فيه الرُّوح من هذه الأشياء فذبّحتموه وكان به رَمَقُ الحياة .

وحكم هذه الأشياء هو التحريم والنجاسة . والسبب ظاهر في الميتة والمنخنقة لبقاء الدم فيهما ، والدم في الوجود كماء النجاسات في الدور والبيوت الحاوي لأوساخها مهما اختلفت وتنوعت . والدليل على ذلك ظاهرٌ لا مرية فيه ؛ حيث إنَّ مُخاط الأنف وما يحويه من الأشياء التي تعافها النفس ، والأذن وما تحويه من الأوساخ ، والفم وما فيه من البُصاق واللعب والقشاعات القيحية وغيرها ، والعين وما فيها من الدموع ، من العمص والرَّمَص ما هو إلا من الأوساخ التي يحويها الدم . وما جعلها بهذه المحال إلا غددٌ أُعِدَّت لفرزها لحكمٍ إلهية اقتضَتْها ، وظهر بعضُها بالتجارب ، وخفي أكثرها على أكابر العلماء الباحثين . وكذلك البَوْل قليلاً أو كثيراً ، والبثور التي تخرج في أنحاء الجسم وتفرز قيحاً أو صديداً بجرح أو بغير جرح ظاهر . والعرق الخارج في أنحاء الجسم ما هو إلا من الدم . فالدم إذاً هو مجمع أقدار الجسم وأوساخه ، يمر بمحلات من الجسم مختلفة بها غدد خاصة تأخذ كلُّ غُدَّةٍ منه ما أعدّها الله لأخذه ، وتفرزه لإلقائه ، كي يبقى الدم نظيفاً طاهراً منها فيغذي أنسجة الجسم لإدامة حياة الإنسان ، أو تفرزه لنفع خاص بمحلها أو بغير محلها . وليست الغدد هي التي تعمل هذه الأشياء ، بل هي موجودة في الدم ، وهذه الغدد تخرجها منه ليبقى نقياً طاهراً ، وإنَّ الدم يأخذ ويرتشف

ما يكون في البشر والقروح بدورته ، وبعض الغدد المنوه عنها تأخذها أيضاً وتطرّحه ليبقى الدم نقياً صافياً .

فالدم إذاً هو مجمع أقذار الجسم وأوساخه ، يأخذها من كلّ نقطة باطنية في الوجود ، ويُخرجها للطَّرح والرمي من المنافذ الممكنة . ثم بعد تصفيته بهذه المنافذ وإخراج السُّموم منه يتطهر بنار الهواء المسمّى بالأوكسجين ، ولولا احتراقه بها في كلّ ثانية بفضل الاستدعاء بين الرئة والقلب لمات الإنسان مخنوقاً من غازات الدم السامّة ، فما الخنق إذاً إلا عدم تطهير الدم بالهواء الصافي مدةً من الزمن تختلف حسب الأشخاص ، ولا تزيدُ على خمس عشرة ثانية مهما تجالَد الإنسان . فهذا الدَّمُ الفاسد الذي سبب موت المخنوق مثلاً ، كيف يبيح العقل أن نأكله ونبقىه في المنخقة وما شاكلها ؟! وعليه فإنّ الدَّم لو لم يردّ الشرعُ بتحريم أكله وتنجيّسه لكان الطبُّ والعقلُ كافيين للحُكمُ بأنه أنجسُ النجاسات بل أنجسُ القاذورات . زدْ على ذلك ما يحويه الجسمُ من الأمراض التي لا تكتشف إلا بتحليل الدم . فإنه ما من مرضٍ من الأمراض التي تظهر في أي ناحية من نواحي الجسد إلا وهي فاشية بالدم متنقلة بواسطته إلى محاله المناسبة لها .

وأيضاً فإنّ كلّ جسمٍ نامٍ مخلوقٍ هو في تجددٍ دائمٍ يَفْنَى بعضُهُ ويُخَلَقُ بعضُهُ ، فإذا كان ظاهراً كسطح الجلد والأشعار والأظافر فإنها تتناثر بفعل الإنسان في النظافة والخلق والقصّ ، ولكنّ بقيّة نواحي الجسم الباطنة لا يَطْرَحُ منها هذه الأشياء إلا الدم .

فالدمُ إذاً حاوٍ على عدد من الأجزاء الميتة لا يمكن حصرُها يُخرجها من كلّ مَنْفَذٍ أمكنه في الوجود . وأيضاً ما من جرثومٍ من الجراثيم التي اكتشفت بشتى الوسائل حتى الآن إلا وهي تعيشُ في الدم وتنمو به حتى إنّ أكثرها إذا

تَعَسَّرَ كَشْفُهُ وإِظْهَارُهُ ، يَوْضَعُ لَهُ مَصْلٌ دُمَوِي لِيَتَغَذَى وَيَكْثُرَ بِهِ . فَأَصْبَحَ هُوَ
الْغِذَاءُ الْوَحِيدَ تَقْرِيباً لِأَكْثَرِ الْجَرَائِمِ الضَّارَّةِ الَّتِي تَقْنَعُ مِنْهُ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ .
وَعَلَيْهِ فَهُوَ قَدَرٌ مَحَلُّ الْأَقْدَارِ ، فَاتَضَحَّتِ الْحِكْمَةُ فِي تَنْجِيسِ الْقَلِيلِ مِنْهُ
وَالكَثِيرِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاتَضَحَّتِ الْحِكْمَةُ
فِي تَنْجِيسِ الْمَيْتَةِ الْحَاوِيَةِ لَهُ أَوْ الْمُنْخَنَقَةِ . أَمَّا الْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّدَةُ وَالنَّطِيطَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ فَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ بَعْضِهَا دَمٌ بِالْكَسْرِ ، وَلَكِنْ الْخَارِجُ
مِنْهَا غَيْرُ مُقَدَّرٍ وَغَيْرُ مَعْرُوفٍ أَنَّهُمَا مَاتَتْ بِسَبَبِ تَرْفِهِ مِنْهَا حَتَّى نَسْتَخْرِجَهُ
بِأَجْمَعِهِ أَوْ بَقِيَ أَكْثَرُهُ فِيهَا ، وَتَحْدِيدُ الْكَمِيَةِ أَمْرٌ غَيْرٌ مُمْكِنٌ مَعَ إِمْكَانِ مَوْتِهَا
مِنَ التَّرْدِيدَةِ أَوْ النُّطْحِ أَوْ الْخَوْفِ وَالْعُضْ بِمَحَلٍّ قَاتِلٌ دُونَ أَنْ تَمُوتَ مِنَ الدَّمِ
الْمَنْزُوفِ وَتَحْرِيَّ أَمْثَالِ هَذِهِ النِّقَاطِ هُوَ خَارِجٌ عَنِ حَيْزِ الْإِمْكَانِ ، فَلِذَلِكَ
حَكَّمَ الشَّارِعُ عَلَى جَمِيعِهَا بِالنَّجَاسَةِ تَحَرُّزاً عَنْ هَذَا الدَّمِ الْمُؤْذِي النَّجَسِ إِلَّا
مَا ذُبِحَ وَأُمْكِنَ إِنْهَارُ دَمِهِ مِنْ مَحَلِّهِ .

أَمَّا الذَّبْحُ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ مَحَلِّهِ فَهُوَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ مَوْقِعٍ
يُمْكِنُ اسْتِفْرَاقُ الْكَمِيَةِ الدَّمَوِيَةِ الْمَوْجُودَةِ بِالْجَسَدِ مِنْهُ ؛ وَذَلِكَ لِمَا يَحْوِيهِ مِنْهُ
الْعُرُوقُ وَالْأَوْرِدَةُ الْكَافِيَةُ لَاسْتِنْزَافِ دَمِ جَمِيعِ الْجَسَدِ مِنَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، فَإِنَّهُ
يَحْوِي عَلَى الشَّرْيَانِ السُّبَّاتِيِّ الْأَصْلِيِّ الَّذِي يَنْشَأُ بِالْأَيْمَنِ مِنَ الْجَذْعِ الْعَضْدِيِّ
الرَّأْسِيِّ ، وَبِالْأَيْسَرِ مِنْ قَوْسِ الْأَبْهَرِ ، وَيَمْتَدُّ فِي الْعُنُقِ حَتَّى الْحَافَةِ الْعُلْوِيَّةِ
لِلْغَضْرُوفِ الْوَرَقِيِّ ، ثُمَّ يَتَشَعَّبُ لِفُرْعِيهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، ثُمَّ الْوَرِيدَ الْوِدَاجِيِّ
وَفُرْعَاهُ السُّطْحِيَّ وَالْعَمِيقَ فِي الْأَيْمَنِ وَالْأَيْسَرِ ، مَعَ قُرْبِ هَذَا الْمَحَلِّ مِنَ الْقَلْبِ
وَالدِّمَاغِ ، فَالْقِطْعَةُ الرَّقْبِيَّةُ لَا يَفْضُلُهَا نَقْطَةٌ فِي الْجَسْمِ لَاسْتِفْرَاقِ الدَّمِ أَصْلاً مَعَ
سُرْعَةِ الْمَوْتِ مِنْهَا ، وَبَعْدَهَا عَنْ شِبْهِ الْمَثَلَةِ .

عَلَى أَنَّ حَالَةَ الْغَضَبِ وَالْخَوْفِ الْحَادِثَ مَعَ الْمَوْقُودَةِ وَالْمُتَرَدِّدَةِ وَالنَّطِيطَةِ
وَمَا أَكُولِ السَّبْعِ تُؤَلِّدُ فِي الْجَسْمِ انْفِعَالَاتٍ كِيمَاوِيَّةً تُخْرِجُ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي الْوُجُودِ

عن اعتدالها الطبيعي ؛ فبدل أن تفرز ذرّاتِ الموجود مواد كيماوية نافعة له تختلُّ وتنقلبُ إلى عكسها كما يشاهد ما ينشأ من الأمراض عن الخوف والغضب ، حتى إذا زاد عن السنن المألوفة أوجب الموت الآتي بلا توقف ، وهذا الموت الآتي لا يحدث إلا من سموم قاتلة ، أثرت على مقاتل الخائف حتى أودت بحياته . وكم رأينا وشاهدنا من يغلب على عقله عند الغضب والخوف ويذهل ذهولاً يخرج به عن اعتداله ؛ ومن يكون معه ضعف أو علة قديمة تصول حتى تقتله بمعاونة الغضب الذي أخرج الجسم وكل ذرة منه عن الاعتدال . فكيف يمكن لذي عقل سليم أن يستمرئ هذا اللحم المسمم الوبيء الهائج ؟ ولذلك نهى رسول الله ﷺ أن يُضجع الإنسان ذبيحته ، ثم يُجَدَّ شفرته ، وقال لمن فعل ذلك : « لقد أمّتها موتتين » ، وفي هذا النهي فوق الحكمة الطبية حكمة الرحمة بهذا الحيوان الطائع الوديع . وأمَرَ الذابح أن يذكر اسمَ الله عند الذبح ، لما أن ذكر الله يخفّف الألم عن الضحية ، بل ورد في بعض الأخبار أن الضحية تلتذّ بالذبح عند ذكر اسمه تعالى ، وهو أمر معقول لأنَّ الله تعالى لم يكن ليعذّب هذا الحيوان لأجل لذة حيوانٍ آخر ، وهو الإنسان إلا لحكمة يعلمها هو ، خَفِيتْ عن عالم الأجسام ، والله أعلم بحكمته .

أما الحكمةُ في وجوب الذكاة واستفراغ الدم فهي ظاهرة ، فالدم مسار سمومُ الجسم ، وما من مرضٍ إلا يكشف من تحليل الدم . فالدم إذا عبارة عن مجموع أقدار الجسد الحاوي للبول والعرق وفضلات الجسم كلها .

البحث الثامن عشر

قال الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٣ ، ٤] .

فقد اشتملت هذه الآية على حكمةٍ كانت خافيةً عصوراً شتى ، حتى أظهرها ما ظهر في هذه العصور من الآلات الحديثة والمكبرات التي اكتشفت كثيراً من دقائق علم التشريح ، وما انطوى عليه الإنسان والحيوان والنبات من الحِكم التي تدلُّ على أنها صادرةٌ من صانعٍ حكيمٍ لا من الطبيعة التي هي عبارة عن وهم وخيال . ويستحيلُ أن يعطي الوهمُ والخيالُ حقائقَ بارزةً ثابتةً وجَّهماً ظاهرة نيرة .

ومن جملة ما علَّم الآن علماً يكاد يكون حقيقياً ضرورياً أن التخاطيط الكائنة في أصابع الإنسان لا تتوافق في شخصين مهما تعددت الأشخاص والذوات ، بحيث أنه متى اشتبه بآثار شخصين أو أشخاص ونظر إلى تخطيط أصابعهم بالمكبرات ظهر الفرقُ واضحاً وعلَّم صاحبُ الأثر وتميز عن غيره . وقد اكتشف علماء العصر الحاضر بهذه الظاهرة كثيراً من خفايا الأمور والجنايات التي خفيت على علماء الحقوق والقوانين .

فالله سبحانه يدلُّ من عَمِيَتْ بصيرته عن رؤية قدرته تعالى بشيءٍ ظاهر للعيان ؛ وهو أنه قادرٌ على أن يسويَّ بنانَ كلِّ واحدٍ من بني الإنسان ويعيده على ما كان عليه في النشأة الأولى من الحياة حين إعادة خلقه وبعثه .

فالقادر على إعادة هذه الدقائق لهذه المخلوقات التي فنيت وحفظها من اختلافها واشتباهاها كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] يدل دلالة صريحة أنه بغاية القدرة التي لا تنهاى والعظمة التي لا تُبارى . فهل يستكثر على تلك العظمة جمع عظام الميت وإعادته كما كان ؟! والمعجزة في هذه الآية هي الإشارة إلى البنان الذي ينطوي على هذه

الدقيقة العجيبة والتي لم تتحقق إلا في هذه الأيام ، وأن خالقها سيعيدها كما هي .

البحث التاسع عشر

قوله تعالى : ﴿ قَتِمُّوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [النساء : ٤٣] وفي الصحاح : « وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فما وجه الطهور المعقود بالتيتم ، والذي كان من خصائص هذه الأمة دون غيرها بالحديث .

أقول : إن الوجه معقود بالتيتم بالتراب فوق الوضوء بالماء المنظف ، إذ من المعلوم أن الماء منظف ، لكنه غير مطهر في الطب ، ولا يقتل شيئاً من الجراثيم ، فلا فرق بينه وبين التراب من هذه الجهة ، بل الحكمة في التراب الذي شرط الله فيه شرطين أبين وأظهر : أحدهما أن يكون صعيداً ، والثاني أن يكون طيباً : أما الصعيد فاسم لما على وجه الأرض ، وأما الطيب فاسم لما لم تمسه نجاسة قط . وقد اتفق الأطباء أنه لا يمكن أن يعيش جرثوم ضار بتماس الشمس والهواء . وإلا لانتقلت جميع الأمراض لجميع المخلوقات الحية . فإذا كان التراب صعيداً مماساً للهواء وطيباً لم تمسه نجاسة وذلك به أي موضع كان ، فإنه يسحق جميع الجراثيم الموجودة بذلك الموضع ويطهرها ، ولذلك كان التشميس والترتيب من المطهرات عند الحنفية حتى لجلود الميتة لهذه الحكمة والله أعلم . وكان جفاف الأرض وما اتصل بها مطهراً لها ولما اتصل بها ، لأنه حصل بتماس الهواء ، حتى تجوز الصلاة عليها بعد الجفاف ، وإن كان لا يجوز التيمم بها ؛ فانظر لحكمة الشرع كيف تطرد في كل النواحي المعقولة . على أن المسح بالتيتم الشبيه بالذلك شرط في التيمم دون الوضوء ، لأن الماء تكفي فيه الإسالة ، وهنا الإسالة مفقودة فاشترط المسح الشبيه بالذلك ليعم كل المحل المراد ، وبهذا المسح والدلك يحصل

سَحَقُ كُلِّ ما من شأنه الأذية والضرر ، ولقد رأينا في معاناة الجرائم بالمكبرات أن السحق يميته بل يذهبها بحيث لا تتميز ولا تظهر ، وهذه الحالة موجودة بمسح التيمم وذلكه ، وكان ينبغي أن يكون الصعيد شرطاً شرعياً في شروط التيمم ولكن يستحيل عادةً أن يحفر المتيمم الأرض ؛ ويتمم بالتراب العميق فلذا كانت العادة كافيةً عن اشتراطه شرعاً والله سبحانه أعلم .

وبما ذكر ظهر حكمة غسل الإناء إذا ولغ الكلب فيه سبغاً إحداً من بالتراب ، لما في لعابه من التيا المسماة أكيقوقن الضارة المؤذية للكبد خاصة ، فإنها بالتراب تُسحق وتموت كما هو مذهب السادة الشافعية ، ولما شدد الشارعُ الأعظم بالاحتباس عن اقتناء الكلاب إلا لحاجة اعتنى الأوروبيون باقتنائها مخالفةً للشرعة الإسلامية ، ولو أصابهم ما أصابهم من أذيةٍ وضرر وهذه حقيقة واقعية لا تنكر .

أما بعض ما يستفاد من آية التيمم في سورة المائدة فنذكره استطراداً وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَمَتَّعُوا صَعِيداً طَيِّباً ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

فاعلم أن بعض ما يستفاد من هذه الآية من جهة العربية ما قاله صاحب الدر أول كتاب الطهارة ونصه : وإنما قال ﴿ آمَنُوا ﴾ بالعبية دون آمَنتم ليُعَمَّ كُلٌّ من آمَنَ إلى يوم القيامة ، قاله في « الضياء » وكأنه مبني على أن في الآية التفاتاً والتحقيق خلافه . اهـ .

وكأن هذا الكلام رمزٌ أو من الأغاز حتى أوضحه محشيه العلامة ابن

عابدين قوله : والتحقيق خلافه لأنَّ المنادى المخاطب ضميره أن يأتي على طريق الخطاب ، فيقال : يا فلان إذا فعلت ، ولا يقال : إذا فعل ، وإنما جيء في الصلة بغير الغائب لعوده على الموصول . والموصول من الأسماء الظاهرة وكلها غيب ، فإذا تم الموصول بصلته العائد ضميرها عليه تمحّض الكلام للخطاب الذي اقتضاه النداء ، فليس حيثثذ في الكلام عدولٌ عن طريق إلى آخر . ولذا كان جميع ما ورد في القرآن وكلام العرب من أمثال هذا النداء لم يجئ إلا على هذه الطريقة . فدعوى العدول في جميع ذلك لا تسمع ، نعم العائد إلى الموصول قد سُمع فيه الخطاب والتكلم قليلاً في غير النداء كما في قول علي كرم الله وجهه :

أنا الذي سمتني أمي حيدر

وقول كثير :

وأنت التي حبيت كل قصيرة إليّ وما تدري بذاك القصائر
فهو من الالتفات ، وإن القول بالالتفات في الآية سهوٌ كما في « المغني »
و « شرح تلخيص المعاني » اهـ .

وأما ما اشتملت عليه الآية من الأحكام ، فقال في « الدر » : اشتملت على
ثبوت سبعين حكماً مبسوطة في « الضياء » عن فوائد الهداية اهـ .
وقد بين كثيرٌ منها ابن عابدين فقال : إنما اقتصرنا على ذلك لاستبعاد بعضها وتقارب بعضها البعض اهـ .

ومما اشتملت عليه الآية ما قاله في « الدر » على ثمانية أمور كلها مثني :
طهارتين : الوضوء والغسل — ومطهرين : الماء والصعيد .
وحكمين : الغسل والمسح — وموجبين : الحدث والجنابة .

ومبيحين : المرض والسفر — ودليلين : التفصيلي في الوضوء والإجمالي في الغسل .

وكتابتين : الغائط والملازمة — وكرامتين : تطهير الذنوب ، وإتمام النعمة ، أي بموته شهيداً . لحديث : « من داوم على الوضوء مات شهيداً » ذكره في « الجوهرة » . اهـ . قال ابن عابدين : فالجملة ستة عشر . اهـ .

البحث العشرون

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الفرقان [٤٥] :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ﴾ .

أي بَسَطَهُ وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لأنه ظل لا شمس معه ، ولو شاء لجعله ساكناً لا يزول ، ثم جعل الشمس دليلاً عليه لأنه لا يظهر أنه ظل إلا بحجب الشمس أو النور عنه . وجعل أبو السعود المراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس ، ولم يرتضِ إطلاق الظل على ما قبل طلوع الشمس ، ولا قاطع في تفسير الآية .

قلت : وعدم القاطع في تفسيرها تحقيقاً لمعجزة القرآن العظيم بإيضاحه وإشارته لما يحدث كل يوم من الاكتشافات والاختراعات ، فالرسم الظليّ تشير له هذه الآية بوضوح حيث جعله الله ساكناً فإنك إذا رأيت صورة شيء فإنما هو ظل أسود قد سكن ، وكان النور دليلاً عليه بأن دخل من نافذة الآلة ، وَحَجَبَ الشخص أو الشيء الذي يُراد رسمه فلم يدخل نور بقدره ، فبقي ظلّه ساكناً ، ولذا قلتُ في صورة أُخِذَتْ لي بهذه الآلة :

إِنَّ رَبِّي مَدَّ ظِلِّي فِي زَمَنٍ وَفَنِيَ جِسْمِي وَظِلِّي قَدْ سَكَنَ

هذه قُدرةُ ربِّي ظهرت ببقاءِ الظلِّ إذ يَفْنَى البدنُ
وأبو اليُسْرِ يُرَجِّي رحمةً من إلهِ العفوِ وهَّابِ المِنَّنِ
ومما حرَّرهَ المرحوم محمود حمزة مفتي دمشق الأسبق على صورة له
رأيتها :

أيها الناظرُ ظلَّ صورتِي ها أنا من حيثُ رسمي ها أنا
وإذا لاحظتَ من صورتِي^(١) فأنا الباقي وما لي من غنا
وقد ذكرت ذلك أمام بعض أصدقائنا المطارنة فقال : مما قال البترك
غريغوريوس السابق قوله :

الجسم أقوى ويفنى والرسم أوهى ويبقى
وأنت إن تذكر اسمي فالله خير وأبقى
وقد أشكل عليَّ حكمُ هذه الصور ، كما ذكره السيد أحمد علوي
السقاف في حاشيته « ترشيح المستفيدين على كتاب فتح المعين » ، شرح قرّة
العين للعلامة زين العابدين بن عبد العزيز الملياري بكتاب النكاح في فصل
الصدّاق حيث قال ما نصه : تنبيه ، قال القسطلاني على البخاري قال ابن
العربي : حاصل ما في اتخاذ الصورة أنها إن كانت ذات أجسام حرّم
بالإجماع ، وإن كانت رَقْماً فأربعة أقوال : الجوازُ مطلقاً لظاهر حديث
الباب ، والمنع مطلقاً حتى الرقم . والتفصيل : فإن كانت الصورة باقية الهيئة
قائمة الشكل حرّم ، وإن قطعت الرأس وتفرقت الأجزاء جاز . قال : وهذا هو
الأصح . والرابع : إن كان مما يُمتنّ جاز ، وإن كان معلقاً فلا . اهـ . وانظر
ما عَمَّتْ به البُلُوّى في هذه الأزمنة من اتخاذ الصور المأخوذة رقماً
بالفوتوغراف هل يجري فيه هذا الخلاف لكونه من جملة المرقوم ؟ أم يجوز

(١) كذا ، ولعل الصواب « صَوْرَتِي » .

مطلقاً بلا خلاف لكونها من قبيل الصورة التي ترى في المرأة ؟ وتوصلوا إلى حبسها حتى كأنها هي كما تقضي به المشاهدة . حرّره ، فإنني لم أرَ مَنْ تعرّض لذلك من أرباب المذاهب المتبعة ، وعلى كلِّ فقيما نقلته فُسحة للناس وتوسعة . اهـ .

البحث الحادي والعشرون

معجزة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام

من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم ٣٧] .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] . ثم قال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

في هذه الآيات معجزة ظاهرة للعيان باستجابة دعاء أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث أرسل الله محمداً ﷺ رسولاً يتلو عليهم آياته ، وعمّت رسالته الدنيا والآخرة .

وهذه المعجزة لا تحتاج إلى إيضاح وبيان ، ولا إلى دليل وتفصيل وبرهان . والمعجزة الثانية جعله حرماً آمناً يُجْبَىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ وورزقهم من الثمرات . فإننا لو نظرنا إلى بلاد الحجاز من سهول قاحلة ، وأطراف متناثرة ، ورمال سافية ، وجبال جرداء ، لا تنبت شيئاً لقلة الماء ، وشدة الحر مع شظف العيش ، نراها آمنة مطمئنة رَغْدَةُ الأرزاق مهما انتاب البشر من

كوارث أو مُزعجات . قلعةً طبيعيّةً حصينةً في وعورتها ، كثيرة الخير والبركات بما يُجبى إليها من سائر البلاد وجميع الجهات ، وقد أدركنا في حياتنا الأولى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٣ ودامت إلى سنة ١٩٢٠ أَكَلَتِ الأَخْضَرَ واليابس في الدنيا ، وأذَلَّتِ العزيز ، وأماتتِ الفقير ، وشَتَّتِ العبادَ بالنفي والتغريب والتعذيب في البلاد والمجاعات التي أهلكت النفوس ، ومهما ذكرنا عن فظائعها لا نفي بعشر معشار ما شاهدناه ، ومع ذلك كنّا نتردّد في تلك الأيام على المدينة المنورة لزيارة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، فنجدها بأرغد عيش وأوسع نعمة وأنعم بال ، وكنا نحاول أن نأتي بشيء من تمرها أو طحينها أو أرزها فلا تمكّنُ السلطاتُ الظالمةُ أحداً من استصحاب شيءٍ من الزاد ، وكان النَّاسُ يَمُوتُونَ في طرقات دمشق من الجوع ، وشبعت الوحوش والطيور والسباع من لحوم بني آدم في الجبال والقرى ، وأكلت الأمهاتُ أولادها من الجوع ، وسابت الأعراض بحيث صارت مباحةً برغيف من الخبز والعياذُ بالله ، والأرزاق المكدّسة عند الحكومة الظالمة كالجبال ، وكلُّ من يوجد عنده حنطةٌ أو شيءٌ من الأرزاق ولا يعلم الحكومة به فجزاؤه الرّمي بالرصاص ، أو الصّلب والسّنق ، ومع ذلك فالحجاز بأرغد عيشٍ وأهنئه .

نعم ، إنّ الحاكم الظالم جمال باشا السّفاح كان أجلى أهل المدينة عنها وأثّوا كلّهم لدمشق إلى انتهاء الحرب ، ولكنّ مكة وسائر الحَرَم كما ذكرنا من الأمن والرخاء . وإنّ جلاء أهل المدينة أيضاً من جملة معجزات الرسول الأعظم ﷺ حيث روى ابن شُبّة حديث : « ليخرجنَّ أهلُ المدينة منها ثم يعودون إليها ، ثم ليخرجنَّ منها ثم لا يعودون إليها أبداً ، وليدعنها خير ما تكون مونة » ورؤي أيضاً عن عمر نحوه مرفوعاً كما ذكره الشيخ محمد بن رسول البرزنجي في كتابه « الإشاعة في أشرار الساعة » في

الخاتمة . ثم كانت الحرب الثانية العامة سنة ١٩٣٩ وانتهت سنة ١٩٤٥ ، وأفنت البشر أيضاً وأتت بفظائع تشبه الأولى ، ومع ذلك كانت الحجاز أنعم بلاد الله تعالى من كل الوجوه آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فهذا ما لا يحتاج إلى دليل ولا تفصيل والله يقول الحق وهو نعم الوكيل .

وقد حوت هذه الآيات معجزة أخرى للقرآن العظيم ، تلك هي إعمار الصحارى القاحلة التي كانت دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . كيف وقد اتفق البشر مؤمنهم وكافرهم أن تلك البلاد لم يكن بها ما ينقع للظمان اللهاة حين ترك إبراهيم ولده وزوجته بها ، وذهب عنهما بمكان خال لا أنيس به ولا وحش ولا طائر في النهار والليالي الدامسة المظلمة ، ولو لم يكن واثقاً وصابراً ومعتمداً على ربه ، قوي القلب والجنان لما استطاع أن يفعل هذا الأمر العظيم ، ولم يُجر جواباً لزوجته حين سألته : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا . فقال حينذاك : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

والله لو لم يكن في القرآن غير هذه المعجزة لكفته إقراراً ودليلاً على قدرة الله وإنجاز وعده واستجابة دعاء أبي الأنبياء . كيف تحضرت تلك الأراضي القاحلة ، وكيف يُجبي إليها ثمرات كل شيء ؟ و أفئدتنا وقلوبنا تهوي إليها مهما تجشمت الإنسان من المشاق وأنفق من مكنونه الأموال . بل إنك ترى الفقير الذي يجبي الصدقات يجمعها ليحج وينفقها هناك ، والفلاح المزارع الذي ليس له إلا قطعة أرض صغيرة يعيش بها ، يبيعها لينفقها في هذا السبيل ، بل الغني الشحيح الذي يخل عن نفسه وولده وزوجته يُنفق ما ادخره في هذا السبيل ، بل العائل الذي يموّن الأولاد والزوجات ، يُخفي عنهم ما يوصله إلى تلك البلاد مهما تردّد إليها مراراً وتكراراً . ثم انظر رحمة الله بعباده التي بلغت

من العَظَم ما لا يعلمُه سواه ، حين دعا إبراهيمُ صلوات الله عليه وقال : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ حيث قال الله له : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ . أي إني أستجيبُ بكلِّ ما دعوتُ إلا هذه ، حيث إني لا أخصُّ رزقي بمن آمن بل أعمُّه لمن كَفَرَ أيضاً . ثم إنه تعالى يعاقبه على كُفْرِهِ في الدار الآخرة حيث قال : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

ومهما تكن رحمةُ الأنبياء عظيمةً فرحمةُ الله أعظم . وقد رُوي أنَّ إبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبيِّنا دعا على من رآه بفاحشةٍ فهلك . قال الخازن في تفسير سورة الأنعام [٧٥] تحت قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما نصُّه : ورُوي عن سلمانٍ ورفعه بعضهم عن عليٍّ قال : لما رأى إبراهيمُ ملكوتَ السمواتِ والأرض أبصر رجلاً على فاحشة ، فدعا عليه فهلك . ثم أبصر آخرَ فدعا عليه فهلك . ثم أبصر آخرَ فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى : يَا إِبْرَاهِيمَ أَنْتَ رَجُلٌ مُجَابُّ الدَّعْوَةِ ، فلا تدعُونَّ على عبادي ، فإنما أنا من عبادي على ثلاثٍ خلال : إما أن يتوبَ إليَّ فأتوبُ عليه ، وإما أن أُخْرِجَ منه نَسَمَةً تعبدني ، وإما أن يُبعثَ إليَّ فإن شئتُ عفوتُ ، وإن شئتُ عاقبت . وفي رواية : وإن تولَّى فإنَّ جهنم من ورائه . اهـ .

وروي أنه ﷺ سأل ربَّه أن يجعل حسابَ أمتِه إليه كي لا يفتضحوا أمام الأمم . فقال الله تعالى : بل أجعلُ حسابهم إليَّ كي لا يفتضحوا أمامك .. وفي كلام بعض الصالحين : أيُّها الرجل ، ما صَحِبَكَ من صَحْبِكَ وهو بعيك عليم ، إلا ربك الكريم . ولو اطلع أحدٌ منك على عيبٍ لهجرك في الحضرة والغيب . فاشكُرْ ربَّكَ على إسبالِ ستره عليك ، وإرسالِ نعمه إليك .

البحث الثاني والعشرون

معجزة القرآن العظيم بإشارته

قال تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤]

هذه الآية من معجزات القرآن العظيم التي تؤدي المعنى المطلوب كما هو الواقع ؛ فقد ثبت بمذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن الأنبياء منزَّهون عن النقائص والعيوب ، وكلُّ ما يُروى من ابتلاءِ أيوبَ بما يُزري بمقام النبوة فهو كَذِبٌ واختلاق . وكذا ما يُروى من عَمَى يعقوبَ وشعيبَ أو غيرهما من الأنبياء . وقال السُّبْكِيُّ في طبقاته في ترجمة والده تقي الدين رحمه الله نقلاً عن والده ما نصُّه : أنكر أن يكون يعقوبُ وشعيبُ أو غيرُهما من الأنبياء عليهم السلام حصلَ لهم عَمَى ، وشدَّد النكيرَ على مُدَّعيه ، وأوَّلَ جميعَ الظواهر الواردة فيه . اهـ .

وقال الباجوري في شرح جوهرة اللقاني ما نصُّه : وكالجنون الجَذَام والبرص والعمى وغير ذلك من الأمور المنفَّرة فلم يعمَ نبيٌّ قطَّ ، ولم يثبُت أن شُعيباً كان ضريراً ، وما كان بيعقوبَ فهو حجابٌ على العين من تواصل الدموع ، ولذلك لما جاءه البشيرُ عاد بصيراً ، وما كان بأيوبَ من البلاء فكان بين الجلد والعظم فلم يكن منفراً ، وما اشتهر في القصة من الحكايات المنفَّرة فهي باطلة . اهـ

فهذا هو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وقد ثبت بعلم الطب أن من الغشاوة ما يُسمَّى ظُفراً ؛ وهو أن تمتدَّ قشرة رقيقة بيضاء من المآقي فتُعْمِي العين كُلَّها ، وكم رأيتُ أثناء مزاويتي صنعة الطبِّ مَنْ كانت تُقامُ لهم القِشْرَةُ بملقطٍ صغير ، فيقشره عن العين فيعودُ البصر كما هو ، وتسمى هذه القشرة

ظُفراً لأنها تُشبه الظفر ببياضها ، وبالأفرنسية أونكل .

وكم في القرآن من معجزات وآيات يمرُّ الإنسان عليها وهو ساوٍ لاهٍ وذلك
نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُدِ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ طَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾
[الأنعام : ١٢٥] كما ذكرنا معنى هذه الآية بمحلّها . وكما في قوله تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ
اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

فهذه الآية أيضاً صريحة في إعجازها ؛ فإنَّ العسكر إذا كانوا في الحرب
وأصابهم العطش ثم شربوا من الماء كثيراً فإنه لا شك يكون مُضِراً ضرراً
عظيماً يوجب تمُدُّ المعدةِ وألمها ، وقد يثْقُبها ويثقب الأمعاء ولا سيما إذا
كانت المَعِدَةُ خاليةً والماء بارداً ، وإنِّي صادفتُ كثيراً من هذه المسائل مع
المرضى الذين يُسرفون في شُرْبِ الماء بعد العطش ، إلا من يغترف منه قليلاً
كما ذكره الله في هذه الآية . وقد أتى نظامُ الجندية بمنع العسكر من الماء عند
شِدَّة الحر والعطش إلا بمقدار قليل .

وفي الآية حكمةٌ أخرى هي اختبارُ إطاعة الجند لآمرهم ولا سيما فيما
يُضُرُّهم . فإنهم إذا شربوا كثيراً ومريضوا لا يمكنُ قيامُهم بأمرِ الحرب
والجهاد ، فمَنع من خالف الأمر بمتابعته ، وكانوا قلة ثلاثمائة وثلاثة عشر
نصرهم الله تعالى .

وكما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران : ٩٣] .

أي أن الله أباح الطعامَ لسيدنا يعقوبَ إلا ما حرَّمه على نفسه ، وقد حرَّم
لحومَ الإبل وكانت أحبَّ الطعامِ إليه ، وذلك أنه نذَرَ أنْ دخل بيتَ المقدس
سالماً ليذبحنَّ أحدَ أولاده كما قيل ، فقليل إنه ابتلي بألمٍ يقالُ له عِرْقُ النَّسَا في

اصطلاح الأطباء ، في قصة طويلة يذكرها المفسرون ، وتقدم شيء منها ، ومما أجمع عليه علماء الطب في هذه الأيام أن أضر الأشياء لهذا المرض هو اللحم ، وكان سيدنا إسرائيل يحبّه فحرّمه على نفسه .

فانظر يا رعاك الله إشارات القرآن التي تعجزُ البشرُ عن الإتيانِ بمثلها مع عدم التصريح بأسبابها وعِلَلها كي تظهرَ متتابعةً حسبَ العصور ، ويبقى لكلِّ عصرٍ من معجزاته ما خفيَ على غيرهم ، وهي من علوم رسول الله ﷺ ، وإنّي أسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيم أن يميّني على دين الإسلام ومحبة النبي والقرآن . آمين .

البحث الثالث والعشرون

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : ١ - ٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النمل : ٣٨ - ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٤ ، ٩٥] .

فمن نظر في هذه الآيات الكريمة يرى كما يرى في المرأة مما وراءه أشياء

كثيرة جليلة واضحة ، وهي صحيفة مطوية مباركة . فالقرآن العظيم مرآة لعباد الله الصالحين ، ومحمد ﷺ نورُ الوجود فلما أتى النور ضاءت المرأة بما فيها من عظيم صنع الله لمن أكرمه الله بأعظم العبادة ، وهي التفكير في مصنوعات الله عز وجل ، فالتفكر هو أعظم العبادة ، وقيل : إنه كان عبادة يونس عليه السلام الذي كان يصعد كل يوم منها إلى ربه قَدْرُ عبادة أهل الأرض ، فإنه ﷺ مهما صلى أو تصدق أو تعبد لا يوازي أهل الأرض إلا بما اختصه الله به من علو المقام . فكان اختصاصه من العبادة كما قيل هو التفكير بمصنوعات الله عز وجل . أما التفكير بخالفها فهو ممنوع خارج عن طاقة البشر ، ولذا ورد « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة » رواه أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ « فإنكم لا تقدرون قدره » فمن يتفكر بقوله تعالى : ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ [الذاريات : ٢ ، ٣] يعلم عظمة الله الذي جعل الريح تحمل الوقر ، وهو الثقل العظيم ، حيث حملت عرش بلقيس من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد طرف عين سليمان عليه الصلاة والسلام ، فما هو العلم الذي كان عند هذا القائل الذي قيل اسمه آصف بن برخيا ؟ نحن نرى الآن ونحن في شهر حزيران سنة ١٩٥٩ وذي الحجة سنة ١٣٧٨ أن صحيفة الأيام نقلت في عددها ٦٧٤٣ الصادر يوم الخميس في ١٩ ذي الحجة ١٣٧٨ و ٢٥ حزيران سنة ١٩٥٩ وعددها الصادر أيضاً يوم الجمعة في ٢٦ حزيران ١٩٥٩ خبر الطائرة الروسية التي تحمل ٢٢٥ مائتين وخمسة وعشرين إنساناً مع وقودها ومتممات سفرها وسفرهم من طعام وشراب وأثقال ، من روسيا إلى باريس بدون توقف ، وعبرت عنها بالجبل الطائر والتقطت صورها عند وصولها .

قالت الجريدة : وصلت هذه الطائرة إلى باريس فكانت دهشة المتفرجين أنها كالجبل الطائر قامت من موسكو وهي روسية ، فحطت في باريس بدون

توقف ، ولا غرابة فهي من الطائرات الثفائة ذات الأربع توربينات ، وتتسع لمائتين وخمسة وعشرين راكباً ، وتسير بسرعة ٥٠٠ ميل في الساعة ، وترتفع إلى ٤٠ ألف قدم والصورة التقطت لهذا الجبل الطائر ساعة وصولها إلى باريس . اهـ .

فهذا ما تحمله الرياح من الوقر وتجري بيسر ، وتقسم الركاب إلى مناطقها والأمور والقضايا إلى محلاتها .

ولكن من يكون بتأييد الله ومعجزة من عنده لا شك هو أعظم وأعلى لتمييز المعجزة عن المعتاد والله أعلم .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْقِدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] أي تنسبونني إلى الفند ، وهو ضعف الرأي من الهرم^(١) ، فالريح كما تحمل الوقر من السحاب والوقر من الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية ، تحمل ما هو ألطف وهو الرائحة ، فالريح بمعنى الهواء تحمل الريح بمعنى الرائحة^(٢) ، وتحمل ما هو أثقل من الرائحة وأخف من الأجسام وهو الصوت ، فالبشر توصلوا للاستفادة من حملها الأصوات بالراديو ولكن لم يتوصلوا للاستفادة من حملها الرائحة بالمسافة البعيدة ، لأن ما كان بالمعجزة أعظم وأعلى . فهذا من نوع التفكير في خلق

(١) قال في مختار الصحاح : الفند بفتح الحاء الكذب ، وهو أيضاً ضعف الرأي من الهرم والفعل منهما فند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي ، والتفند اللوم وتضعيف الرأي . اهـ .

(٢) قال في المختار : راح الشيء يراؤه ويريه أي وجد ريحه . ومنه الحديث « من قتل نفساً معاهدة لم يرخ رائحة الجنة » جعله أبو عبيد من راح يراؤه ففتح الراء ، وجعله أبو عمرو من راح يريح فكسرها . وقال الكسائي : لم يرخ بضم الياء وكسر الراء جعله من أراح بمعنى راح أيضاً . وقال الأصمعي : لا أدري هو من راح أو من أراح . اهـ .

السموات والأرض الذي أعجز البشر ما فيه من غرائب صنع الله عز وجل . وإن الله تعالى خلق الإنسان بهذا العقل العظيم ، وجعله يتفكر في مصنوعاته تعالى ، ثم جعله يدرك عجزه عن الوصول لأقل شيء من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فما هي الوسائط التي تحمل مثل عرش بلقيس بأقل من طرف العين إلى الشام ؟ وما هي الوسائط التي تحمل رائحة يوسف من مصر إلى الشام ؟

فقد أقسم الله تعالى بالرياح الذاريات للحب ولطلع الثمار والأشجار حتى تلقحها ، وللطائرات والأصوات والروائح ، فإنها تذرو كل شيء لما قدره الله له ، وتحمل الأثقال والأوقار ، وتجري يسير وسهولة هي والمراكب في البحار ، ثم تقسم الأمور وتوزع كل شيء لمحله المقدر له ، فيرشد الله تعالى بهذا القسم إلى هذه الحكم ثم يقول تعالى : إِنَّ الْقَادِرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الطِّفْلَ مَخْلُوقٍ يَحْمِلُ أَثْقَلَ مَخْلُوقٍ هُوَ صَادِقٌ بِوَعْدِهِ فِي نَصْرِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، الَّذِي كَانَ يَكْذِبُهُ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانَ يَقُولُهُ ، لَمَّا يَرُونَ مِنْ ضَعْفِهِ وَفَقْرِهِ الْاِخْتِيَارِي ، وَانْفِرَادِهِ بِمَا يَقُولُ بَيْنَ الْبَشَرِ الْكَافِرِ الْمَعَانِدِ الْقَوِي ، الَّذِي كَانَ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ كُلَّ ضَرَرٍ وَأَذِيَّةٍ . ثم بعد ذلك أيده الله ونصره بما أقسم في هذه الآية ، فرسول الله أطفئ مخلوق ، فصار أقوى مخلوق في الدنيا والآخرة ، وإني والله متعلق بأذياله وأوصاله ، وإن شاء الله لا أحول عن التمسك بجناحه حتى يوصلني إلى جنات ربه بمن الله وكرمه .

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الآية من المتشابهة بما نقله عن عمر رضي الله عنه قال في كتاب « مفصل الاعتقاد » أول الجزء الرابع ما نصه : بل بلغ من مبالغتهم في السكوت عن هذا أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابهة بالغوا في كفه ؛ تارة بالقول العنيف ، وتارة بالضرب ، وتارة بالإعراض الدال على شدة الكراهة لمسألته ، ولذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن صبيغاً يسأل

عن المتشابه أعد له عراجين النخل ، فبينما عمر يخطب قام فسأله عن ﴿الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ۖ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات : ١ ، ٢] وما بعدها ، فنزل عمر فقال : لو وجدتك مملوقاً لضربت الذي فيه عيناك بالسيف ، ثم أمر به فضرب ضرباً شديداً ، وأمرهم أن لا يجالسوه فكان فيهم كالبعير الأجرب لا يأتي مجلساً إلا قالوا عزمة أمير المؤمنين . ففرقوا عنه ، حتى تاب وحلف بالله ما بقي يجدُ مما كان في نفسه شيئاً ، فأذن عمر في مجالسته . اهـ .

فإنَّ صحَّ هذا عن عمر فإننا نؤمن به من غير تفسير ، والله على كل شيء قدير . لكن ذكر القصة ابن كثير في تفسير سورة الذاريات ، وذكر سندها قال : حدثنا أبو بكر البزار ، وحدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا سعيد بن سلام العطار ، حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن الذاريات ذرُوءاً . فقال رضي الله عنه : هي الرياح ، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته . قال : فأخبرني عن المَقْسَمَاتِ أَمْراً . قال رضي الله عنه : هي الملائكة ، ولولا أنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ما قلته . قال : فأخبرني عن الجاريات يُسْراً . قال رضي الله عنه : هي السفن ، ولولا أنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ما قلته . ثم أمر بضربه ، فضرب مائة وجعل في بيت ، فلما برئ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله على قَتَب ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : امنع الناس من مجالسته . فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى رضي الله عنه فحلف بالآيمان المغلظة ما يجدُ في نفسه مما كان يجدُ شيئاً . فكتب في ذلك إلى عمر رضي الله عنه فكتب عمر : ما إخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس . قال أبو بكر البزار فأبو بكر بن أبي سبرة كُين ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث .

قلت : فهذا الحديث ضعيفٌ رفعه ، وأقربُ ما فيه أنه موقوفٌ على عمر رضي الله عنه ، فإنَّ قصةَ صبيغ بن عسل مشهورةٌ مع عمر رضي الله عنه ، وإنما ضربَهُ لأنه ظهر له من أمرِهِ فيما يسألُ تَعْتَأُ وَعِنَاداً ، والله أعلم .

وقد ذكر ابنُ عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطوَّلةً ، وهكذا فسرها ابنُ عباس وابنُ عمر رضي الله عنهم ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقادة والسُّدِّي وغير واحد ، ولم يحك ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم غير ذلك .

وقد قيل : إنَّ المراد بالذاريات الريح ، وبالحاملات وقرأ السحاب كما تقدم ، لأنها تحملُ الماء كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلَالاً

فأما الجاريات يُسراً فالمشهور عن الجمهور كما تقدَّم أنها السفنُ تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً . وقال بعضهم : هي النجومُ تجري يُسراً في أفلاكها ليكونَ ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ؛ فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والمقسّمات أمراً الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . اهـ .

أقول : فحيث اتفق الجميع على تفسير الذاريات بالريح واختلفوا في الجاريات يسراً ، واتفقوا على المقسّمات أمراً أنها الملائكة ، لكن لم يُسندوا في ذلك حديثاً صحيحاً عن من لا ينطق عن الهوى ، إنما غاية الجميع إسنادها للصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين . فلا أرى مانعاً من حمل الكلِّ على الريح الصادق عليه جميع هذه الأوصاف ، من أنه يذري ويجري يُسِرُّ ويحمل الأوقار والله سبحانه أعلم .

البحث الرابع والعشرون

قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٨٠ : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
وقوله تعالى في سورة الحشر : [٢٤] : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

فما هي الأسماء الحسنى ، وما وجه تسميتها ، وما وجه إعجاز هذه الآية ؟

الجواب أن عادة العرب بكثرة الأسماء دلالتها على شرف المسمى ، وذلك أنهم يلحظون بكل اسم يضعونه أن يكون للمسمى منه حظٌ ونصيب قال ابن مالك في خلاصته :

وبعض الاسماءِ عليه دَخَلَا لِلْمَح ما قَدْ كان عنه نُقْلَا
كالفضل والحارث والنعمان فذكر ذا وحذفه سِيَّانِ
فحذف حرف التعريف وذكره بمثل هذا الموضع سيان من حيث إفادته
التعريف ، لأنه لم يدخل إلا لِلْمَح المعنى الذي نُقِلَ الاسم عنه .

وعلى ذلك لو نظرت في أسماء الله تعالى لوجدت لكل اسم من أسمائه تعالى معنى يقصده الداعي به . فيقول المحتاج للبقاء : يا مُعْطِي ويا رَزَّاق ، ويقول المريض : يا شافي ويا معافي ، ويقول طالب الحاجة : يا ميسر ويا قاضي الحاجات . وهكذا ترى لكل اسم من أسمائه تعالى تجلياً خاصاً وخدمةً من الملائكة يقومون بتنفيذ مراده بإذن الله تعالى . وما من حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا وَجَدَ المضطرُّ لها اسماً من أسمائه تعالى يناسبها ، وكل هذه الأسماء وزراء واسم الذات هو المَلِكُ الجامع لها كلها وهو الله .

وانظر إلى كفار قريش حين اجتمعوا عند أبي طالب عم النبي ﷺ وقالوا لرسول الله ﷺ : إن كنت تريد ملڪاً ملڪناك ، وإن كنت تريد مالا أعطيناك ، وإن كان بك رأيي طلبنا لك من يريقك إلى آخر ما كفروا به . فقال لهم ﷺ : « تُعطوني كلمة واحدة ، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل : لنعطينكها وعشراً مثلها . فقالوا : ما هي ؟ قال : « قولوا لا إله إلا الله » فصَفَّقُوا بأيديهم وقالوا : أيسعنا إله واحد لقضاء حوائجنا ؟ وغفلوا عن تعدد أسمائه تعالى المتجلّي على عباده بما يقتضيه كلُّ منها . وما هذه الآلهة الأحجار التي ينحتونها ويدعونها قاتلهم الله أنى يؤفكون .

فقال تعالى مرشداً لذوي العقول من البشر ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] أي اطلبوا حوائجكم لمساها ، وهو الله بقدر تجلي هذه الأسماء العلية ﴿ وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] أي يميلون بها عن مساها ويلصقونها في غيره ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

البحث الخامس والعشرون

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٢ ، ٢٣] .

فهذه الآية وأمثالها أعظم مثل للإنسان بما يحدث معه من صعاب الأمور المستعصية التي لا يجد من يسند إليه أمرها سوى ربه الذي قدرها عليه .

وحيث أن الله هو خالقه ومعبوده فيبقى مكتوف الأيدي تجاه ربه ، ويسلم الأمر إليه مع حصول السكون والاطمئنان بأنه سوف يخلصه من هذه المآزق والصعاب ، أو سوف يعطيه جزاءها الحسن في دنياه وأخراه .

أما الدهري وما أدراك ما الدهري ؟ فإنه لا يجد من يلومه ، ولا من يسند إليه أمرها ، ولا من يفرج عنه كربها ، ولا من يأمل منه بجزاء عاجل أو آجل إلا بالتدبير . ومتى فسد التدبير لا سبيل للفرج إلا الموت هماً وغماً أو انتحاراً والعياذ بالله من سوء الخاتمة .

قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : ١٥] وحذَف مفعول ﴿ لِيَقْطَعْ ﴾ ليقْدَرُ حَسَبَ الواقعة ، أي ليقطع الوحي إن استطاع ، أو ليقطع المقدَّر عليه إن استطاع ، أو ليقطع ما يقدر على قطعه عنه وغير ذلك . قال ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، وحدثنا حيوة وابنُ لهيعةَ قالا : أخبرنا أبو هانئ الخولاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الجُبلي يقول : سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، وحيوة بن شريح ، ونافع بن زيد ، ثلاثتهم عن أبي هانئ وزاد ابن وَهْب : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح . اهـ .

قال العلماء : والقضاء هو وجودُ جميع الموجودات في اللَّوْح المحفوظ إجمالاً لا تفصيلاً ، والقَدَر هو تفصيل قضائه السابق بإيجادها في المواد الخارجية كما في كتاب : « الأربعين في أصول الدين » لسيدنا الإمام الغزالي رضي الله عنه . وكلاهما غُيِّبَ عن العبد المأمور ، فمن خالف الأمر المعلوم وعمل برأيه ثم احتجَّ بالقَدَر المُعَيَّب المجهول لا شكَّ أنه ساقطُ الاحتجاج عند الله ملومه .

وإنما جُعِلَ القضاء والقدر لإراحة نفس الإنسان اللَّجُوج ، ولدفع اللُّوم

عنه عند من يلوم من أمثاله الذين هم بخطر الوقوع والسقوط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] أي مختال بالنعمة التي أصابته فخور بها. قال عكرمة : ليس أحداً إلا يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

البحث السادس والعشرون

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم : ٢٢] .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ففي هذه الآيات إيقاظ للبشر ، وتنبيه لهم على عجزهم وضعفهم وقدره خالقهم جلّ شأنه وعزّ سلطانه وتعالّت قوته وكبريائه ، ذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وهذه لا شك أنها آية كبرى ومعجزة عظّمت . كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] أي ما في السموات والأرض من العجائب التي لا يعلمها إلا الله .

وقصدنا أن نتكلم في أبحاثنا هذه ما يتفهّمه العالم والجاهل وأمثالنا القاصرون فقال تعالى : ﴿ وَاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ ؛ فمن تفكّر باختلاف الألوان على تعدّد البشر وكثرة أفراده لا يمكن أن يجد أحداً مشابهاً للآخر في كل شيء لا يفرق عنه بلون ولا لسان ولا نغمة ، فاختلفت الألوان والأشكال جعله الله للبصير الذي يميز بالرؤية والنظر وهذا الاختلاف غير مقدور للبشر . ولكن اختلاف اللغات هو قهرٌ لقدرة الإنسان الذي لا يمكنه أن يتفاهم مع أمثاله ممن لا يعرف لغتهم ولا يعرفون لغته ، كأنه مع طائفة من الطيور

والحيوانات الصُّمَّ العُجَم . فأين الإنسان العاقل المدبِّر الحكيم الذي لا يقدر على التفاهم مع مثله إلا بأيام ؟ وما مثله معهم إلا كصُورٍ متحرِّكة صمَّاء ، مع أن الحيوانات العجماوات كلُّ طائفة منها تفاهم مع أمثالها من بني نوعها مهما تباعدت الأقطار . وإنني طفت كثيراً من بلاد العالم واستقرّيتُ كلَّ نوعٍ من أنواع الحيوان ، وتصفّحتُ ما أُطلعت عليه في علم الحيوان ، فوجدتُ خصائصَ الأنواع الحيوانية متشابهةً لا تختلف باختلاف البلدان والأقاليم ، فالنحلُّ هنا كهو في سائر البلاد ، والنملُّ هنا كهو في سائر الأقطار ، وأصناف الطيور من نوعٍ واحد لا تفرق عن بعضها أينما كانت ، وكذا أفراد الحيوان من نوعٍ وصنفٍ واحد متحدةً الغرائز . حتى رأينا في الحرب العامة التي بدأت سنة ١٩٣٩ أن الأمريكيان حُصرت جيوشهم في بعض الجزر حتى اضطروا لأكل الحشيش ، فحصل لهم تَلَفٌ من سُمِّيَّة بعضها ، فأوصل إليهم خبرٌ أن لا يأكلوا من الحشائش والبقول المجهولة إلا ما يأكله الحمار .

فانظر أيها القارئ غريزةَ هذا المخلوق العجيب الذي يُنبئُ اسمه عن بلادته كيف لا يختلفُ في غريزته في أيِّ قطرٍ من الأقطار الأرضية ، لا بشهيقٍ ولا بنهيقٍ ولا بخاصة من خواصه الكثيرة ، مع أن الإنسان يختلف مع غيره باللغة واللهجة والعوائد في بلادٍ شتى وأقطارٍ مختلفة ، بل في بلدةٍ واحدة قد تختلف ألسنتهم وأخلاقهم وعوائدهم ولهجاتهم وغرائزهم ، ومنها اختلاف الألسن في النغمات بحيث يمكن لغير البصير أن يميز فلاناً بمجرد سماع صوته ولهجة كلامه فيكون اختلاف الألوان والأشكال للبصير واختلاف الألسن والنغمات للبصير وغيره .

وقد جعل الله في تركيب الحلزونات الأذني والأهداب المهترئة التي لا تُعدُّ ولا تحصى ، بحيث أنَّ كلَّ هُذْبٍ منها يميز صوتاً من أصوات المخلوقات مهما تشابهت . وإنَّ هذه الأهداب تتعاون في تفريق النغمات تعاونَ حروف

الهجاء . فإن المعاني المؤداة بها غير متناهية مع أن الحروف الهجائية محدودة محصورة في جميع اللغات ، فلو تذكر هذا الإنسان الذي يدّعي العلم والمعرفة أنه لا يمكنه التفاهم مع بني جنسه مع أن الحيوانات تفاهم مع أجناسها علم حينئذ آية الله تعالى في اختلاف الألسن ، وأن الله تعالى قصرَ هذا العجز على الإنسان الذي سخر له كل شيء كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الباقية : ١٣] لِيُقَرَّرَ بعجزه عن إيجاد شيء بسيط يُمكنه من التفاهم مع أمثاله من بني جنسه .

وأما اختلاف العوائد والأطوار باختلاف البلدان والديار فهو داخل في هذا القسم حيث قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٤] . وقد فسرها البعض بما تعاقب على الإنسان من أدوار خلقه ؛ حيث كان نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم طفلاً ثم صبيّاً ثم كهلاً ثم شيخاً ، ونسب ذلك في شرح القاموس للفراء ومثله للأخفش . قال : وقال غيره : أراد اختلاف المناظر والأخلاق وتعدي طوره أي حاله الذي يخصه ، ومما استدركه أيضاً أن الناس أطوار أي أصناف على حالات شتى . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٤] معناه ضروباً وأحوالاً مختلفة . وقال ثعلب : أطواراً أي خلقاً مختلفاً كل واحدٍ على حدة .

وهذا الخطاب في القرآن العظيم للإنسان العاقل المدبّر مما يدل على أن غيره أقلّ اختلافاً منه في أطواره . والسبب أن الله تعالى جعل في الإنسان هذا الجزء الاختياري الذي يقدر به على تدبير أموره وجعل غيره ميسراً مقهوراً له ، فالعالم كله قسمان : مسير ومخير ، فأما المخير فهو من فيه هذا الجزء الشريف وهو العقل ، وأما غيره من جمادٍ ونباتٍ وحيوان فهو مسير .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا

أَوْ كَرَهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿١٢﴾ [فصلت : ١٢] فاتضح من ذلك مؤاخذه الإنسان بالخير والشر وعدم المؤاخذه للحيوان والجماد والنبات لتخيير الأول وتسخير الآخرين ، واتضح معجزة اختلاف الألسنة والألوان والأطوار بأن الإنسان عاجز عن إيجاد تفاهم عامٍّ وغريزة عامة ، وأنَّ الحيوان وكل العجماوات على سنن واحدة وطور واحد ، لا تختلف مهما تناءت بها الأقطار والبلدان .

البحث السابع والعشرون

قال تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٠١] أقول : لقد توصل البشر في علومهم وعلو مداركهم إلى اختراع الطائرات التي هي من أعاجيب الزمان بما تحمله من الأتقال وهي تطير في الهواء بسرعة فائقة مستوفية أسباب الراحة والرفاهية ، ثم الصاروخ السريع الذي يسبق الريح بسيره ، ثم الأقمار الصناعية التي تدور في الفضاء ، ثم الراديو الذي ينقل الأخبار من أول الدنيا إلى آخرها ، ثم التلفزيون الذي يريك الغائب من مسافات شاسعة كأنه أمامك ، ثم الرادار الذي يُخبر بمجيء طائرات الأعداء قبل وصولها ، ثم الغوّاصات التي تجوب أعماق البحار ، ثم المترو الذي هو عبارة عن دنيا ثانية في طبقات الأرض السفلى ثم وثم ، ولكنه عاجز عن إيجاد ذرة من التراب من لا شيء .

فكلُّ ما ذكرنا وكلُّ ما يأتي عبارة عن تحويل مادة إلى أخرى وتغيير شكلٍ لآخر كما قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية : ١٣] ، ولكن الأمر الذي يقفُّ الإنسان حائراً تجاهه ثم يتحدّى الله عباده أن يأتوا بمثله هو الابتداع من لا شيء . هذه قدرة الله التي أعجزت البشر عن إيجاد أحقر شيءٍ في الطبيعة ﴿فَأَرْوِنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾

[لقمان : ١١] . وهذا بعضُ معنى قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] أي مبدعها وخالقها ومنشئها من لا شيء ومسحّرها جميعاً منه أي مبتدأة منه تعالى لا من مادّة سابقة ولا من شيء موجود ، ولو اجتمعت الإنسُ والجنُّ والملائكةُ وسائرُ خلقِ الله أن يوجّدوا ذرّةً من لا شيء لا يمكنهم ذلك . وإني أشاهدُ عظمةَ الله تعالى متجلّية في ذرة الرمل ، كما أشاهدها بأكبر كوكبٍ سيّار ، وكما أشاهدها بأكبر مخلوقٍ حيّ .

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدٌ

ولئن قدّر البشرُ على تحويلِ الموادِّ من شكلٍ لآخر فهم عاجزون عن خلق ذبابة ، بل عن جناح بعوضة إذا قطع منها أن يُعوّضوها عن المقطوع . فإما من صنعت جناح طائفةٍ تحمل الأطنان من الأثقال في الهواء ، هل تستطيع أن تُوجد جناح ذبابة إذا بينَ منها ؟ هيهات هيهات قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا تَسْمَعُونَ لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] وأيضاً إِنَّ عِنَادَ الْكَافِرَةِ الْمُؤَلَّفِينَ عَنْهُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِمُبْدِعِ الْأَشْيَاءِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ أَعْمَى أَبْصَارَ أُولِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُخْتَرَعِينَ عَنْ إِدْرَاكِ عَجْزِهِمْ ، وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنْ الْإِقْرَارِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِشَرَائِعِهِ ، وَشَمَحَتْ أَنْفُسُهُمْ كِبَرًا وَعُتُوًّا عَنِ التَّذَلُّلِ لِمَبْدِئِ الذَّرَّةِ مِنْ لَا شَيْءٍ . قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآةً لَا يَوْمُنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

لئن اخترعوا الطائرات التي تخترق الجوَّ والسحابَ فقد اخترق قبلهم عيسى ومحمدٌ صلى الله عليهما وسلم بدون واسطة إلا قدرة ربِّ الأرباب .

لئن سمعنا أصوات البعيدين عنا من مسافات شتى ورأينا خيالاتهم فقد رأى محمد ﷺ أهل مُوتة وسمع ما جرى معهم ورفعت له أرضهم ، كما رأى النجاشي حين موته ، ورأى الأنبياء ليلة الإسراء بيت المقدس في الأرض وفي السماء ، وسمع سارية صوت عمر حتى تحرّز من العدو . بل أعظم من الصوت والرؤية ؛ شَمَّ يعقوب ریح يوسف حين فصلت العير من مصر ، فهل من مكابر لإنكار آيات الله عز وجل ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴿ [الذاريات : ٢٠ ، ٢١] .

ومنها ومن أبلغ ما طرق سمعي من كلام الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ : لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ إِيْمَانُهَا مُجَدِّدًا ، وَإِنَّمَا قُلْنَا : وَلَمْ تَكْسِبْ فِيهِ خَيْرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ فحيث ذكر تعالى عدم نفعه مع كسب الخير ، فعدم نفعه مع عدم كسب الخير أولى ، فالنفي مسلط على شقي أو المعطوف عليه مقدر والمعطوف المذكور . وكأنَّ بسط العبارة هكذا : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا الْجَدِيدُ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي هَذَا الْإِيْمَانِ الْجَدِيدِ خَيْرًا أَوْ لَمْ تَكْسِبْ ، وهذه الطريقة في بلاغة القرآن كثيرة مع انقسام المعنى المراد منها جلياً ، وهي مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٦] حكاية عن فرعون وخطابه لموسى ، فعبّر عن الأولى بجئت وعن الثانية بالإتيان ، فَإِنَّ الْإِيتَانَ وَالْمَجِيءَ وَإِنْ كَانَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمَجِيءَ يُلَاحِظُ فِيهِ نَقْلَ الشَّيْءِ مِنْ جَانِبِ الْمَبْدَأِ ، وَالْإِيتَانَ يُلَاحِظُ فِيهِ إِصْصَالُهُ إِلَى الْمُنْتَهَى ، فَإِنْ مَبْدَأُ الْمَجِيءِ هُوَ جَنَابُ الْمَرْسَلِ ، وَمُنْتَهَى الْإِيتَانِ هُوَ الْمَرْسَلُ إِلَيْهِ . صرّح به في « روح البيان » ومما يزيد الناظر إعجاباً أَنَّ هَذَا آتَى بَعْدَ قَوْلِ مُوسَى

صلوات الله عليه : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [الأعراف : ١٠٥ ، ١٠٦] فَأَيُّ لُغَةٍ فِي الْعَالَمِ يَلَاحِظُ بِهَا هَذِهِ الْفُرُوقَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ ؟! وَيُقَالُ عَنِ التَّرَادُفِ : إِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَتْ افْتَرَقَتْ وَإِذَا تَبَاعَدَتْ تَقَارَبَتْ .

البحث الثامن والعشرون

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجُنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] ، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

في « روح البيان » تحت هذه الآية : هل يجوزُ أَنْ يُقَالَ بَعْضُ كَلَامِ اللَّهِ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ ؟

قال الإمام السيوطي في « الإتقان » : جَوَّزَهُ قَوْمٌ لِقِصُورِ نَظَرِهِمْ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : هَذَا الْكَلَامُ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، أَنَّ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ لَهُ حُسْنٌ وَلُطْفٌ وَبِلَاغَةٌ ، وَذَاكَ فِي مَوْضِعِهِ لَهُ حُسْنٌ وَلُطْفٌ ؛ وَهَذَا الْحُسْنُ فِي مَوْضِعِهِ أَكْمَلُ وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ إِنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أَبْلَغُ مِنْ ﴿ تَبَّتْ يَدَايَايَ ﴾ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ ﴿ تَبَّتْ يَدَايَايَ لَهَبٍ ﴾ دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْخُسْرَانِ ، فَهَلْ تَوْجَدُ عِبَارَةً لِلدَّعَاءِ بِالْخُسْرَانِ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ ، وَكَذَلِكَ فِي

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لا توجد عبارة تُدُلُّ على وحدانيته أبلغ منها ، فالعالم إذا نظر إلى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ في باب الدعاء بالخسران ، ونظر إلى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر .

وقال بعض المحققين : كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره ، فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أفضل من ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ؛ لأن فيه فضيلة الذكر ، وهو كلام الله ، وفضيلة المذكور وهو اسم ذاته وتوحيده وصفاته الإيجابية والسلبية ، وسورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا ﴾ فيها فضيلة الذكر فقط وهو كلام الله تعالى .

قال الغزالي في « جوهر القرآن » : ومن توقّف في تفضيل الآيات أوّل قوله عليه السلام : « أفضل سورة » ، « وأعظم سورة » بأنه أراد في الأجر والثواب لا أن بعض القرآن أفضل من بعض فالكل في فضل واحد ، والتفاوت في الأجر لا في كلام الله تعالى من حيث هو كلام الله القديم القائم بذاته تعالى . اهـ .

يقول الفقير جامع هذه المجالس النفيسة : قولهم : إن هذه الآية في غاية الفصاحة . كما قال القاضي عند قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ [هود : ٤٤] يشعر بجواز القول بالتفاوت في طبقات الفصاحة كما عليه علماء البلاغة . اهـ .

البحث التاسع والعشرون

فوائد تتعلق بإعجاز القرآن من قبل البلاغة

قال تعالى في حق فرعون حين أغرقه حكاية عنه : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : ٩٠] أشار سبحانه إلى عدم اكتمال إيمان هذا الكافر حيث إنَّ العُتُوَّ والكِبْرَ حملاه أن جعل بني إسرائيل بمنزلة الإناث حيث قال ﴿ آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ، وفصاحة كلام الله وبلاغته أعلى من أن يُدرَكها بشر

إلا بعض من يلهمه الله اليسير منها ، وكم كلمة أو لفظة قالها فرعون حتى أدى ذلك لمعنى لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولكن الله أشار إليه بهذه التاء التي تفيد ذلك ، مع أن القواعد النحوية تقضي بعدمها لاسناد الفعل إلى مذكر عاقل . نعم قد يتسامح بأنه ملحق بجمع المذكر ، وقد يتسامح بالفصل أيضاً بالجار والمجرور كما قال ابن مالك ، وقد يبيح الفصل ترك التاء وهنا بالعكس أباح الفصل ذكرها بمعجزة الإيجاز ، وإيضاح حال هذا الكافر .

وانظر قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣٠ ، ٣١] .

حيث أمر الله بالغض من الأبصار إشارة إلى جوازه عند الحاجة ، فانظر لهذه الإشارة بـ « مِنْ » المفيدة لبعض الأحوال ، والله عليم بكل حال . ذكره ابن القيم في كتابه « روضة المحبين » في الباب السادس في أحكام النظر وغائلته ، وما يجني على صاحبه . ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ حيث لم تدخل « مِنْ » هنا إشارة للفرق بين الفروج وغيرها ، حيث لا يساح النظر إليها إلا عند الضرورة الملحة والحاجة القصوى ، من خوف هلاك أو مرض لا دواء له إلا الملمس والمعالجة ، بخلاف النظر المذكور فإن مبيحاته أكثر وأمره أيسر . والله أعلم .

من ذلك قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : ٤] فقد ذكر السيد أحمد الساعاتي في كتابه « البرهان في إعجاز القرآن » أن المؤرّج السدوسي سأل الأخفش عن سبب حذف الياء من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، فقال : لا أجيبك حتى تنام على بابي ليلة . ففعل ، فلما أصبح قال الأخفش : إن عادة العرب إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسري بل يسرى فيه نقص منه حرف .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قال الصاوي : إنما عبّر بالليالي دون الأيام مع أن الصيام في الأيام ، لأن موسى كان صائماً تلك المدة ليلاً ونهاراً مواصلاً ، وحُرْمَةُ الوصال على غير الأنبياء . فعبّر بالليالي لدفع توهم اقتصاره على صوم النهار فقط .

قال المفسرون : إن موسى عليه الصلاة والسلام وَعَدَ بني إسرائيل إذا أَهْلَكَ اللهُ تعالى عدوَّهم فرعونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بكتابٍ من عند الله فيه بيانُ ما يَأْتُونَ وما يَذَرُونَ . فلما أَهْلَكَ اللهُ فرعونَ سأل موسى رَبَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عليه الكتاب الذي وَعَدَ بني إسرائيل ، فأمره أَنْ يَصُومَ ثلاثين يوماً فصامها فلما تَمَّتْ أَنْكَرَ خُلُوفَ فِيهِ فاستاكَ بِعُودٍ خُرْنُوبٍ ، وقِيلَ أَكَلْ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ ، فقالت الملائكة : كنا نَشْمُ مِنْ فِيكَ رائحةَ المسك فأفسدتهُ بالسَّوَاكِ ، فأمر الله أَنْ يَصُومَ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ ، فكانت فِتْنَةً لبني إسرائيل في تلك العَشْرِ . اهـ .

وقد ذكر في مقدمة الكتاب معنى قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] من استنتاج السادة العارفين رضي الله عنهم وعنا بهم .
قال تعالى : ﴿ إِنْ اللهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

وقد أمرت الآية بثلاثة أمور ونهت عن ثلاثة أشياء هنَّ معيارُ الدنيا والآخرة ؛ فثلاثة المأمورات : العَدْلُ والإِحْسَانُ وإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى ، وثلاثة المنهيات : الفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ وَالْبَغْيُ . ونفصل ذلك بعض التفصيل فنقول :

قال العلماء : لو لم يكن في القرآن غيرُ هذه الآية لَكَفَتْ في البيان والهدى والرحمة ، لأنها آمرةٌ بكلِّ خير ، ناهيةٌ عن كلِّ شرٍّ كما في الصاوي . وذلك أَنَّ العَدْلَ التَّوْحِيدُ وَخَلْعُ الْأَنْدَادِ فِي جَانِبِ الْأُلُوهِيَةِ ، والعَدْلُ اعتقادُ اتِّصَافِ

الإله بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص ، والعدل في الاعتقاد أن نسبة الأفعال إلى الله والكسب إلى العبد ، ليكون مؤاخذاً بأفعاله لا نسبتها بأجمعها إلى الله بحيث يكون العبد كالخيوط المعلقة بالهواء ، وأن تعذيب العبد ظلم وافتراء ، لأن هذا كفر والتواء للفرق الظاهر بين فعل الاختيار وفعل المرتعش بالاضطرار . فهذا نسبته إلى الله بجميع أطرافه ؛ كفعل النائم وقوله ، وفعل المجنون وقوله ، وفعل المعتوه وقوله ، فهؤلاء كالخيوط المعلقة بالهواء ، بخلاف العاقل البالغ اليقظ المدبر . وإلا لفسد الكون من جميع الأنحاء . والعدل في المعاملات هو إعطاء الحقوق ، وعدم الظلم والاعتداء بحيث لا يحتاج للخصومة والقضاء ، والعدل في الحياة ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] والعدل في الميثاق إيفاء القسم بين الزوجات ، والعدل بين الناس نصرُ المظلوم وردع الظالم ، والعدل بين الإخوان حسنُ الخلق والتسامح والتغاضي عن الزلات كما قيل :

ولست بمستبقٍ أحداً لا تلمه على شعثٍ أي الرجال المهذب

والحاصل أن العدل مرآة ينطوي تحتها انتظام الوجود . فالله سبحانه يأمر به من جملة المأمورات العظيمة التي تضاهيه كإحسان ؛ وهو الذي فسره الرسول الأعظم ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) ؛ أي أن تكون بمقام المشاهد كأنك تراه ، فإن لم تحظ بهذه المرتبة فلاحظ أنه يراك وهو مقام المراقبة . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ لأنَّ الرحم معلقة بالعرش تقول : اللهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني . قال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٦] . وإيتاء القريب صلته إما بالمال بدون تبذير ، وإما بالسؤال عنه ونصره

(١) رواه مسلم .

على الحق وتفقد أحواله ، فهذا قسم المأمورات جمع الله فيه كل خير .

ثم بدأ سبحانه بالنهي فقال : ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ [النحل : ٩٠] وهو الزنى . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

والمنكر هو الكفر ، وسائر المعاصي من المنكرات ، فهو تعميم بعد تخصيص .

وأما البغي فهو الظلم ، سواء كان ظلم الناس أو ظلم كل شيء من مخلوقات الله عز وجل ففي الحديث : « لو أن جبلين بغي أحدهما على الآخر لانتقم الله من الباغي . وإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

قال ابن كثير وقد جاء في الحديث : « ما من ذنب أجدد أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ١١٢] .

قال الصاوي : روي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال : أعدها يا محمد ، فلما قرأها قال : إن له حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر . ولكونها أجمع كلام في المأمورات والمنهيات استعملها الخطباء في آخر الخطبة . أي كأنها جمعت ما تكلم به الخطيب في كل موضع توخاه ، وزادت عليه كثيراً وكثيراً مما تضمنه وجازة لفظها وازدحام معانيها . وتلافياً لما عساه ينساه

(١) رواه البخاري في الأدب ، وأحمد في المسند ، والترمذي وأبو داود .

الخطيب من تلاوة آية في إحدى الخطبتين فإنه من أركان الخطبة عند الشافعية .

قال ابن كثير : قال الشعبي عن بشير بن نهيك ، سمعتُ ابن مسعود يقول : **إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠]** قال : وقال الحافظ أبو يَعْلَى في كتاب « معرفة الصحابة » : حدثنا أبو بكر محمد بن فتح الحنبلي ، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم ، حدثنا الحسن بن داود المنكدرى ، حدثنا عمر بن علي المُقَدَّمي ، عن علي بن عبد الملك بن عمير ، عن أبيه قال : بلغ أكنثم بن صيفي مخرجُ النبي ﷺ فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا ، لم تكن لتخفَّ إليه . قال : فليأتني من يسلِّغه عني ويبلغني عنه . فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا : نحن رسل أكنثم بن صيفي ، وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ : « أَمَّا مِنْ أَنَا فَأَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَمَّا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠]** . قالوا : ردَّد علينا هذا القول . فردَّده عليهم حتى حفظوه . فأتيا أكنثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب ، وسطاً في مُضَر ، أي شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها . فلما سمعهنَّ أكنثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملاممها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذناناً .

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثني عبد الله بن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ مرَّ به عثمان بن مظعون فكشَّر إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا تجلس ! » قال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسولُ الله ﷺ ببصره إلى السماء ،

فَنظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ ، فَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينِهِ فِي الْأَرْضِ فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عَثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ ، فَأَخَذَ يُنْغِضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْقِهِ مَا يَقَالُ لَهُ ، وَابْنُ مَطْعُونٍ يَنْظُرُ ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ وَاسْتَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ ، شَخَصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَصَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاتَّبَعَهُ بَصَرُهُ حَتَّى تَوَارَى إِلَى السَّمَاءِ ، فَأَقْبَلَ إِلَى عَثْمَانَ بِجَلِيسَتِهِ الْأُولَى فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فِيمَا كُنْتَ أَجَالِسُكَ مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ كَفَعْلِكَ الْغَدَاةَ . فَقَالَ : « وَمَا رَأَيْتُنِي فَعَلْتُ ؟ » قَالَ : رَأَيْتُكَ شَخَصَ بَصَرُكَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي ، فَأَخَذْتَ تُنْغِضُ رَأْسَكَ كَأَنكَ تَسْتَفْقُهُ شَيْئاً يَقَالُ لَكَ ، قَالَ : « وَفُطِنْتَ لَذَلِكَ » ؟ فَقَالَ عَثْمَانُ : نَعَمْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْفَاءً وَأَنْتَ جَالِسٌ » . قَالَ : رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : فَمَا قَالَ لَكَ ؟ قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠] الْآيَةَ قَالَ عَثْمَانُ : فَذَلِكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا ﷺ .

إِسْنَادٌ جَيِّدٌ مُتَّصِلٌ حَسَنٌ قَدْ بَيَّنَّ فِيهِ السَّمَاعُ الْمُتَّصِلُ . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَهْرَامٍ مُخْتَصَرًا .

قَالَ ابْنُ أَمِيرٍ حَاجٍ فِي شَرْحِهِ التَّقْرِيرِ عَلَى تَحْرِيرِ شَيْخِهِ الْكَمَالِ بْنِ الْهَمَامِ فِي الْمَقْدَمَةِ قَالَ : وَمِنْ ثَمَّةٍ تَدَاوَلَ النَّاسُ إِعْجَازَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وَعَجَبُوا مِنْ وَجِيزِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَاصْذُغْ بِمَا تُوَمَّرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] ، وَمِنْ اخْتِصَارِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ .. ﴾ [هود : ٤٤] الْآيَةَ . وَقَالُوا : إِنَّهَا أَخْصَرُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْسَنُوا اخْتِصَارَ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، حَيْثُ جُمِعَ فِي هَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمَطْعُومَاتِ وَالْمَلْبُوسَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَلِفَضْلِ الْاِخْتِصَارِ عَلَى الْإِطَالَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلم اختصاراً »^(١) . وقال الحسن بن علي : خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل . غير أن للإطالة موضعاً تحمده فيه ، ولذلك لم يكن جميع كتاب الله الكريم مختصراً .

أما قوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصص حیاة ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

حياة مبتدأ ، ولكم خبر أول ، وفي القصص خبر ثانٍ ، أي حياة لكم في القصص .

فقد حوت هذه الآية من البلاغة ما أعجز البشر عن معارضتها ، فمنها أخذ فرعي الإيجاز ويُسمى في علم المعاني إيجاز القصر ؛ أي الذي ليس فيه حذف ، وهو ما يؤدي المعنى بدون حذف شيء ولا تقدير شيء ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصص حیاة ﴾ ؛ أي في نفسه وذاته لا في مشروعيته ، وإلا يكون إيجازاً بالحذف نحو قوله تعالى : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يونس : ٨٢] : أي أهل القرية .

وهذه الآية معناها كثيرٌ ولفظها قليل ، وذلك أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعياً له أن لا يقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الذي هو القصص كثيرٌ من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان بارتفاع القتل حياة للمظلوم الذي يقصد قتله ، وحياة لأهل القاتل بشفاء غلتهم .

أما اعتبار متعلق الظرف أو الظرفين فهو أمرٌ صناعي ، حتى لو ذكر كان حشواً . ولو قيست الآية بما يقابلها من أوجز كلام يُفقد معناها لفُضلت على ما كان عند الفصحاء في هذا المعنى وهو قولهم : القتل أنفى للقتل . حيث يظهر الفرق والإعجاز الصريحان بقلّة حروف الآية ، لأن المراد منها القصص حياة ، وهو مع التنوين أحد عشر حرفاً ، وحروف القتل أنفى للقتل أربعة عشر

(١) رواه العسكري عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلًا .

ملفوظاً ، إذ بالعبارة يتعلّق الإعجاز لا بالكتابة وحيثُ لا تحسب ياء « في »
ولا همزة أل ، فتحقق الإعجاز بالآية بدون حذف ، ونصّها بها على المطلوب
وهو الحياة . وبذلك فُضِّلَت الآية على ما يفيد معناها من قول البلغاء بوجوه :

١ — وجازة اللفظ .

٢ — بما يفيد تنكير لفظ « حياة » من التعظيم .

٣ — ما يفيد لفظ « القصاص » أنه بمقابلة قتل جناية وظلم .

٤ — ما يفيد لفظ « القصاص » من الاختصار على الجاني دون ما يعتاده
الجاهلون من التعدي على الغير .

٥ — التنصيص على الحياة بإقامة الحدود .

٦ — ما يفيد لفظ « القصاص » من الاطراد أنه كقاعدة دائمة لا تستفاد
من قولهم القتل أنفى للقتل .

٧ — خلو الآية عن التكرار الموجود بما يقابلها من كلامهم القتل أنفى
للقتل لأن عدمه أولى من وجوده .

٨ — استغناء الآية عن محذوف يصح المراد بخلاف قولهم لاحتياجه
أن يقال فيه القتل بحق أنفى له بغير حق .

٩ — اشتمال الآية على المطابقة ؛ وهي الجمع بين معنيين متقابلين في
الجملة كالقصاص والحياة . فسبحان من أعجزَ كلامه البشر .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف : ٨٠] فَإِنَّ
السين والتاء للطلب ، وطلب الشيء لا يكون إلا بعد البحث عنه والتحرّي عن
سببه ، فتدلُّ السين والتاء هنا على شدة تحرّيهم وطلبهم لسبب يأسيهم ، ثم إنَّ
زيادة المَبْنَى تدلُّ على زيادة المعنى ، وهو معنى من قال : إنهما زيدتا

للمبالغة . ثم الخلوص يشعر للتقدم شعرة عليه حتى يقال : خلص من الأمر ، ونجياً أي متناجين متشاورين في هذا الأمر العظيم الذي دهاهم وأفرد « نجياً » لصلوحه للمفرد والجمع إشارة إلى توحيد كلمتهم في ما يقولون .

وفي « السيرة الحلبية » في باب ذكر نبذ من معجزاته ﷺ قال : ومن ثمَّ لما جاء الوليد بن المغيرة وكان المقدم من قريش بلاغةً وفصاحةً ، وكان يقال له : ريحانة قريش ، قال للنبي ﷺ : اقرأ عليّ . فقرأ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال له : أعده . فأعاد ذلك ، قال : والله إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإنَّ أسفله لمغْدِق ، وما يقول هذا بشر ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه . وفي رواية قرأ عليه : ﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ .. ﴾ [غافر : ١-٣] الآيات ، فانطلق حتى أتى منزل أهله بني مخزوم فقال : والله كلامُ محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ ، وإنَّ له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدِق ، وما يقول هذا بشر ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه . ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : قد صَبَأَ الوليد ، والله لتصبأَنَّ قريشٌ كُلُّها . فقال أبو جهل لعنه الله : أنا أكفيكموه . ففقد على هيئة الحزين ، فمرَّ به الوليد فقال له : مالي أراك كهيئاً ؟ قال : وما يمنعني أن أحزنَ وهذه قريش قد جمعوا لك نفقةً ليعينوك على أمرك ؟ وزعموا أنك إنما زينتَ قولَ محمدٍ لتصيب من فضل طعامه . فغَضِبَ الوليدُ وقال : أوليس علمتَ قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل يشبُّعُ محمد وأصحابه من الطعام ؟ فانطلق مع أبي جهل حتى أتى مجلسَ بني مخزوم فقال : هل ترعمون أنَّ محمداً كذاب ، فهل رأيتموه كذبكم قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : فتزعمون أنه مجنون ، هل رأيتموه خرّفكم قط ؟ - أي أتى بالخرافات من القول - قالوا :

لا . قال : ترعمون أنه كاهن ، فهل سمعتموه يُخبر بما تخبر به الكهنة ؟
قالوا : لا . فعند ذلك قالت له قريش : فما هو يا أبا المغيرة ، فقال : إن هذا
إلا سحرٌ يؤثر . اهـ .

وفي تفسير ابن كثير أول سورة فُصِّلَتْ ما نصَّه : قال الإمام العالم عبدُ بن
حُميد في مسنده ، حدثني ابنُ أبي شيبَةَ ، حدثنا علي بن مُسهر عن الأجلح عن
الزيال بن حَرَمَلَةَ الأَسدي ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : اجتمعت
قريشُ يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليات هذا
الرجل الذي فرَّق جماعتنا وشَتَّت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلِّمهُ ، ولننظرُ ماذا
يردُّ عليه . فقالوا : ما نعلمُ أحداً غير عُتْبَةَ بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد .
فأتاه عُتْبَةُ فقال : يا محمد ، أنت خيرٌ أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ .
فقال : أنت خيرٌ أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ . فقال : إن كنتَ
ترعمُ أنَّ هؤلاء خيرٌ منك فقد عبدوا الآلهة التي عبْت ، وإن كنتَ ترعمُ أنك
خيرٌ منهم فتكلِّم حتى نسمع قولك ، وإنا والله ما رأينا سخلةً قطُّ أشأمَ على
قومك منك ، فرَّقَت جماعتنا وشَتَّت أمرنا ، وعبتَ ديننا وفَضَحْنَا في العرب ،
حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما نتظرُ إلا
مثل صبيحة الحُبلى أن يقوم بعضُنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى . أيها الرجل
إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان
إنما بك الباءة فاختر أيَّ نساءِ قريش شئت فلنزوجك عشراً . فقال رسول
الله ﷺ : « فرغت » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ حم * تنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١-١٣] فقال عُتْبَةُ : حسبك حسبك
ما عندك غير هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ : « لا » . فرجع إلى قريش فقالوا :
ما وراءك ؟ قال : ما تركتُ شيئاً أراكم تكلمون به إلا كَلَّمْتُهُ ، قالوا : فهل

أجابك ؟ قال : نعم ، لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قاله ، غير أنه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمود . قالوا : ويلك يكلّمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ! قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسنادٍ مثله سواء . وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي - وقد ضعف بعض الشيء عن الزيّال بن حرملة ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، فذكر الحديث إلى قوله : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ » ، فأمسك عتبة على فيه وناشدته الرّجيم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم . فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَّأَ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته . فانطلقوا بنا إليه فانطلقوا إليه . فقال أبو جهل : يا عتبة ، ما حبسك عنا إلا أنك صَبَّأت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فَإِنْ كَانَتْ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ طَعَامِ مُحَمَّدٍ . فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلّم محمداً أبداً وقال : والله لقد علمتم أنني من أكثر قريش مالاً ، ولكنني أتيتُه وقصصتُ عليه القصة فأجابني بشيءٍ والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ » ، فأمسكتُ بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فحشيتُ أن ينزلَ بكم العذاب . وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى والله تعالى أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحق بن يسار في كتاب « السيرة » على خلاف هذا النمط ثم ساقها ابن كثير .

ثم ذكر في « السيرة الحلبية » أن أعرايياً سمع رجلاً يقرأ : « فاضدغ

بِمَا تُؤْمَرُ ﴿ [الحجر : ٩٤] فسجد ، فقليل له في ذلك ، فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام . وسمع آخر رجلاً يقرأ : ﴿ فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف : ٨٠] فقال : أشهد أن مخلوقاً لن يقدر على مثل هذا الكلام .

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سُورِهِ وقد أوتي من الفصاحة والبلاغة الحظَّ الأوفى ، فسمع صبيّاً يقرأ ﴿ وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [هود : ٤٤] ، رجع عن المعارضة ومحا ما كتبه ، وقال : والله ما هذا من كلام البشر . وقد قال بعض بطارقة الروم لما أسلم لعمر رضي الله عنه : والله إن آية ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ ﴾ [النور : ٥٢] جمعت جميع ما أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام من أحوال الدنيا والآخرة .

قلت : وقد عزا بعضُ المفسرين حكاية معارضة القرآن وأنه سمع ﴿ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ ﴾ ، الآية لابن المقفع والله أعلم .

قال الصاوي : قال بعضهم هذه الآية أبلغ آية في القرآن لاحتوائها على واحدٍ وعشرين نوعاً من أنواع البديع ، والحال أن كلماتها تسعة عشر . قال في كتاب « إعجاز القرآن » لأحمد فوزي الساعاتي استخراج منها ابن أبي الأصبغ أنواعاً كثيرةً وهي :

- ١ — المناسبة التامة بين ﴿ أَقْلِعِي ﴾ و﴿ ابْلُغِي ﴾ .
- ٢ — والمطابقة اللفظية بين : ﴿ الأرض ﴾ و ﴿ السماء ﴾ .
- ٣ — والمجاز في قوله تعالى : ﴿ يَا سَمَاءُ ﴾ والمراد مطر السماء .
- ٤ — الاستعارة في قوله : ﴿ أَقْلِعِي ﴾ .
- ٥ — الإشارة في قوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ .

- ٦ — والتمثيل في قوله : ﴿ وَقَضَى الْأَمْرَ ﴾ .
- ٧ — والإرداف في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ .
- ٨ — والاحتباس في قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ احتباساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك شَمِلَ مَنْ يستحق ومن لا يستحق . اهـ .
- ٩ — قلت : والقول مجاز عن الإرادة بعلاقة نسبها له .
- ١٠ — وفي الآية استعارة مكنية حيث شبهت الأرض والسماء بالعقلاء .
- ١١ — والنداء استعارة تخيلية هي القرينة .
- ١٢ — ثم رشحت بالأمر .
- ١٣ — والبلع لاختصاص الحيوان به ترشيح على ترشيح .
- ١٤ — وقيل إن مجموع نظم القصة استعارة تمثيلية حيث شبهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرة الله تعالى على ما انفجر من الأرض إلى بطنها ، وقُطِع طوفان السماء بالهيئة المنتزعة من الأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه ، ثم إيراد الأخبار على البناء للمجهول للدلالة على تعظيم الفاعل وأنه متعین في نفسه مُسْتَغْنَى عن ذكره إذ لا يذهب إلى غيره بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار ، انظر البيضاوي والشهاب . وفيها :
- ١٥ — الجنس اللاحق وهو اختلاف ﴿ ابلعي ﴾ و ﴿ ألقعي ﴾ بالباء والقاف فقط وهو مثل سعيد بعيد ، وعابد عابت .
- ١٦ — وفيها الطباق المعنوي لأن ﴿ ابلعي ﴾ إدخالٌ و ﴿ ألقعي ﴾ إخراج وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] لأن الشدة ضد الرحمة .
- ١٧ — وفيها الاستطراد ، وهو قوله تعالى : ﴿ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنه

كلامٌ أجنبي بين كلامين متماثلين . فَإِنَّ مَا قَبْلَ ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] وما بعدها قصةٌ واحدة وهذه كلماتٌ أجنبية استطردت فيها .

أما تفصيل بعض ذلك أنه أتى بـ ﴿قِيلَ﴾ استعظماً لأمر القائل ، ونودي بـ ﴿يَا أَرْضُ﴾ بدون إضافة تحقيراً لها مع احتمال أن لا يكون قولاً وإنما هو مجرد إرادة كما في قوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهو كناية عن سرعة الإجابة بالتسخير وليس متوقفاً على حقيقة الخطاب .

١٨ — وأيضاً في ﴿قِيلَ﴾ مجاز في مخاطبة الأرض مخاطبة العقلاء ، كما في قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، والقرينة أن الأرض جماد .

١٩ — ومجاز أيضاً في البلع على سبيل الاستعارة لأن حقيقته إنما هو للغذاء والخطاب بالأمر ترشيح للاستعارة .

٢٠ — وفي قوله تعالى : ﴿ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ إشارة إلى ارتداد ما خرج من الأرض إليها وما حصل من المجاز في ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ يحصل في ﴿يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾ بتنزيلها منزلة العاقل . إنما لم يقل تعالى : أقْلَعِي عن مائك كما قيل ابلعي مائك لأن البلع فعل والإقلاع ترك ، واكتفى بـ ﴿قِيلَ﴾ مرة واحدة اختصاراً وبلاغة .

وإنما صرح بالمفعول وهو الماء خوفاً من البداء بأن تبتلع الجبال والأشجار وما عليها ، كما قال تعالى : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ . فإنه لو لم يقل وسلاماً لم ينتفع بها لشدة بردها . وأما ﴿غِيضٌ﴾ فهو تصديق لابلعي وأقْلَعِي لإعلام حقيقة التسخير .

٢١ — وفيه إيجاز أي بلعت وأقْلَعْتِ ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ أي فَضْرِبْ فانفجرت وكان غِيضُ الْمَاءِ نتيجة امتثال الآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي بإهلاكهم وإما بحصول الحوادث ، ثم قال : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ دلالة على استقرارها وخروجهم منها إليه .
وقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إشارة إلى عظم الغضب واستحقاق العقوبة الأبدية .

وإنَّ كلَّ ملاحظةٍ أو نُكْتَةٍ مما ذُكر يلاحظ السؤال عنها والآية على وجازة لفظها كأنها صريحة في أجوبة كلِّ ما يلاحظ من الأسئلة .
ثم إنَّ أولَ القصَّة دالٌّ على العذاب فاختمها الله بما ابتدأها به فقال : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ والحمد لله ربِّ العالمين .

ومن ذلك ما في سورة الكهف من قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : ٧٩] .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْ زَكَةٍ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف : ٨١] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُلْفَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : ٨٢] .

ما في هذه الآيات من إشارة البلاغة التي لا يُدرَكها إلَّا من أَلْهِمَهُ الله تعالى . ففي هذه الآيات أربعة أشياء : إساءتان وإحسانان ، فنسب الخضر عليه السلام لنفسه الإساءتين ، ونسب لربه عزَّ وجلَّ الإحسانين ، قال في « روح البيان » أول سورة الأحزاب تحت قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ : وأما أدب الإضافة فهو مثل قول الخضر عليه السلام ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ وذلك للاشتراك بين ما يحمد ويُذمَّ وقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ لتخليص المحمَّدة فيه فإنَّ الشيء الواحد يكتسبُ ذمًّا بالنسبة إلى جهة ، ويكتسبُ حمداً بالإضافة إلى جهةٍ أخرى وهو بعينه . اهـ .

قلت فالشيء الأول المذمة نسبها لنفسه بقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ،

والثانية : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ ﴾ نسب مذمة القتل لنفسه ومدح إبداله بخير منه إلى الله ، فتمت له مذمتان تأدباً وثناءً لربه عز وجل ، والمدح الثاني قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُلْغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ ولم يعرّج على مَحْمَدَةَ نَفْسِهِ بِإِقَامَةِ الْجِدَارِ فَافْهَمْ واعلم ..

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أي بدل الغضب ليكون النصح أقرب للقبول ، ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ بما قرب مما يعرفون ويألفون ليكون أدعى للقبول أيضاً . ولما كان كالمعترض على المنصوح فربما بدر من بعضهم ما يكون ردّاً لجهله بما يترتب على النصيحة أو لعناده ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال جعفر الصادق رضي الله عنه : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها . أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] فتلك لها تعلق بالأحكام أيضاً ، ولكن هذه الآية أجمع لمكارم الأخلاق من كل كلام .

أخرج البخاري في صحيحه من كتاب التفسير عن ابن عباس قال : إن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هيه يا ابن الخطاب ، فوالله ما تُعطينا الجزل ولا تحكّم فينا بالعدل . فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] . قال ابن عباس : والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل .

من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة [٤٠] : ﴿ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ

يقول لصاحبه لا تحزن ﴿ فالتعبير بقوله ﴿ لا تحزن ﴾ إشارة عظيمة لثبات أبي بكر وبلاغته أعظم لنفي الخوف عنه ، لأن الخوف شيء يُدخل النفس على النفس ، وأما الحزن فشيء آخر من أمر مزعج على الغير ، فأبو بكر رضي الله عنه لا يخاف ولم يخف ، لأنَّ حاله مع الرسول الأعظم ﷺ من مشيه أمامه مرة ومشيه خلفه مرة ، ثم حمله على ظهره ، ثم سبقه لدخول الغار ، ثم سده ثقب الغار ، وجميع أمره دليل على عدم خوفه وحبه أن يفدي الرسول الأعظم ﷺ بنفسه من كل أمر مخوف ، فلذا قال له ﷺ : « لا تحزن » أي لا يُدْخِلْكَ حُزْنٌ عَلَيَّ « فالله معنا » فرضي الله عنه وصلى الله على سيده وسيدنا وحبيبنا وسلم .

ومن بلاغات الكتاب العزيز ما في سورة النور من الآيات المبرئة لعائشة الصديقة أم المؤمنين بنت الصديق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه وزوجة سيد الأنبياء وحبه ﷺ وعليهم أجمعين . وهي قوله تعالى :

﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾ [النور : ١٢] .

حيث تدل هذه الآية على براءة الصديقة بأبلغ وجه وأعظمه ، مع تأديب وتعليم لكل من سمع خيراً أو أثنه وشاية عن أحد ، حيث إنَّ المقام هنا مقام تنزيه الطاهرة أم المؤمنين ، فكان ينبغي أن يقال : لولا إذ سمعتموه كذبتموه أو استبعدتموه أو نحو ذلك فكما جاء في كلام الله تعالى أن يظن المؤمنون المتكلمون والسامعون بأنفسهم خيراً وهلاً كان الأولى الاقتصار على نفي الريية عنها وتنزيهها فقط .

ولكن بلاغة كلام الله تعالى فوق كل خاطر وأعلى من كل ما تخطر مناسبتة على العقل والفكر .

ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يقيس الخبر على نفسه ، هل يمكن أن يصدر أو يحصل منه ؟ فإذا كان يستبعد أن يصدر أو يحصل منه كيف يتصور صدوره من مثل هذه الصديقة ؟ فينبغي للإنسان أن يظن بنفسه خيراً وقيس مثل أم المؤمنين على هذا الظن الخير ، كما ظن ذلك أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، حيث قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس عن عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب أكنيت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قاله الإمام محمد بن إسحق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بني النجار . وقال محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبي حبيب ، عن داود بن الحصين ، عن أبي سفيان ، عن أفلح مولى أبي أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟... إلخ ذكره ابن كثير في تفسيره والله أعلم .

وانظر إلى آية الأعراف [٣٢] وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . حيث أفهم تعالى بقوله خالصة أنها للمؤمنين لا يشاركهم بها الكفار كما شاركوهم في الدنيا ، ولم يذكر الكفرة أيضاً بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى أن الكفرة ليسوا مقصودين في هذه الحياة ، وإنما هم تبع ولا ينالون منها شيئاً في الآخرة .

من ذلك ما في سورة الأنبياء [٢٧] في مدح الملائكة قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ وبيان إعجازها يتعلق بمقدمة هي : أن الحبيب لا يلتذ إلا بما يلتذ به محبوبه كما قال سيدي عمر بن الفارض :
وتلاني إن كان فيه اتلافي بك عجل به جعلت فداك

ولذلك كان المحبون الصادقون بمحبة الله عز وجل في فرح وسرور ورضى من الله في سائر أعماله ، لا يدعون ولا يسألونه ، ويقولون في دعائهم : اللهم اغنني باختيارك عن اختياري . فمن طلب من الله شيئاً فكأنه مشى مع حظوظ نفسه ﴿ وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ [يونس : ١١] . والشَّرُّ هو كلُّ ما لا يأمر الله به ولا يرضاه .

أما الدعاء من أهل الغفلة فما هو إلا لإظهار عبوديتهم ، فلذلك يطلب منهم ، وأما الأنبياء فالتشريع لأممهم ، وأما الكاملون من الأولياء فلا يسبقونه بالقول بل ينتظرون ما يأمر به وما يقضي ويرضون بقضائه وقدره أيّاً كان ، وعلى ذلك الملائكة ، وكان ينبغي ذلك للأنبياء لولا وظيفة التشريع . فهم أعلى وأكبر مقاماً من سائر خلق الله تعالى فهذا بعض معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] أي بأن يقدموا الدعاء لمطلوبهم فيستجيب الله لهم أو لا يستجيب ؛ لأنه ليس لهم مطلوب إلا ما يطلبه الربُّ عز وجل .

ومن ذلك قوله تعالى آخر آية في سورة التحريم : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] مع أنَّ الظاهر وكانت من القانتات ، ولكن حيث أثبت من الأعمال الصالحة ما تعجز عنه الرجال جمعها مذكر سالم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ [الفتح : ١٠] لِمَ ضُمَّ حفص عن عاصم هاء الضمير مع أنه مكسور ؟ . ذلك أن ضميره هو « مضموم » ، ولكن إذا اتصل بالأسماء والحروف ذهبت الواو وبقي على الضمة ، فقرأه حفص على الأصل ، ومن كسره أراد التخفيف ، وذلك عند اتصاله بالأسماء والحروف والله أعلم .

ومن ذلك حذف الفضلات النحوية كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ [الليل : ٥ ، ٦] حذفت مفاعيل هذه الأفعال ليذهب

المفسر كل مذهب ، وكم حُذف في القرآن من جزاءٍ أو جوابٍ لنكتةٍ تدق عن أبصار البلاء ومنها قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر : ٧٣] قال ابن كثير في تفسيرها : وإذا حُذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل . اهـ .

وأمثال ذلك في القرآن العظيم وكل واحد منها له حِكْمٌ وأسباب ستوسع بالبحث عنها بأكثر من هذا .

وفي « روح البيان » قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ ﴾ [النازعات : ٣٤] جوابه محذوف يدلُّ عليه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ﴾ [عبس : ٣٤] .

ومن ذلك إشارة قوله تعالى في سورة النساء [١١] :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ إلى آخر الآية .

فقد سئلتُ أن الله تعالى جعل الثلثين لما فوق الاثنتين فما دليل فرض الثلثين للبتنتين أيضاً ؟-

فأجبت : إنما وجب الثلثان للبتنتين من بلاغة القرآن العظيم بإشارته المعجزة .

ذلك أن الله تعالى قال : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فإن كانت واحدة مع أخيها تأخذ الثلث وأخوها يأخذ الثلثين ، فلتن كانت مع أختها فمن باب أولى أن لا تأخذ أقل مما تأخذه مع أخيها ، فاتضح الحكم في البنتين من إشارة هذه الآية . بقي الحكم في الأكثر منها فنص الله تعالى عليه بقوله : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ أي حيث علم حكم ما دونهما من إشارة آية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ بقي ما فوقهما فينبئ الله تعالى بالصراحة ليعتبر العلماء ببلاغة هذا الكتاب المقدس بإشارته كما هو بعبارته والله أعلم .

(طريقة) مناسبة لبحث بلاغة الكتاب العزيز :

في «روح البيان» بتفسير تحت قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ من تفسير سورة الفاتحة قال : يحكى عن أبي عبد الله محمد بن شجاع الثلجي رحمه الله تعالى أنه قال : كان من عادتي قراءة ﴿مَالِكِ﴾ فسمعت من بعض الأدباء أن ﴿مَلِك﴾ أبلغ فتركت عادتي وقرأت ﴿مَلِك﴾ فرأيت في المنام قائلاً يقول : لم نقصت من حسناتك عشرًا ؟ ألم تسمع قول النبي ﷺ : « من قرأ القرآن كتب له بكل حرف عشر حسنات ، ومحيت عنه عشر سيئات ، ورفعت له عشر درجات ؟ » فانتبهت فلم أترك عادتي حتى رأيت ثانياً في المنام أنه قيل لي : لم لا تترك هذه العادة ؟ أما سمعت قول النبي ﷺ : « اقرؤوا القرآن فحماً مفحماً » أي عظيمًا معظمًا ، فأتيت قَطْرُبًا - وكان إماماً في اللغة - فسأله ما بين المَالِكِ والمَلِكِ فقال : بينهما فرق كثير ، أما المالك فهو الذي ملك شيئاً من الدنيا وأما الملك فهو الذي يملك الملوك . اهـ .

قلت : فانظر حكمة القراءات وما لكل قراءة من مزية والله أعلم .

وكذا قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنما أفرد ضمير الخطاب ، وأتى بنون المتكلم مع الغير لإظهار اعتقاد وحدانية المخاطب ، وإقرار جميع المتكلمين بالعبودية والاستعانة على من سواه ، وليست الكاف بضمير خطاب ولا النون بنون عظمة بل الكاف كاف توحيد والنون نون إقرار الجميع للواحد الأحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] .

فقد حكى أَنَّ الأصمعي سمع جارية تقول :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَذَنْبِي كُلِّهِ قَبَّلْتُ إِنْسَاناً بِغَيْرِ جِلِّهِ
مِثْلَ الْغَزَالِ نَاعِماً فِي دَلِّهِ فَاتَتَصَفَّ اللَّيْلُ وَلَمْ أَصَلِّهِ

فقال لها ما أفصح ما قلت ! قالت له : شيخُ فَإِنْ تَخاطَبُ الغواني ! أَوْتَعُدُّ هذا فصاحةً بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية ؟ قالوا : وقد جمعت الآية على وجازتها بين أمرين هما : ﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾ و ﴿ أَلْقِيهِ ﴾ ، ونهين هما : ﴿ لَا تَخَافِي ﴾ و ﴿ لَا تَحْزَنِي ﴾ ، وخبرين وبشارتين هما : ﴿ رَأَوْهُ إِلَيْكَ ﴾ ، و ﴿ جَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وتسلية عن مُصابٍ أليم وإخبارٍ بالغيب الذي قدره الحكيم العليم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] فَإِنَّ الصَّدْعَ معناه الإظهار مع الجهر ، مبالغة في الإظهار ، كإصداع الفجر ، فاستعير لإظهار الدين بالمبالغة ، أو من صدع الزجاج ونحوها ، وهو تفريقُ أجزائها لما في الدين من كسر معتقدات أهل الشُّرك وأصنامهم وتفريق كلمتهم ، والمعنى افرِّق بين الحقِّ والباطل بإظهار الحق ودحض ما سواه بالجهر والعلانية .

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق : ١٢] أي ذات الشَّقِّ بالنبات والعيون والأنهار ، لأنَّ الصَّدْعَ الشَّقُّ ، وقد مرَّ بعضُ ما في هذه الآية من الإعجاز وفي « الصحاح » صَدَعَ بالحق : أي تكلم به جهاراً . وقوله تعالى : ﴿ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٩] أي لا يصيبهم صُدَاعُ الرأس ، أو معناه لا يتفرَّقون عنها كما يتفرَّق أهل الدنيا بما يداخلهم من خَبَالِ شرابهم فلا يدرون أين يذهبون .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿ [العصر : ١-٣] .

فالعصر يحتمل أنه عصرُ النبوة الذي أرسل الله رسوله فيه بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ويحق أن يقسم به لأنه عصرُ خاتم الأنبياء ، عصرُ خاتم الرسل ، عصرُ خاتم الكتب السماوية ، عصرُ خاتم الأديان ، عصرُ نصر دين الله . ويحتمل أنه كلُّ عصر لما يحتوي من الحوادث المتوالية فيه المشتملة على إظهار مكنون غيب الله في خلقه كما قال تعالى : ﴿ كلُّ يوم هو في شأن ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

ثم أخبر تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ رُخِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فيفهم أن الإنسان مبنئ على الخُسْر ، وخروجه منه صعبٌ وعسير ، حتى يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وما أدراك ما الصالحات ؟ كلمةٌ فذةٌ جامعةٌ تحوى محاسن الدنيا والآخرة .

ثم أكَّده بقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ [العصر : ٣] وفيه شمولُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأداء الحقوق ، وإقامة الحدود ، وإن التواصيَ بالحق أمرٌ عظيم ، يشمل كلَّ حق .

ثم أرشد تعالى إلى حسن الخلق بقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

قال ابن كثير : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مُسيلمة الكذاب ، وذلك بعد ما بُعث رسولُ الله ﷺ وقبل أن يُسلم عمرو فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المُدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٢٢﴾ .. ففكر مسيلمة هنيهةً ثم قال :
وقد أنزل عليّ مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، إنما أنت
أذنانِ وصدر ، وسائرُك حَفَرٌ نَقَر . ثم قال : كيف تجد يا عمرو ؟ فقال له
عمرو : والله إنَّكَ لتعلمُ أني أعلمُ أنكَ تكذب .

وقد رأيتُ أبا بكرٍ الخرائطي أسندَ في كتابه المعروف بـ « مساوئ
الأخلاق » في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه ، والوبرُ دُوَيْبَةٌ تشبه
الهرَّ أعظم شيء فيه أذناه وصدره ، وباقيه دميم .

وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن
قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن
يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على
الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبَّر النَّاسُ هذه السورة لوسعتهم . اهـ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣]

[٢٣] .

أي لا يسأل سؤال إنكار أو عن علة فعله الباعثة له ، ولا عن الحكم بأن
يقال : لم حكمت ؟ ولا عن الحكمة في فعله ، لأنه قد لا تدركه عقولُ
البشر . وهم يُسألون عن كلِّ ما ذُكر لأنَّ السيد له أن يسأل عبده عن كلِّ
شيء ، ولو قيسَت الآية بأبلغ كلامٍ من نوعها اتَّضَحَ الفَرْقُ كالشمس ليس
دونها سحاب . وقال الحماسي وهو السموأل بن عادِيَاء اليهودي وقد مات
قبل البعثة :

وَنُنَكِّرُ إِنْ شَتْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يَنْكُرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
وذلك أنه يصف رياستهم ونفاذَ حكمهم ؛ أي نحن نغيِّرُ ما نريدُ من قولٍ
غيرنا ، وأحدٌ لا يجسُر على الإعتراض علينا . فاختلَفَ اللفظُ اختلافاً بعيداً

وتفاوتت تفاوتاً يَبِيناً ، فلذا كانت الآية إيجازاً بالنسبة له ، مع أن الآية تشمل كل فعل ، والبيت مختصُّ بالقول ، والقول فعل أيضاً ، والموجود في الآية نفي السؤال ، وفي البيت نفي الإنكار . ونفي السؤال أبلغ من نفي الإنكار مع ما في لفظ السؤال من جزالة وقبول ، وفي لفظ التُّكْران من ثقل ونفور ، ومع ذلك ما في الآية صِدْقٌ وحقٌّ ، وما في البيت دعوى وحُجْمٌ ، والله أعلم .

البحث الثلاثون

إعجاز القرآن العظيم بتكرار القصص

قال تعالى في سورة طه [٩-١٣] : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لَمَا يُوحَى ﴾ .

وفي سورة الذاريات [٣٩ ، ٤٠] : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

وفي سورة النازعات [١٥-٢٦] : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ .

تكرارُ أكثر القصص الواردة في القرآن وهي النقطة العظيمة التي تُعَدُّ من أعظم معجزاته . وقد أفاض البحث بهذا الموضوع سيدي وشيخي المرحوم الوالد برسالته الشهيرة المسماة بالتقرير في التكرير . وإنَّ من حكمته أن تكون قصةٌ ذُكرت بآيةٍ فاقت بيلاعتها كلامَ البشر ، فكان المشركون يقولون

حصلت هذه الرمية من محمد فلا يقدر على مثلها ، فتعاد القصة بنفسها ببلاغة كالأولى ، وهكذا مهما تكررَت ، وهذا مما تستملحه البلغاء أن تعاد القصة في كل مرة مضارعة لأختها في البلاغة والإعجاز ؛ وإلى غير ذلك مما ذكره رحمه الله في هذا الباب من الأسباب .

وإني حيث أذكر نوع الإعجاز فقط فأقول : ما من آية أُعيدت إلا وكان فيها ما لم يُذكر في غيرها من تمام القصة . فإن قصة موسى مثلاً ، ولُبثه مع قومه لم يكن في جلسة واحدة أو في ساعة واحدة ، إنما كان في جلسات متعددة وأزمان مختلفة ، وفي كل وقت كان يحدث معه من الحوادث ما لم يحدث بغيره . فافتضى أن تكرر القصص لبيان أكثر الخبر . وهكذا نوح عليه السلام أقام ألف سنة إلا خمسين عاماً بين قومه ، وكان في كل إنذار يحدث معه ما لم يحدث في غيره .

والله سبحانه وتعالى لم يجمع قصة أحدٍ ممن ذكره في سورة واحدة لبيان اختلاف الحوادث في كل مجلس ، ولحكمة بيان بلاغتها كذلك ، وفي بعضها جمعها بسورة واحدة كقصة يوسف عليه السلام ، لحكمة منه تعالى فافهم ذلك وتتبع الآيات يتضح لك الأمر والله أعلم .

البحث الحادي والثلاثون

من ذلك قوله تعالى في آخر سورة العنكبوت [٦٤] : ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فمعنى الحيوان أن ما في الدنيا بعضه حيوان وبعضه جماد ، ولكن في الآخرة لا جماد أصلاً ، وكل ما فيها حيوان ، أي كالحيوان بحركات إرادية ، فلو تصادمت مع إنسان مثلاً فيما أن تزيح من طريقه ، أو هو يتنحى عن طريقك ، ولكن لو صدمك خشب أو حديد أو حجر لا يُنحى عنك في الدنيا ،

أما في الآخرة فيتنحى عنك لأنَّ حياته حيوانية وإرادية ، فالدار الآخرة كلها حيوان .

وتحمل الآية معنى آخر ، وهو أنَّ الآخرة حياة بلا موت ، فشجر الدنيا مآله إلى الحطب واليباس ، ولكنَّ شجر الآخرة حيٌّ دائماً . ثمار الدنيا مآلها للذبول والفساد والنفاد ، ولكن ثمار الآخرة لا تذبل ولا تفسد ولا تنفد ، وعمار الدنيا إلى خراب ، ولكنَّ عمار الآخرة إلى بقاء لا تبلى الثياب ولا يفنى الشباب . والله تعالى هو المتفضل المعطي الوهاب ، بدون عمل ولا اكتساب ، وإنما هو بأمر كُنْ بلا ارتياب .

البحث الثاني والثلاثون

قال تعالى في سورة الأنبياء [٣٢] : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق : ١١-١٤] .

وحقُّ والله إنَّ هذا القرآن لقولُ فضل يفصلُ بين الحق والباطل ، وبين الصحيح من العقائد وباطلها ، وهو من عند مَنْ خَلَقَ السماوات والأرض ، وليس كدعوى الكذابين الدجالين الهازلين لأجل حُطام الدنيا . فليس هو بالهزل .

وقد أيدتْ هاتين الآيتين أحاديثُ الإسراء والمعراج حين أُسْرَى جبريلُ برسول الله ﷺ وعُرِجَ به إلى السماء ، وصار يستفتحُ كلما وصلَ إلى سماء فيسأل : مَنْ معك ؟ فيقول : محمد ﷺ ، مع أنَّ جبريلَ لا يلزمه السؤال ، بل وكان ينزلُ على الأنبياء كلَّ عشيَّةٍ وضحاها . فلم يردَّ في خبر صحيح ولا باطل أنه كان يستأذنُ أو يستفتح ، ولكن لما لم يكن معتاداً خروجُ بشرٍ إلى

تلك الأمكنة الرفيعة بهيئاته البشرية ، والبستة الآدمية ؛ ولكن حين كان يعلمهم بأمر الله وهو الأمين فكانوا يفتحون له .

فالسماء سقّف محفوظٌ بما يتصاعدُ إليها من المخلوقات السفلية لا يمكن أن يتجاوزها أحد إلا بأمر إلهي .

وإنها ترجع كلّما تصاعد إليها من الأرض بدون إذن . فالأرض ذاتُ الصّدع تصدّع بما فيها وترسله ، والسماء تُرجّعه حتى يكون الإذن من الله تعالى .

ولو لم تكن السماء سقفاً محفوظاً لذهبت موجات الأصوات هباءً ولم ترجع إلى لاقطاتها من الراديو والهواتف اللاسلكية ، لأنّ الأصوات الخارجة من محالّها إذا رُكِّبت على الكهرباء قطعت في الثانية آلاف الأميال فتصعد إلى السقف المحفوظ فيردّها ، ثم تصعدُ فيردّها وتصعدُ فيردّها حتى يلتقطها لاقطها ويوصلها لآذاننا بموجات الهواء المقسّم أمراً بإذن الله تعالى فاعلم ذلك .

البحث الثالث والثلاثون

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

أقول : شاع بين الناس أنّ المراد لا يعلم ما في الأرحام من كون الولد ذكراً أو أنثى ، وأنّ ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . مع أنّ ما في الأرحام كثيرٌ وكثير ، وإنّ علم ما في الأرحام دليلٌ على قدرة الإله ووحدانيته سبحانه .

وقد ألعنا لهذا البحث أول الكتاب بما روي أنّ الدهرية طلبوا من أبي حنيفة دليلاً على الله سبحانه وتعالى ، فقال لهم : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ .

تريد الأم أن تحملَ فلا تحمل ، وتريدُ أن لا تحمل فتحمل ، وتريدُ الذكر فيكون الأنثى ، وتريد الأنثى فيكون الذكر ، وهكذا الوالد والطبيب ، فهلاً كان للوالدين والطبيب قدرةً على تكييف ذلك مهما عظم أمرهم ؟ فهذا دليلٌ على قهرهم بقوة قاهرٍ حكيمٍ عليم . والحقيقةُ ما تُنسب لهذا الإمام رضي الله عنه ، فكم من مرةٍ يحكم بأن المرأة تحمل ولا تحمل ، وكم من مرةٍ بالعكس . فما هو السبب يا ترى ؟ فبعضُهم يعلِّله بانحراف الرَّجِم وقد يستقيمُ فلا تحمِل ، وبعضُهم يعلِّله بحموضة الفَرْج فقد يكون قَلَوياً ولا تحمل ، وبعضهم يعلِّله بعدم إفراز البُويضات الأنثويّة ، فقد تفرز بغزارة ولا تحمل ، وبعضُهم يعلِّله بانسدادِ النقيير ، فقد يكون مفتوحاً بإجراء النفخ فيه ولا تحمل ، وبعضهم يعلِّله بِقَلَةِ الحيوانات المنوية أو ضعفها أو موتها فقد تكون غزيرة وقوية ولا تحمل . وبعضُهم يعلِّله بِقَصْرِ القضيب فلا يوصل الحيوانات إلى محلها ، فقد يكون بحالةٍ جيدة ولا تحمل ، وقد يكون للوالدين عشرة أناث فيريدون ذكراً فتأتي الأنثى ، ويكون لهم عشرُ ذكور فيريدون الأنثى فيأتي الذكر .

فأين قدرةُ البشر الذي يخترع الطائرات والمدمّرات والصواريخ والأقمار الصناعية والقنابل الفتّانة الذريّة ؟ وهو عاجز عن تدبير نفسه وواقف بحالة العجز عن قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أي لا يعلمه سواه . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى ٤٩ ، ٥٠] أي لا قدرةَ لأحدٍ في هذا الأمر سواه تبارك الله رب العالمين .

أما كون الحمل ذكراً أو أنثى فهو خفي أيضاً في أيامه الأول لكن قد يغلب الظن بالوسائل المخترة حديثاً كتفاعل أبردهالدين ، وما أدخل عليه من

التعديل . ثم لما يمضي على الحمل شهر يمكن معرفته بالأشعة التي تطلع على الأفئدة . هذا ما كان من جهة الحمل فقط . أما غيره من الأمراض التي تشبه أيضاً هي مع مسبباتها فكثير وكثير لا يعلم حقائقها إلا اللطيف الخبير ؛ وفيما ذكرنا كفاية لكل مستفيد غير عنيد .

البحث الرابع والثلاثون

ما استأثر الله تعالى بعلمه

ومما استأثر الله تعالى بعلمه مفاتيح الغيب ، وهذا الفصل في الدنيا مما أعجز ويُعجز البشر على ممرِّ الدهور وهو أَمْسُ شيء بهم ولا يعرفون منه شيئاً .

قال تعالى في سورة الأنعام في الآية [٥٩] : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

قال الخازن : وهي ما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى : لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يدري أحد متى يجيء المطر » .

وفي رواية أخرى : « لا يدري أحد ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى الساعة إلا الله » . أخرجه البخاري وذكر أقوالاً آخر في المراد بمفاتيح الغيب .

وذكر في تفسير آخر سورة لقمان [٣٤] وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

علمُ السَّاعَةِ وَيُنْزَلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ،
وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت ﴿١﴾ .

أُنها نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن حفصة من أهل البادية ، أتى
النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إِنَّ أَرْضَنَا أَجْدَبَتْ فَقُلْ لِي مَتَى يَنْزِلُ
الغيث ؟ وتركْتُ امرأتِي حُبْلَى مَتَى تَلِدُ ؟ ولقد علمتُ أين ولدتُ فبأيِّ أرضٍ
أموت ؟. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

ثم رمز للشيخين عن ابن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَفَاتِحُ الْغَيْبِ
خَمْسٌ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنْزَلُ الْغَيْثُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ،
وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت » .

ولعمري إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَعْجَزَتِ الْبَشَرَ أَنْ يَسْتَكْشِفُوا وَاحِداً مِنْهَا فَخَابُوا
وَحَسِرُوا وَهِيَ أَمْسُ شَيْءٍ بِهِمْ .

١ — أَمَا السَّاعَةُ الْمَوْعُودَةُ فَأَمْرُهَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّهَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف : ١٨٦] .

٢ — وَأَمَا كَسْبُ الْغَدِ فَمِثْلُهَا لَا يَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ مَعَ مَخْلُوقٍ سِوَى خَالِقِهِ .

٣ — وَأَمَا الْمَوْتُ : فَكُذَّاءٌ لَا يَدْرِي زَمَانَهُ وَمَكَانَهُ إِلَّا اللَّهُ .

٤ — وَأَمَا إِنْزَالُ الْغَيْثِ فَكَذَلِكَ وَلَوْ مَاتَ الْبَشَرُ مِنَ الْعَطَشِ أَوْ مَاتَتِ
الْحَيَوَانَاتُ أَوْ قَحَطَتِ الْأَرْضُ وَجَفَّتْ لَا يُمْكِنُ لِبَشَرٍ أَنْ يَنْزِلَ شَيْئاً . نعم قد
اكتشف الآن إنزالُ مطرٍ صناعي ، ولكن ليس بإمكانهم إنزاله ، حيث أرادوا
وقد حصلت مع أحد أغنياء البلاد ، فجفَّتْ عنده كغيره وبيستِ الأرض ،
فاستدعى أربابَ الفن وفعلوا ما تمكَّنُوا عليه ، ووضع مبالغ طائلة حتى توصَّل
لإنزال شيءٍ من المطر فتزلت على جواره فقط ، ولكن لم ينزلْ على أرضٍ مَنْ
وضعَ تلك الأموال شيء ، ليعلموا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ ، ثم أقام

صاحبُ الأموال والأرض الدعوى على من نزلت المطرُ على أرضه فلم يُحْكَمْ له بشيء ، ولم ينفذ من تشيئه شيئاً ، وهذا ما شاهدناه وتواتر في الجزيرة .

وأما ما تكهنَ أربابُ الطبيعة في هذه الأيام عن الجوِّ وأحواله كلَّ يوم وإعلانه بالإذاعات والصُّحف ، فأولاً هو أغلبي كما نشاهدُه وليس بصادقٍ على الدوام . ثانياً يتكهنون بوقتِ الحوادث أي حين تلبَّد الأفق بحوادثه وليس قبله ، وبما يلاحظونه من الجوار ، وبالوسائط الحكيمة الحساسة التي تستفيد من الرطوبة أو الهواء أو الغيوم على ما سيحدث ذلك لا يمكنهم إنزاله بدون سبب ، ولا استحداث غيوم ، ومن يقدر على ذلك إلا الله إلا ما كان بموضع خاص قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ [السجدة : ٢٧] . قال النسفي في تفسيره : أي الأرض التي جُرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء أو لأنه رُعي ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز بدليل قوله : ﴿ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ . اهـ . قلت : وقولُ العامة الآن جرزه لجرز الخضر لها مناسبة للمعنى اللغوي .

وقد أوضح هذه المعجزة ما رأيته من الحديث الصحيح في كتاب الزهد من « صحيح مسلم » في باب الصدقة في المساكين ، قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حَرْب واللفظ لأبي بكر قالوا : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن وهب بن كيسان ، عن عُبيد بن عُمير الليثي ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً في سحابة : اسقِ حديقةً فلان . فتنحى ذلك السحابُ فأفرغَ ماءً في حَرَّة ، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشُّراج قد استوعبت ذلك الماءَ كُلَّهُ فتبع الماءُ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يحوِّلُ الماءَ بمسحاته فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان . للاسم الذي سمعَه في السحابة ، فقال له : يا عبد الله لم تسألني عن اسمي ؟ فقال : إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسقِ

حديقة فلان ، لاسمك ، فما تصنعُ فيها ؟ قال : أما إذ قلت هذا فإنني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدقُ بثلثه وآكلُ أنا وعيالي ثلثه وأردُّ فيها ثلثه » . وحدثنا أحمد بن عبدة الضبي أخبرنا أبو داود أخبرنا عبد العزيز بن أبي سلمة حدثنا وهب بن كيسان بهذا الإسناد ، غير أنه قال : « فأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل » . فتعسأ وبؤساً لمن لا يؤمنُ بهذا القرآن وهذا الدين بعد أن يظهرَ صدقُ كلِّ كلمةٍ منه كما أراد منزله ربُّ العالمين . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] .

وكم حدثت زلازل وخسوفات وفيضان أنهر وبحور ذهب فيها مئات الألوف من البشر لم نر دولة من الدول تكهَّنَ علماؤها بشيءٍ منها قبل حدوثه ، كما حصل في دولة الباكستان في كانون الأول من سنة ١٩٧٠ ذهب فيه نحو مليون نسمة من بني آدم عن البلاد التي دمرت ، وكذلك في أمريكا ذهب ضحيته نحو مائة ألف نسمة فأين من يعلم هذه الأشياء من البشر قبل حدوثها ؟ وما يحدث في بلاد العجم من الزلازل والخسوفات المتكررة كالتي حصلت حين كتابة هذه السطور سنة ١٣٩٢ بشهر صفر ، وسنة ١٩٧٢ بشهر نيسان من الزلازل الذي ذهب ضحيته نحو عشرة آلاف نفس ، عدا خراب البلاد التي حصل فيها نساء الله اللطف والسلامة .

البحث الخامس والثلاثون

في بعض الآيات التي تضمَّنت مكارم الأخلاق والمواظ وهي لا تُحصَى ونكتفي بشيء منها

فمنها قوله تعالى في سورة النساء [١٣٥] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

بَالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٨﴾ .

وجميع هذه الآيات غنية عن الإيضاح بما انطوت عليه من الأمر بمحاسن الأخلاق واتباع العدل في الأحكام وتجنب الظلم كغيرها من آيات الكتاب العزيز التي لا تحتاج إلى إيضاح ما تنطوي عليه من هذا الباب مع بلاغة لا يصل إليها كلام البشر بل هو بالنسبة لها كعواء العجاوات ، فلذا نكتفي بسرد بعض آيات منها لتكون تذكراً لأولي الأبصار ، فمنها قوله تعالى في أول سورة المائدة [٨] : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَا ينهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلوكم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجوكُم مِّن ديارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهم وَتُقْسِطوا إِلَيْهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أَنْ تولَّوهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ﴿ [المتحنة : ٨ ، ٩] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] . وقد سبق ما في هذه الآية من البلاغة التي أعجزت البشر معارضتها .

ومن أبلغ مواعظ كتاب الله تعالى في سورة القصص [٦٠] : ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وما عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وهل من شيء أبلغ في الوعظ والزهد من هذه الآية الفذة العظيمة البليغة المعجزة ؟! نسأله تعالى أن يرزقنا العقل الكامل لنهتدي به إلى أمره تعالى كما يحب ،

ومثلها قوله تعالى في سورة طه [١٣١، ١٣٢]: ﴿وَلَا تَمْدَنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ .

أي — والله أعلم — ليس القصدُ هذه الحياة وزهرتها ، وإنما هي فتنة لمن يفتتن بها ، لكن الصلاة والتقوى هي المقصودة من هذه الحياة فاصطبر عليها . اللهم رَضْنَا بقضائك ، وصَبِّرْنَا على بلائك ، وحَفِّنَا بِالطَّافِكِ الخفية ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا لِقَاءَكَ يَا رَب .

فقد رُوي أَنَّ ميمونَ بن مِهْران لَقِيَ الحسَنَ في الطواف — وكان يتمنى لقاءه — فقال له : عِظْنِي . فلم يزدْ على تلاوة قوله تعالى : ﴿أَبْعِدَابَنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء ٢٠٤-٢٠٧] فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

ورُوي أَنَّ عمرَ بن عبد العزيز كان يقرأ هذه الآية كلَّ صباح إذا جلس على سريره تذكُّراً بها وإِعْظافاً . « روح البيان » في سورة الشعراء .

البحث السادس والثلاثون

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم : ٩] .

والناظر في هذه الآية : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ . فَإِنَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وصلَّتْ أخبارُهم إلينا بالتفصيل ، ولكن إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ عَلِمْنَا أَنَّ مَا لَمْ يَصِلْ إلينا خَبَرُهُمْ هم فترة من قبلنا ومن بعد هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى ، وإذا كانت هذه الفترة لم تصلنا أخبارُهم فمن قبلهم بالأولى ، ولكن الذي يهمُّ

البشر معرفة أخبارهم هُم مَن بَعْدَ هَؤُلاءِ ، وإلى أن وصل الزمنُ إلينا . أما مِن نوح فما لنا وما لهم ؟ فأجسامُهم أضخمُ من أجسامنا ، وأحوالُ الأرضِ غيرُ أحوالها بعد الطوفان ، فالطوفان هو انقلابُ كوني عظيمٌ أحدث في الأرض بحوراً وبُحيرات ، ورطب وجهَ الأرض بما تتحمّله أجسامُ الخلق الذين وصلوا بعده إلى ما قبلنا . ثم بعد محمد ﷺ دَبَّتْ مَدِينَةُ الْعَالَمِ على وجه الأرض ؛ فالرومان كانوا يبيعون أولادهم وزوجاتهم ويقتلونهم ، وهذا كما كان يفعلُه العربُ الجاهليون في حروبهم ووَادِ بناتهم ، وسَبَكُ هذه الآية ينادي بإعجازها العظيم ، حيث حصر بمن بعد المذكورين وبمن قبلنا . ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ومما يدلُّ على كَذِبِ الْمُدِّدِ التي ذَكَرْتُهَا التَّوْرَةُ المحرّفة التي كَذَّبَهَا اكشافاتُ العصر الحاضر بالآثار الجيولوجية الدالة على قَدَمِ التاريخ بآلاف آلاف السنين والذي أكده قولُ الرسول الأعظم ﷺ حين وصل إلى جَدِّهِ عدنان قال : « كَذَبَ النَّسَابُونَ » . وَمِنَ أبلغ ما يعتبرُ به المعتبرون الفرق بين قوله تعالى في أولِ سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] . وبين قوله تعالى في سورة [يونس : ٣٨] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْهُ قُلُوبُنَا فَاَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . حيث أتى بآية البقرة بـ « من » ، وهنا لم يأت بها لأن الأولى تدل - والله أعلم - على أن المراد التحدي بأن يكون رجل مثل محمد لم يتعاط الشُّعْرَ وهو أُمِّي أتى بهذا القرآن فليأت رجلٌ من العرب يجيء بآية مثل ما أتى محمد وأخبرنا أنه من عند ربه الذي أرسله .

وأما آية يونس فتعيد التحدي بآية من القرآن ، والضمير بها راجعٌ إلى نفس القرآن العزيز ، وفرق من يقول : فليأتوا بآية من رجل مثل محمد وبين من يقول فليأتوا بآية مثل القرآن العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرتنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ [المائدة : ١٤] ، فمن تفكّر بهذه الآية يعلم شيئاً من بلاغة كلام الله عز وجل حيث يقول ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى ﴾ ، ولكن ليسوا بنصارى حقيقة ، لأنّ النصارى الحقيقيين هم الذين ينصرون دين عيسى الحقيقي . أما الذين يقولون عن أنفسهم إنهم نصارى وليسوا بنصارى حقيقة ، لأنهم نسوا ما ذكروا به فأغرى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

البحث السابع والثلاثون

الآيات الظاهرة الإعجاز

قوله تعالى في سورة المائدة [١٤] ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرتنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ .

أي - والله أعلم - منهم من نسي ما أخذ عليهم من الميثاق باتباع حقيقة دينهم فحيثُذ وقعت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ؛ لأنّ الذين يتقون يجعل الله بينهم وداً وتراحماً . أمّا من ينسى حقيقة الدين ، فإن الشيطان ينزغ بينهم فترى الحروب قائمةً بينهم على ساق وقدم ، مع أن دينهم واحد ، ليأخذ هذا أرض هذا ويخرج هذا من بلاد هذا عصيةً وحميةً كما وقع في حرب سنة ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وحرب سنة ١٩٣٩ من الأحوال التي لم نطلع في تاريخ البشرية على أفظع منها . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ [الممتحنة : ٥] قد اشتملت هذه الآية على دعاء عظيم ، وخير عميم لمن يدعو بها ، ومعانٍ جمّة مع وجازة لفظها ، وسلاسة قولها . فهي تفيد السؤال من الله أن يجعل الداعي بها على

حالٍ حسنةٍ ، من العافية والرزق ، ووفورِ النعمة والتبسط فيما يطمع الكفارُ أن يكونوا كذلك . وأما إذا كان المؤمن بعكس ذلك من الفقر والاحتياج والسقم والدَّلة وضعف الحال فيفتنُّ به الكفرةُ ، ويقولون : إنما ضرَّ هذا دينه ، بحيث يستحسنون دينهم وما هم عليه ، فيكون المؤمنون فتنةً لهم ، فأرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى هذا الدُّعاء الجامع لتلك المعاني الرائعة البديعة بالفاظٍ موجزةٍ ، جلَّ من أنزلها على أشرفِ رسولٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقال تعالى ﴿ أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِلُّ الرِّيَاحُ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِنْ أَلَّهَ اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٣] .

وقوله تعالى ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ [يس : ٤٣ -

[٤٤] .

هي شاهدٌ مشاهدٌ على الغواصات التي تغوص في ظلمات البحر ، فإنه لا هادي لها إلا الله ؛ بما علَّمهم من قوانينها العظيمة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

فمنطوق هذه الآية دليل على القدرة الإلهية التي عذَّب بها الأمم السابقة . ولكن بعد ظهور الألغام الأرضية ، والغواصات البحرية ، وقنابل الطائرات الجوية ، وغازاتها الخانقة السامة ، والأقمار السائرة ، والصواريخ السريعة لا يبعد أن تكون الآية مشيرةً لها بكلِّ وضوح .

أما قوله تعالى ﴿ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا ﴾ فهي الحالة التي نحن فيها الآن - أعني من سنة ١٩٢٠ ميلادية حتى ١٩٥٩ الموافقة لسنة ١٣٣٨ حتى ١٣٧٧

هجرية فإن البلاد دخلت في الدسائس الأجنبية ، وأعلن رئيس الدّسّاسين في البلاد - الذي نتحاشا عن ذكر اسمه - : أن وجود الأديان المختلفة ، والجنسيات المتعدّدة في البلاد يجعل أهلها متفرّقين ، وعليه يجب تشكيل الأحزاب التي يدين أفراد كلّ حزب بمبادئه ، وتتلأشى فيه كلّ نزعة دينية أو جنسية . وقد أصاب صوته أذنًا صاغيةً فتألّفت في البلاد أحزابٌ شتى ، فتضاربت مصالحها وتعلّت أصواتها حتى صارت وطأتها أشدّ بكثير من شرور الأجناس ، وتفرّق الأديان ، ومثّل ذلك كمن استجار من الرّمضاء بالنار وبما أنّ هذه الأحزاب لا يمكن قيامها بدون مالٍ ورجالٍ ، فكان زعماءها يَسْتَجِدُّون المال من أعداء البلاد ليستميلوا به الرجال . فتشّت الحال ، وكثُر القيل والقال ، واشتدّ القتال ، ولا يعلم مصير الحال إلا ذو الجلال سبحانه .

فهذا سرُّ قوله تعالى ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] . وإننا لم نسمع بمثل هذه الأيام في التاريخ من تمادي الفوضى ، وتفرّق الكلمة ، وكثرة الرؤساء ، وظهور الأسافل ، واستغناء الأراذل ، وفقر الأشراف وذلّهم وخنوعهم ، وضياع الحقوق ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

ويؤيّد هذه الآية قوله تعالى في سورة القصص [٤] ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٣ ، ٣٤] .

وقال تعالى في توضيح ذلك : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر :

[٤٩] .

قدّم هنا سبحانه وتعالى مساس الضّر ، ليعلم العبد ضعف قوّته ، وقلة حيلته عن دفعه من أوّل الأمر ، فإذا كان الإنسان يلجأ لرّبّه قسراً بطبيعته حين مسّ الضّر ، فكيف يقول في الخير ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ ؟ هلاً كان علمه مؤثراً في دفع الضّر عنه ، حتى إن من العاصين الذين يتجاوزون في الحدود يقذفون بألفاظ يقبّح إعادتها في جانب الحضرة الإلهية ، كأنهم ساخطون على فعله تعالى ، في حين أنهم أيام الرخاء لم يذكروه قط . وما يبدو من اضطرابهم ولجاعتهم ومخاطبتهم لرّبهم لا يشكّ أحد أنهم موقنون بوجوده تعالى بعد أن كانوا جاحدين به تمام الجحود فأحوال الناس في حال اضطرابهم مختلفة : فمنهم من يلجأ إليه تعالى بملازمة الأدب ، ومنهم من يلجأ إليه بترك الأدب . فحال الاضطراب يلزم المرء تمام الإقرار . وهذا مشاهد بطبيعة الحال في كلّ من رأيناه ، أو سمعنا باضطرابه وهذا سرّ قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلْتُ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ، ١٩٠] .

قال تعالى في سورة التوبة : [٣٠ - ٣١] ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذه الآية تُنادي بصراحة لما أثبتته اكتشاف العصر الحاضر من آثار الأمم القديمة التي كانت تعبد الأصنام ، وتتخذ التماثيل . وإن دين اليهودية والنصرانية ما هو إلا وثنيّ بحت ، يعبدون الغُزير والمسيح ثمّ ينحتون تماثيل لعيسى وأُمّه ، وأينما رأوهما يسجدون . ثمّ يعلقون صورهما على الجدران ويتقربون إليهما ، ويصوّرون الإله العظيم الشأن بصورة بعض خلقه كأنه رجل مُسنّ وهكذا . تعالى الله عَمَّا يقول الظالمون علُوّاً كبيراً .

من آيات الإعجاز قوله تعالى : ﴿ التَّيَّ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

من المعلوم أن الإنسان إذا احتاج إلى شيء من ماله هو وغيره ، فالعاقل من يبدأ بنفسه أولاً ؛ لأنَّ نفس الإنسان مُقَدِّمَةٌ على غيره بدهاءة ، وبالقاعدة التي سنَّها رسول الله ﷺ بقوله : « ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول ، ثم الأقرب فالأقرب » .

فإذا كان النبي ﷺ ﴿ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فتدلُّ هذه الآية بأنه نَزَّلَ كُلَّ مؤمن منزلةً نفسه ﷺ ، ولذلك كان يؤثر المحتاج منهم على نفسه ، وعلى أولاده وذريته ﷺ . وقد استفاضت أخبار كثيرة أنه كان يُفَرِّقُ ما عنده حتى لا يُبْقِيَ شيئاً لنفسه ولا لعياله يؤثر بذلك المحتاج من المؤمنين . وحتى صار هذا خُلُقاً لعامة أهل بيته ، كما سنتلو عليك بعضَ أخبارٍ من ذلك . بل ثبت ثبوتاً لا مَرِيَةَ فيه أنه ﷺ ما شَبِعَ من خبز الشعير يومين متتالين قطُّ . وعندما كان يأكل فيأتيه السائل يعطيه طعامه ويقعد هو وفاطمة جاععين . وكان إذا سُئِلَ ثوبه الذي يلبس ينزعه ويعطيه لمن سأله إِيَّاهُ ، ولو تأخَّرَ عن حضور جماعة الصلاة لعدم ما يَلْبَسُهُ .

وَمَنْ كان حاله هكذا كان ماله صدقةً للمحتاج . ولذلك كان يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة » .
ثمَّ عدمُ توريتهم ما يتركونه دليلٌ على حياتهم وأنها فوق حياة الشهداء لأدلة :

١ - قوله تعالى ﴿ مَا دَلَّهِمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ [سبأ :

[١٤] .

وقد حُسِبَ ذلك فكان سنةً . ومُحالٌ أن يبقى الإنسان سنةً بعد موته بدون

أن يطرأ عليه ما يغيّر حاله . فلو لم يكن حُكْم حياته ﷺ جارياً عليه لم يبق أمام الخلق كلُّهم إنسهم وجنُّهم كأنه لم يمت .

٢ - عدم جواز تزوّج زوجاتهم من بعدهم ، قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : ٦] .

٣ - عدم تورّثهم أموالهم بالحديث الصحيح : « إنّنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة » وإن هذا الحديث ربّما بلغ مبلغ التواتر بالنظر لوقعته التاريخية حين منع أبو بكر رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها إرثها من أبيها ، واحتجّ بهذا الحديث ، فسلم له عليّ وباقي الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . فقوله تعالى : ﴿ الثّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : ٦] أفاد صدرها أوّل البحث وآخرها آخره ، مع بلاغته واختصاره . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الباقية : ١٣] .

وقال جلّ وعلا : ﴿ ألَمْ تروا أنّ الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] .

هذه الآية من أعظم معجزات القرآن التي تدلُّ بصراحة على كرامة هذا المخلوق البشري الذي قال الله في حقّه سبحانه : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : ٧٠] فإن الإنسان يستخدم سائر ما في هذه الأرض ويُسخره من نبات وجماد وحيوان ، حتى إنه ليأتي بالأسود إليه مكبّلةً ، وبالفيلة مُذلّةً ، وبالأنعام مذبوحة ليأكلها ، وبالطيور ليتلذّد بها مع أنها أرواح حيّة مخلوقة وأمم مثله . ومع ذلك فقد جعلها الله سبحانه من جُملة لذيذاته ولو لم يضطرّ إليها بل ليتفكّه

وَيَتَنَعَّم بِطَعْمِهَا وَأَكْلِهَا . وما هذا الكون إلاَّ خادماً لهذا الإنسان الكريم ، مذلَّل
 له كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] فما
 يتناول الإنسان فاكهةً ، ولا يذبح خروفاً ، ولا يشوي دجاجةً ، ولا يركب
 بعيراً ، ولا يحرق على بقرةٍ إلاَّ وهذه الآية تذكره عمومها . وإنها من أجلَّ
 آيات القرآن العظيم الذي لم يدخلها خصوص ، ولم يقيدها عقل ولا نصوص
 ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢]
 فسبحانه من إليه ما أجلُّ حكمته ، وأعظم قدرته .

قال الله تعالى في سورة الصافات [٦٢ - ٦٥] ﴿ أَذَلِّكَ خَيْرٌ أَمْ شَجَرَةُ الزُّرُّومِ *
 إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ
 الشَّيَاطِينِ ﴾ طَلْعُهَا : ثمرها .

فإن قلت : كيف لا تحرق النار الشجر ؟ قلت : إن النار لا تؤثر على كثير
 من الأجسام كمعدن الإميانت الذي يُشبه الورق ، ومع ذلك لا تؤثر النار عليه
 بالإحراق ، وكذلك البوتاس لا يحترق إلا بتماس الماء حيث يحصل له لهبٌ
 شديد ، وكذلك الفوسفور لا يُطفأ إلا بالترول . فترى قطعة موضوعة
 بزجاجة مملوءة بترولاً . فهذه الشجرة مما لا يؤثر عليها تلك المواد الجهنمية
 التي حولها . وكذا في الجحيم موادٌ صالحةٌ لتعذيب الشياطين الذين هم من
 النار فلا بُدَّ أن تكون النار على خلاف ما نعلم ، بل إن الشَّهْبَ لا تخلو من هذه
 المواد التي تؤثر على مَرَدَةِ الشياطين كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً
 لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] على أَنَّ الْجِنَّ والشياطين ،
 وإن كانوا من النار فالنار تحرقهم ، وتؤثر عليهم ، كما لو وُضِعَ الإنسان الذي
 أصله وخلقه من الطين في مستنقع من الطين بحيث يغمره ، ألا يكون عليه من
 أشدَّ العذاب ؟ فسواء بقيت النار على ما نعلم أو لم تبق فإنها تؤثر بإذن الله تعالى
 كما يؤثر التراب والطين على الإنسان ولو كان مخلوقاً منها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر :

٢٧ - ٢٨] .

قلت : فيه إشارة إلى الحديث القائل : « خُلِقَ بنو آدم معادن » أي على حسب معادن الأرض .

ذكر الله سبحانه ألوان الجُدَد ، وهي الطرق ، للدلالة على معادن الأرض بحسب ألوانها ، وإلاَّ فما الفائدة من هذه الألوان وما مناسبة ذكرها مع اختلاف أنواع الثمار ؟ أي كما أنَّ الثمار مختلفة ألوانها ، كذلك نزول الأمطار يجعل الأرض بحال تفاعل كيميائي ، فتختلف خواصها وتبدل ألوانها وتظهر بجددٍ بيضٍ وحُمْرٍ وسُودٍ على حسب معادنها ، فانظر لدقيق حكم الله تعالى !

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : ٤١] دليل على شكل الأرض البيضوي ، حيث إن هذا الشكل ينقص عن الشكل الكروي بمقتضى نواميس الطبيعة . فهي مُسَطَّحةٌ من الشمال إلى الجنوب ، واستطالتها من الشرق إلى الغرب ، والدليل على ذلك أنَّك لو وضعت شريطاً رقيقاً على لولٍ ، وثَبَّتَهُ من الأعلى والأسفل حول هذا اللُّوْبِ حتى صار مُستديراً كالكرة ، ثم أدركت اللُّوْبَ ، رأيت هذه الأشرطة تباعدت عن المركز حتى تحوَّلت هيئتها من الاستدارة إلى التَّسَطُّحِ ، ففي أثناء الحركة يتحوَّل الشكل الكروي إلى بيضاوي . ولا تزال ترجع لهيئتها كلَّما فترت الاستدارة ، ولكنَّ الدنيا من حين كانت كتلة غازية أو مائية لم تبطل حركتها فبقيت على شكل التسطُّح البيضوي . فافهم هذه الحكمة الإلهية .

الخاتمة

هذا آخر ما ألهمني الله لتحريره من بيان بعض ما تحتوي عليه آيات الكتاب العزيز بحسب الفهم القاصر . وإنما اخترت بيان ذلك من الكتاب العزيز دون سواه من أحوال الرسول الأعظم ﷺ وأقواله وأفعاله ، لأن كلام الله تعالى محصور بين هاتين الدفتين ، لا يتطرقُ الشكُّ إلى حرف منه .

وأما أحوال الرسول الأعظم ﷺ وأقواله فلم تصل إلينا جميعها بالأسانيد الصحيحة ، ولا يمكن ضبطها ولا حصرها ، ولا يمكن الحكمُ حكماً قطعياً على حديث موضوع بأنه موضوع لمجرد كونِ راويه وضاعاً مهما بلغت درجته في الكذب ، لاحتمال صدقه في هذا الحديث . وكذا في جانب الصحة مع أنه لا يشكُّ مسلمٌ قط أن أحواله وأقواله وأفعاله كلها ﷺ معجزات لا يتطرقُ الاعتراضُ على شيء منها . والله إني لأعجب العجب العظيم فيما أفكر فيه من حكم هذا النبي الكريم . ولكن بعد أن أرجعه لمصدره الذي صدر منه وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم : ٣] يزولُ عني العجب والاستبعادُ أن يأتي أحدٌ من البشر بمثل ذلك طالما أنه من الله عز وجل .

من ذلك ما يعتري كلَّ البشر من الشكوك في الخالق عزَّ وجل حينما شكوا الصحابة ذلك له ﷺ وقالوا : إنَّ ما تُحدِّث الإنسان به نفسه أعظمُ من أن يتكلَّم به . قال لهم : « أَوَتَجِدُونَ ذَلِكَ » ؟ قالوا : نعم . فقال لهم ﷺ : « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » رواه مسلم .

فانظر يا رعاك الله إلى هذا الجواب الذي هدأ به قلوبهم وجعلهم مطمئنين
على تلك الجوهرة المكنونة التي يتطلّبون بها الفوز في الحياة الأبدية وماذا
يكون أعظم من هذا الجواب المهدئ لرُوع المسلم الذي يخاف الله تعالى ؟
وما ظنّك لو أنه قال لهم غير ذلك من تقييح هذا الأمر أو تهويله أو غير ذلك
لكان سبباً في زيحهم عن الإيمان والإسلام والعياذ بالله تعالى ؟ لأن ذلك
لا يخلو منه بشرٌ غير معصوم . فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي
لولا أن هدانا الله . ونسأله تعالى أن يُهَوِّنَ علينا حسابنا وأن يجعله عرضاً
لا نقاشاً برحمته وعفوه . وصلى الله على سيدنا محمد أولاً وآخرأ والحمد لله
ربّ العالمين .

هذا ما تيسر جمعه وقد أنجزه الله في سنة ١٣٩٢ هجري الموافق سنة
١٩٧٢ ميلادي على يد أفقر العباد خادم العلم الشريف .

المرحوم الطيب محمد أبي اليسر عابدين

الفهرس

مقدمة الشيخ محمد كريم راجح شيخ القراء

خطبة الكتاب

المقدمة

معجزة البسملة

فصول الإعجاز

الفصل الأول : أحوال الآخرة

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة
وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله
ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر
ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به
إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا
ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة

الفصل الثاني : ما تهدى به كل من سواه

خلق السماوات بغير عمد ترونها

إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث
أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء
ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر
لله ملك السماوات والأرض

الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام
ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي

الفصل الثالث : الإخبار بنوايا الأعداء ونجوى الناس

يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبهم بما في قلوبهم
والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً

لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً
يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر
قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها
سيقول لك المخلفون من الأعراب
لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد
غلبت الروم في أدنى الأرض
ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت
إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله
وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل
ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم
وعلمك ما لم تكن تعلم

٤٦

الفصل الرابع : الإخبار بالغيب

لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا
ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا
والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا
وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن
قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم
ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم
وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه
ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى
سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا
والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم
لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله
وهم من بعد غلبهم سيغلبون
وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
سيهزم الجمع ويولون الدبر
إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا
 بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه
 ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً
 ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا
 وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة
 إذا زلزلت الأرض
 لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام
 وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون
 ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً
 أمّن جعل الأرض قراراً
 قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه
 وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك
 ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم
 ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم
 فسينغضون إليك رؤوسهم
 لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً
 ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها
 ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار
 قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي
 سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم
 وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر
 ٦٠ **الفصل الخامس : ذكر الأمم السابقة**
 ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد
 ٦٠ **الفصل السادس : آيات التهديد للأمم العاصية**
 ٦١ **الفصل السابع : آيات الأحكام الشرعية**
 وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به
 إن فرعون علا في الأرض

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً
إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً

٦٤

الفصل الثامن : مكارم الأخلاق

إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات
إن الله يأمر بالعدل والإحسان
لا تجعل مع الله إلهاً آخر
ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك
ولا تقتلوا أولادكم
ولا تقربوا الزنى
ولا تقربوا مال اليتيم
ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع
وهن مثل الذي عليهن
فلا تقل لهما أف

٦٥

الفصل التاسع : احتمال الآيات لمعاني متعددة

٦٦

النوع الأول : التشابه

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات
كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم

٦٧

النوع الثاني : استنباط الأحكام

٦٨

النوع الثالث : استخراج المعاني

المثال الأول : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض
فأبى أكثر الناس إلا كفوراً

كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم

المثال الثاني : هو الذي يُصلي عليكم وملائكته ليخرجكم

المثال الثالث : إياك نعبد وإياك نستعين

المثال الرابع : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت

المثال الخامس : وإذا قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم

المثال السادس : والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة

المثال السابع : ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه
المثال الثامن : ليسأل الصادقين عن صدقهم
المثال التاسع : قم الليل إلا قليلاً
المثال العاشر : يسألونك ماذا أحلّ لهم
المثال الحادي عشر : إنما أموالكم وأولادكم فتنة
المثال الثاني عشر : إن هي إلا فتنتك
المثال الثالث عشر : وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح
المثال الرابع عشر : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى
المثال الخامس عشر : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً
المثال السادس عشر : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
المثال السابع عشر : فإن آنتستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم
المثال الثامن عشر : لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون
المثال التاسع عشر : واجتنبني وبني أن نعبد الأصنام
المثال العشرون : والذين لا يشهدون الزور
المثال الحادي والعشرون : هل أتى على الإنسان حين من الدهر
المثال الثاني والعشرون : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك

٨٨

النوع الرابع : آيات الإعجاز

٨٨

البحث الأول

انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب

سنزيم آياتنا في الآفاق ...

اليوم أكملت لكم دينكم

٩٣

البحث الثاني وكل شيء عنده بمقدار

٩٤

البحث الثالث

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانت رتقاً

ثم استوى إلى السماء وهي دخان

وإن من قرية إلا نحن مهلكوها

يسألونك عن الساعة أيان مرساها

وما تدري نفس ماذا تكسب غداً
فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى
ويسألونك عن الجبال
أولم يروا أننا نأت الأرض
إذا الشمس كورت
فارتقب يوم تأتي السماء
إذا الشمس انفطرت
يوم تبدل الأرض غير الأرض

١٠١

البحث الرابع

✓ اقتربت الساعة وانشق القمر
ولقد كرّمنا بني آدم
وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض
ألم تتروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض
✓ فخسفنا به وبداره الأرض

فجعلنا عاليها سافلها
إذا السماء انفطرت
يسألونك عن الساعة أيان مرساها
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل
تخرج الملائكة والروح إليه في يوم
يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج
إنما أمره إذا أراد شيئاً

١٠٨

البحث الخامس

سأل سائل بعذاب واقع
- وإن يوماً عند ربك كألف سنة
ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة
فالمديرات أمراً
وما ننزّل إلا بأمر ربك

تنزل الملائكة والروح فيها
إليه يصعد الكلم الطيب
كل قد علم صلاته وتسييحه

١١١

البحث السادس

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
إنما يعلمه بشر

١١٢

البحث السابع

وارسلنا الرياح لواقح
ومن كل شيء خلقنا زوجين
ألم تر أن الله يزوجي سبحاً
سبحان الذي خلق الأزواج كلها
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض
وفي أنفسكم أفلا تبصرون
لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس
ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين
قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً

١١٨

البحث الثامن

أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم
 وأنزلنا من السماء ماءً فأنبثنا فيها من كل زوج كريم
والذي خلق الأزواج كلها
سبحان الذي خلق الأزواج كلها
ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين
ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

١٢٢

البحث التاسع وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار

١٢٣

البحث العاشر

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام
وهزي إليك بجذع النخلة

ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا
 لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس
 وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم
 ✓ تخلق السماوات بغير عمد ترونها
 لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر
 وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين
 ✓ وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجله مسمى
 ويمسك السماء أن تقع على الأرض
 إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل
 إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا

خلق الإنسان من عجل
 فلينظر الإنسان مم خلق

(١٣١)

✓ مرج البحرين يلتقيان
 وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات
 ✓ وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله
 ربُّ المشرقين وربُّ المغربين
 ✓ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
 فلا أقسم برَبِّ المشارق

وحمله وفصاله ثلاثون شهراً
 أتى أمر الله فلا تستعجلوه

ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا
 قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء

- أهم يقسمون رحمة ربّك
وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام
- ١٤٠ البحث السادس عشر
ن والقلم وما يسطرون
ق والقرآن المجيد
- ١٤٢ البحث السابع عشر
حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
- ١٤٦ البحث الثامن عشر
أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه
إنّا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدّموا
- ١٤٨ البحث التاسع عشر
فتيمموا صعيداً طيباً
يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا
- ١٥١ البحث العشرون
✓ ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ
- ١٥٣ البحث الحادي والعشرون : معجزة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام
ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع
وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً
- ١٥٧ البحث الثاني والعشرون : معجزة القرآن العظيم بإشاراته
وأبيضّت عيناه من الحزن
ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً
إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب
- ١٥٩ البحث الثالث والعشرون
إن في خلق السماوات والأرض واختلاف
والذاريات ذرواً
أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين
ولما فصلت العير قال أبوه

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
هو الله الخالق البارئ المصور

ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم
من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة
والله لا يحب كل مختالٍ فخور

ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف
ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه
ثم استوى إلى السماء وهي دخان ✓
لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس
وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه
وقد خلقكم أطواراً

بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد
وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه
فأروني ماذا خلق الذين من دونه
يا أيها الناس أضرب مثل فاستمعوا له
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
وفي الأرض آيات للموقنين
يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً
إن كنت جئت بآية فأت بها
قد جئكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل

قل لئن اجتمعت الأنس والجن
أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
 أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله
 أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله
 أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله
 قل هو الله أحد
 تبث بدا أبي لهب
 وقيل يا أرض ابلعي ماءك

١٧٥

البحث التاسع والعشرون : فوائد تتعلق باعجاز القرآن من قبل البلاغة

آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل
 قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
 والليل إذا يسر

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

إن هي إلا فتنتك

إن الله يأمر بالعدل والإحسان

وآت ذا القربى حقه والمسكين

قل إنما حرم ربي الفواحش

ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة

ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً

ولكم في القصاص حياة

فاصدع بما تؤمر

يا أرض ابلعي ماءك ✓

وفيهما ما تشتهي الأنفس

واسأل القرية

فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً

حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم

حم تنزيل من الرحمن الرحيم

فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة
ومن يطع الله ورسوله ويخش الله
فأردت أن أعيها
فأردنا أن يبدلهما ربُّها خيراً منه
فأراد ربُّك أن يبلغا أشدهما
خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين
ثاني اثنين إذ هما في الغار
لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده
لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون
ولو يعجل الله للناس الشر استعجلهم بالخير
وكانت من القاتنين
ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فأماً من أعطى واتقى
حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها
فإذا جاءت الطامة
يوصيكم الله في أولادكم للذكر
مالك يوم الدين
وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه
فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين
✓ والسما ذات الرجوع والأرض ذات الصدع
لا يصدعون عنها ولا ينزفون
والعصر إن الإنسان لفي خسر
كل يوم هو في شأن
فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة
إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب
لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

اعجاز القرآن العظيم بتكرار القصص
 وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً
 وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسوطان
 هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربُّه

وإن الآخرة لهي الحيوان

✓ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً

والسما ذات الرجوع

ويعلم ما في الأرحام

لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إنثاً

وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو

إن الله عنده علم الساعة

يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربِّي

✓ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

وهو الذي يتزل الغيث من بعد ما قنطوا

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء

ولا يجرمكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين

إن الله يأمر بالعدل والإحسان

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها

وَلَا تَمْدَن عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
أَفْبَغْذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَعْنَاهُمْ سِنِينَ

٢١٠

البحث السادس والثلاثون

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ

٢١٢

البحث السابع والثلاثون

وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ
رَبُّنَا لَا تَجْعَلُنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ
فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ
قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا
وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً
إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا
وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيرَ ابْنِ اللَّهِ
النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَذَلَّلْنَا لَهُم مِمَّنْهُمْ رُكُوبَهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ

قل من حَرَمَ زينةَ الله التي أخرج لعباده
أذلك خير أم شجرة الزقوم
وجعلناها رجوماً للشياطين
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات
✓ أولم يروا أنا نأت الأرض ننقصها من أطرافها

الحاتمة

مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

مرتبة وفق صكورها

الصبر مطية النجاح / لابن الظهير الإريلي - تحقيق الدكتور مازن المبارك.

مشيخة أبي المواهب الحنبلي / تحقيق محمد مطيع الحافظ.

الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة / للقاضي زكريا الأنصاري - تحقيق الدكتور مازن المبارك.

إتحاف المسلم بما في الترغيب والترهيب من أحاديث البخاري ومسلم / ليوسف النبهاني - تحقيق مأمون الصاغرجي.

الإعلام بوفيات الأعلام / لشمس الدين الذهبي - تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكار.

ظاءات القرآن الكريم / نظم أحمد بن عمار المقرئ - شرح إسماعيل بن أحمد التجيبي. ومعه

الفرق بين الظاء والضاد / لسعد بن محمد الزنجاني - تحقيق محمد سعيد المولوي.

دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط / للدكتور يوسف العش - ترجمة نزار أباطة ومحمد الصباغ.

الحركة اللغوية في الوطن العربي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى ١٩٧٥ / للدكتور شكري فيصل.

تاج التراجم في من صنف من الحنفية / لابن قطلوبغا الحنفي - تحقيق إبراهيم صالح.

نقد الطالب لزغل المناصب / ل محمد بن طولون الصالح - تحقيق محمد أحمد دهمان وخالد محمد دهمان - مراجعة نزار أباطة.

كتاب الأربعين البلدانية عن أربعين من أربعين لأربعين في أربعين / لابن
عساكر - تحقيق محمد مطيع الحافظ.

الإخلاص والنية / لابن أبي الدنيا - تحقيق إياد خالد الطباع.
شرح حماسة أبي تمام / الأعلام الشنمري - تحقيق علي المفضل حمودان.
شرح أبيات إصلاح المنطق / ليوسف بن الحسن السيرافي - تحقيق ياسين
محمد السواس.

كشف المغطى في فضل الموطن / لابن عساكر - تحقيق محمد مطيع الحافظ.
النشاط الثقافي في دولة الإمارات العربية المتحدة لعام ١٩٩٢ / إعداد إدارة
البحث العلمي والنشاط الثقافي بالمركز - قسم التوثيق - مراجعة عبد الرحمن فرفور.
الدوريات العربية: لمحات من تاريخها - منتخبات من نوادرها / إعداد إدارة
البحث العلمي والنشاط الثقافي بالمركز - قسم الدراسات والترجمة - مراجعة
عبد الرحمن فرفور.

الملا علي القاري - فهرس مؤلفاته وما كتب عنه / إعداد محمد عبد الرحمن
الشماع (مستلة من مجلة آفاق الثقافة والتراث ع ١ سنة ١٤١٤/١٩٩٣ .
الإيجاز في آيات الإعجاز / للطبيب الشيخ أبي اليسر عابدين - تحقيق الشيخ
محمد كريم راجح

البلغة في أحاديث الأحكام مما اتفق عليه الشيخان / للإمام الفقيه الحافظ
سراج الدين بن الملقن - تحقيق محيي الدين نجيب

*An. introduction towards understanding - The Roots /
by Dr. M.S.R. Al-Booty. translated by Anas Rifai.*